حكايتى مع الكتابة

الفلفوس

نسيم مجلى

وفاة الأب وبداية المتاعب

إن الحديث عن النفس ثقيل وشاق ولكن حين يطلب من الكاتب هذا العمل، فإنه يجد نفسه أمام ضرورة ملحة للتعريف بنفسه تعريفا يلقى الضوء على خلفيته الاجتماعية والثقافية ومعتقداته الفكرية، وهنا يحق لى أن أبادر وأقول كانت حياتى رحلة شاقة مليئة بالمصاعب فلا أكاد أخطو نحو هدف قريب حتى تظهر أمامى فجأة صعاب أكبرتفوق قدراتى وإمكانياتى وتبعدنى عن الهدف أميالا وأميالا.

مات أبى وعمرى تلات سنوات وكنت أصغر أخوتى وأخواتى. كنا أربع بنات وأربع أولاد، وكان أخى الأكبرفى العشرين من عمره وكان الوحيد الذى يعرف القراءة والكتاب.
ولكنه لم يحسن تصريف الأمورفأدى ذلك إلى متاعب مادية شديدة للأسرة وذلك لأنه فشل في التعليم ولم يعطه اهتماما كافيا فلم يكمل دراسته ووقف عند السنة الثانية الابتدائية. كان دائم الرسوب فأخرجه أبوه من المدرسة على أمل أن يساعده فى تجارته، لكن هيهات هيهات! خائب الصيف خائب الشتا كما يقول أهل القرية.

فقد كانت متابعته للدراسة عجبا، كان بطىء الفهم عنيدا ورافق أمثاله من ضعاف الفهم والكارهين للتعليم الذين ينتهزون الفرص للقفز من قوق الأسوار والهروب من الدراسة. وكان هو صاحب عبقرية خاصة فى التزويغ فكان يخرج من البيت فى طريقه ولكنه لايكمل المسافة إلى المدرسة بل يتخفى فى المزارع مع بعض زملائه أو فى ماسورة المياه الضخمة التى تتوسط ترعتى الرى التى تحيط بالقرية حيث ينزل إليها ويختبىء فيها حتى لايراه أحد من المارة، هذا ماكان يحدث طيلة شهور الجفاف أثناء السدة الشتوية،

هكذا هجر الدراسة كارها لها مع الكارهين. وكان زميله يسى سويرس هومرشده وأقرب أصدقائه حيث كان يفلسف له ولبقية زملائه تصرفاتهم الطائشة. فيقول لهم أن الاستمرار فى التعليم

شـــىء ممـــل وغيـــر مفيـــد. فقـــد قـــرر هـــو أن يكتفـــى بالقليـــل مـــن الدراســـة حيـــث أصـــبح يفـــك الخـــط ويمكنـــه أن يكمـــل تعليمـــه فـــى الحيـــاة، فســـوف يلتحـــق بأبيـــه كاتـــب المحـــامى لكـــى يـــتعلم منـــه ويـــرث مهنته.

" ســـوف أعمـــل مـــع أبـــى كاتـــب المحـــامى واتشـــرب منـــه الصـــنعة، أمـــا زميلنـــا شـــاكر فســـوف يـــرث صـــنعة أبيـــه وبعـــد مـــدة قصـــيرة يصـــبح بنـــاءا عظيمـــا يبنـــى البيـــوت والعمـــائر فمـــا حاجتنـــا للمدرسة."

كـــان هـــذا الأخيـــر يغـــريهم بـــالهروب مـــن المدرســـة والتســـكع فـــى الشـــوارع وعلـــى المقـــاهى حتـــى وقـــت انتهـــاء اليـــوم الدراســـى فيعـــودون ألـــى بيـــوتهم. ومـــن الملاحـــظ أن يســـى وشـــاكر قـــد حـــدد كـــل واحـــد منهمـــا هدفـــه إلا ناشـــد الـــذى اســـتمر يجـــاريهم فـــى التزويـــغ مـــن المدرســـة دون تفكيرفـــى المســـتقبل حتـــى تكشـــف الأمـــر لأبيـــه فأخرجـــه مـــن المدرســـة وأخـــذه معـــه لكـــى يســـاعده ووكـــل إليـــه العمـــل فى تشغيل متجره المفتوح فى المدينة وإدارته.

صـــار عليـــه أن يســـتيقظ مبكـــرا فـــى كـــل يـــوم كمـــا كـــان يفعـــل فـــى الســـابق وبـــدلا مـــن الـــذهاب إلـــى المدرســـة أصـــبح يـــذهب الـــى محـــل عملـــه بالمدينـــة، والتـــى تقـــع علـــى مســـافة ثلاثـــة كيلـــومترات مـــن القريـــة. لكنـــه لـــم يصـــبر ولـــم يحتمـــل طـــويلا فأخـــذ يشـــكو ويتململ ويتكاســـل عـــن الـــذهاب أيامـــا، يغلـــق فيهـــا الـــدكان ونتيجـــة لهـــذا انصـــرف عنـــه زبائنـــه وتضـــاءلت أرباحـــه وانتهـــى الأمـــر إلـــى إغـــلاق هذا المحل نهائيا.

تواكـــب هـــذا كلـــه مـــع تـــدهور صـــحة أبيـــه وعجـــزه عـــن الإشـــراف الكامـــل علـــى أعمالـــه فـــى القريـــة والمدينـــة، لكـــن ذلـــك كلـــه كـــان يمكـــن علاجـــه والتغلـــب عليـــه لـــولا كارثـــة القطـــن التـــى هبطـــت عليـــه فـــى يـــوم وليلـــة بصـــورة لـــم تخطرعلـــى بـــال أحـــدإذ ذزل ســـعره الـــى النصـــف مـــرة واحـــدة. وهكـــذا وجهـــت الأقـــدار ضـــربتها القاصـــمة إلـــى هـــذا الرجـــل الطيـــب الـــذى لـــم يتحســـب لكثيـــر مـــن الأمـــور، وكـــان يتحـــرك فـــى كـــل اتجـــاه متـــوكلا علـــى الله واثقـــا ثقـــة عميـــاء فـــى الـــزمن، وفـــى كثيـــر مـــن المتعـــاونين والمتعـــاملين معـــه. وكانـــت هـــذه نقطـــة الضـــعف الخطيـــرة التـــى قـــادت الـــى خســـارته الكبيرة.

ربمـــا كانـــت غلطتـــه أنـــه لـــم يحصـــرعمله فـــى التجـــارة فقـــط، وتوســـع فـــى اسئجارالأراضـــى والقيـــام بزراعتهـــا لحســـابه، لكـــن أبـــو بـــالين كـــداب. لقـــد كـــان الأمرمشـــجعا فـــى البدايـــة وكانـــت ثمـــاره جميلـــة لكـــن الانســـان لـــه طاقـــة محـــدودة وعمـــر محـــدود، وانفـــراط العقـــد يـــؤدى الـــى ضـــياع كـــل شـــىء.

وهذا ما حدث لرجلنا الهمام. فقد فشل فى تربية ابنه الأكبر وتعليمه واعداده للوقوف بجانبه، وتوسع بطريقة تجهد قدراته وتشتت انتباهه. ولم يكن لديه ادراك بأساليب الادارة الناجحة. ويبدو ان نجاحه الكبير فى البداية كان ضربة حظ أو نتيجة للتواكل والمغامرة، لكنه استطاع أن يكسبت ثقة كبار التجار بصدقه فى التعامل معهم. لكنه لم يحطاط بدرجة كافية لذبائنه الصغار الذين يأخذون بضاعته بالأجل دون أوراق تثبت حقوقه لديهم.

الكارثة الكبرى هى الكساد الاقتصاى الذى أصاب العالم فى الثلاثينات، وتسبب فى خراب كبير وشامل ولم يترك عائلة إلا وتأثرت به. لكن ضربة الخواجة مجلى كانت قاصمة لأنه كان يتاجر فى محصول القطن وكان يتوسع فى شرائه عاما بعد عام ويجنى أرباحا طائلة. لم يتعرض أبدا للخسارة. لكن هذه هى الطامة الكبرى التى سحقت الاف التجاروالمزارعين فى ربوع العالم والتى أصابته بالشلل الذى اقعده عن الحركة بضع سنين احتاج فيها لعلاج طويل لم يجده شيئا وانتهى بوفاته عام 1937. ترك أربع أولاد وأربع بنات كان أكبرهم ناشد وكان فى العشرين من عمره ولم يؤهل لحمل أى مسئولية فما بالك بمسئولية هذه الأسرة الكبيرة. وخطأه أنه لم ينتظم فى سلك التعليم ولم يستفد بتجربة أبيه فى التجارة، ونتيجة لهذا لم يتمكن من معالجة المشكلات التى ترتبت على وفاة أبيه.

كانت التبعة ثقيلة جدا تثقل كاهل أى رجل. كان مرض أبيه محنة شديدة لكل أفراد العائلة، للأم والأولاد جميعا. بددت معظم الثروة. لقد تغير الحال وضاقت أبواب الرزق وانقلبت حياتهم من اليسر إلى العسر.

كان أبوه يرقد عاجزا يتلقى العلاج وينتظر الموت بين يوم وأخر، وأصبح هو وأخوه الأصغر منه مسئولين عن ادارة المحل حتى يستمر ومتابعة الأرض وزراعتها لكن الملاحظ أن أخاه كان خاضعا تماما لإرادته ولأنه جاهل لم يحصل على أى قدر من التعليم فلم يحسن التفكير ولم يساهم بأى فكرة أو نصيحة لمساعدة أخيه على حل المشاكل التى كانت تواجهم،

كان يمكن تدبير الأمر والخروج من هذه الضائقة. كانت هناك ديون مطلوب سدادها وحقوق مستحقة لدى الزبائن يجب تحصيلها. كانت مشكلة الأخ الأكبر أنه لايقبل أى نصيحة من أحد سواء من أمه أو عمه أو أعيان البلد المخلصين. كان يتسم بالعناد وبرود المشاعرفى التفاهم مع الناس مما أغضب الكثيرين واستفز الكثيرين فراح يطالب الذبائن بسداد ماعليهم من ديون بطريقة جافة وصادمة لم يعتادوا عليها. لم يفهم أن هذه الديون غير مثبوتة بإيصالات أو

كمبيالات ويمكن التملص منها، وكان يمكنه أن يجمع الكثير من هذه الأموال لو تفهم أوضاع هؤلاء الناس وتروى فى التعامل معهم. إلا أنه اندفع يطالب الناس ويلح عليهم بشدة وهم جميعا معذورون فقد كسدت محاصيلهم وتدهورت أعمالهم ولم يعد فى امكانهم سداد كل ماعليهم دفعة واحدة. لم يفهم ناشد أن الأزمة قد طالتهم أيضا ولم يحس بمشاكلهم أو مشاعرهم فتعامل بجفوة شديدة بدلا من التفاهم على تحصيل ما يمكنهم دفعه أى تقسيط المديونية على فترات إلا أنه لم يفعل ذلك واشتط فى الطلب كما أحرج الكثيرين منهم بدرجة أثارت غضبهم وهيأت نفوسهم للرفض وانكار الديون.

كانت غلطته الكبرى أنه لم يراع هيبة الكبار فى القرية وخصوصا عمدة القرية وشيخ البلد، كان الشيخ كامل صموئيل هوشيخ الناحية، وكان صديق العمدة ونديمه. كانا كلاهما من زبائن الخواجة مجلى وكانت عليهما ديون مقيدة فى دفتر اليومية بالدكان. كان أبوه لين الجانب لا يشتد مع أحد وكان يتودد لهؤلاء ويستجيب لطلباتهم. وفى وقت الحصاد يقوم كل واحد منهما بسداد المبلغ الذى يمكنه توفيره، سواء كان كافيا لسداد ماعليه من دين أولسداد جزء منه. وكان أبوه يرضى بما يقدم له عن طيب خاطر خصوصا من هذبن الرجلين. بل كان يرخى الحبل للجميع.

كان يتصرف عن سعة لكن أبنه لم يتشرب هذه الحكمة فلجأ الى القضاء. وبدأ يرفع القضايا ضد هذا أو ذاك ولم يستثن العمدة او الشيخ. وكان استدعاء العمدة للمحكمة أمرا شائنا ومعيبا أغضب غالبية أهل الفرية. فقد أحسوا جميعا بالإهانة. فهذا هو كبيرهم وعنوان بلدتهم فكيف يسكتون عن تعرضه لهذه الإهانة الكبيرة؟ انصب غضبهم على ناشد، هذا الشاب الطائش الذى لايعرف حدوده ولا يعرف كيف يحترم كرامة الكباروهيبتهم.

فقد كان العمدة فى ذلك الوقت هو الحاكم الوحيد للقرية الذى يدير امورها ويسهر على أمنها وسلامتها. وكلن يعاونه فى هذه المهمة الصراف والمشايخ والخفراء. بالإضافة إلى أن هذا العمدة ينتمى إلى عائلة من أكبرالعائلات وأغناها فى القرية كلها بل وفى محيط المركز كله. فكيف يقبل الناس من ناشد أن يطلب منه حلف اليمين أمام القضاء؟

فى المحكمة وجد العمدة نفسه فى وضع محرج فأنكر هذه الديون المستحقة عليه، فلما طلب ناشد منه أن يحلف اليمين استنكر

القاضى هذا وقال: " يا ناشد عيب عليك، لاتنسى أن عبد الله أفندى من عائلة كبيرة فأخوه لطفى بك مدير أمن الجيزة مسابقا، وهو أيضا اخو صادق بك العوايسى المحامى الكبير المعروف ولايمكن أن يكذب، فكان رد ناشد قاسيا وجارحا،
"إن أصابعك ليست واحدة ياسيادة القاضى"

وهكذا اضطر العمدة لأن يحلف اليمين ويخرج من المحكمة وهو يتصبب عرقا وحوله من يطالبونه بالانتقام من هذا الانسان السافل. حفظ له العمدة هذا الموقف وانتظر حتى تأتى الفرصة ويحين الوقت لتأديبه.
وكانت هذه كارثة أخرى من نوع مختلف. فقد فتح ذلك بابا واسعا لضياع كل شىء، بابا يدخل منه كل من يريد أن يتملص مما عليه من ديون. فأهلا بالذهاب الى المحكمة وانكار الديون وحلف اليمين. قام العمدة والشيخ بدور مشهود فى دفع الناس البسطاء إلى التملص من الديون وعدم الدفع لهذا الشاب المغرور. وهكذا ضاعت معظم الديون المستحقة لنا عند الزباين. وبقى علينا أن نقوم بسداد الديون المستحقة على أبينا باعتبارنا الورثة.

وهكذا تعقد الموقف وبدأت النزاعات تمتد وتتسع وهو يحاول ان يستخلص حقوقه من الناس فيواجه بالتنكر والمماطلة مما يثير غضبه ويدفعه أحيانا ألى محاولة الانتقام من الجميع بشتى الطرق. وقد أدى ذلك إلى تفاقم المشاكل مع الناس وحتى مع أعمامه وأقاربه بل وحتى أخوته الصغار الذين كانوا يحاولون الحد من اندفاعه فى الخصومة مع الآخرين، ويطالبونه بالتحلى بالهدوء والتسامح. لكنه، لم يتوقف ولم يتراجع وصار ينتقل من قضية خاسرةألى أخرى مما زاد إحساسه بالمرارة وزاد حياتهم العائلية صعوبة وقسوة. إذ تدهور مستوى معيشتهم وصارت إمكانياتهم تعجز عن متطلبات المعيشة، فما باللك بالأمراض التى تهاجم البعض منهم بين وقت وآخروتتطلب الذهاب الى الأطباء وشراء الأدوية.

ومما زاد الأمورسوءا وفاة مرقس أفندى. فقد كان صمام أمان بالنسبة للجميع وكان يحنو على ناشد وأخوته إلأ أن ناشد لايطيق نصيحة من أحد حتى عمه باخوم شقيق أبيه والذى أصبح كبيرا للعائلة.

لقد أفلت زمامه ولم يعد يثق فى أحد أو يرتاح ألى أحد وأخذ يبحث له عن أصدقاء بين الغاضبين والكارهين لأهلهم مثله، وقادته الصدفة أن يلتقى فى المحكمة بخلف محمد عبد الصمد الذى يخاصم أخاه الأكبر ألحاج عبد الصمد بحجة أنه طمع فى أرض والده وأخذ

نصف الأرض لنفسه وقسم النصف الباقى بينه وبين أخيه محمد. وقد رضى هذا الأخير بنصيبه أما خلف فلم يقنع بالفدادين السبعة التى أخذها وانطلق يشكو أخاه ويقاضيه فى المحكمة مطالبا بحقه الشرعى، بل وبدأ يهاجم أخاه ويشوه سمعته بين الناس. وقد أوقعه ذلك فى نزاع مع بعض أفراد عائلته نفسها لأنهم كانوا يحرصون على سمعة الأخ الأكبر كبير العائلة وشيخ البلد صاحب الهيبة والنفوذ الذى يعمل الجميع له ألف حساب.

ولم يكن خلف هو الوحيد المتمرد على الأوضاع فى القرية. فهناك أخرون من الخبثاء الذين أخذوا يشجعون ناشدعلى الصدام مع العمدة والمشايخ كما كانوا يطلبون منه أن يكتب لهم الشكاوى ضدهم بدافع إساءة سمعة العمدة والمشايخ وبعض أغنياء القرية.

مرت شهور طويلة على وفاة مرقس أفندى الصراف، وبعدها ذهب الرسول يذكر ناشد بقطعة الأرض المرهونة للمرحوم مرقس، ورد ملشد فى عنف وغرور " قل لنعيمة وأمها. لو شفتى النجوم فى عز الضهر مش هاتشوفى شبر واحد من الأرض "

واضح أن ناشد كان موتورا من نعيمة ويريد الإنتقام منها لأنها رفضته وفضلت عليه رمسيس أفندى إبن عمها الموظف بالبنك وتزوجته.

لم يكد الرسول يرجع بجواب ناشد حتى تكهرب الجو عند خصومه. وكان أول من تلقى الجواب المستفز هو شخلول أفندى شقيق مرقس أفندى الذى أصبح وصيا على الأولاد بعد وفاة أخيه. وكان شخلول عائدا لتوه من السودان حيث كان يعمل مع الأدارة الإنجليزية هناك، ويبدو أنه قد تشرب برود الانجليز وجمود عواطفهم، بعكس أخيه الراحل مرقس الذى كان يتمتع بروح المودة وسعة الصدر وكان يحنو على ناشد وأخوته وفاء للصداقة والمحبة التى جمعت بينه وبين أبيهم الراحل على مدى سنين طويلة.

وهذه خصال نسيها شخلول بسبب تغربه عن القرية وعن أهله مايقرب من عشرين عاما. لذلك استفزه جواب ناشد واستغرب أن يكون هذا هو الرد الصحيح،
وبصفته الوصى، فكر فى الطريقة التى يمكن ان يستخلص بها حق أبناء أخيه الراحل.
وحين أبلغ السيدة أم خميس زوجة أخيه بأن ناشد رفض عزل قطعة الأرض وتسليمها

لهم، غضبت وقالت إنها لايمكن أن تفرط فى حقوق اليتامى وتركت الأمر لشخلول أفندى لكى يتخذ الإجراء الذى يراه.

لم يهدأ لشخلول بال وظل جالسا على الكنبة أمام بيته فى مدخل " درب النصارى "الذى يمتد من غرب القرية إلى شرقها، وكما يحدث فى كل مساء، جاء بعض الأقارب والأصدقاء الذين اعتادوا أن يتسامروا معه، فأخذ يسألهم عن ناشد وكيف يتصرف معه؟ قال له بعض العقلاء أن ظروف ناشد وأخوته صعبة، وقد تدهورت أحوالهم الاقتصادية بعد وفاة أبيهم ومن الأفضل الصبر عليهم والتفاهم معهم. ورد آخر:
" إذا كانت حالتهم صعبة كما تقول، ولا يستطيعون رد مبلغ الرهنية فعليهم أن يسلموا قطعة الأرض "
واقترح ثالث أن ينقل هذا الاقتراح الى عمه باخوم ليجلس معه ومع أخوته ويتفاهم معهم. وقام من تطوع بعرض الأمرعلى المعلم باخوم عم ناشد، وامهلهم باخوم وقتا حتى يتفاهم مع ناشد وأخوته، واستدعى الشيخ محمد أبو طالب، أحد أعيان البلدة ليفصل معه فى هذا الأمر. وكانت حصيلة النقاش أن الأرض تسنحق ثمنا أكبر من الدين المدفوع لأبيه، واوتوصلوا لاقتراح بأن يدفع ورثة مرقس أفندى مبلغ عشرة جنيهات إضافية، وبالمقابل يقوم ناشد بتسليمهم قطعة الأرض، وكلفوا حكيم أخوه بتبليغ هذا الاقتراح لعمه شخلول. وذهب حكيم وقال له:
عمى باخوم والشيخ محمد أبو طالب توسطوا لحل المشكلة وحكموا بأن تدفعوا لناعشرة جنيهات استكمالا لثمن قطعة الأرض ونحن نسلمها لكم.

دخل حكيم على عمه شخلول فوجده يتناول إفطاره الذى يتكون من فول مدمس وبدنجان وبصل مخلل، ودعاه لياكل معه، فشكره ووقف صامتا انتظارا حتى يفرغ شخول من تناول طعامه، لكن شخلول استغرق وقتا طويلا فى الأكل والتعبير عن استمتاعه به. فكان يقضم البصلة ويصيح " ألله حلو البصل ده ".
أحس حكيم بالغيظ وتصور أن الرجل يفعل هذا كنوع من الشعوربالانتصارعليهم. وتأكد لديه هذا الإحساس حين سمع الرد. قال شخلول أفندى، مين اللى حكم بالحكم ده؟ أ جاب حكيم الشيخ محمد أبو طالب . رد شخلول،
روحوا لمحمد أبو طالب عشان يعطيكم العشرة جنيهات. وكان هذا الجواب أشد استقزازا مما قاله ناشد عند رفضه تسليم الأرض.
واضح أن شخلول لم يعد يقيم حسابا لعلاقات المودة بين الأهل والأقارب. وعلى فرض أن العشرة جنيهات كانت شيئا كبيرا بحساب ذلك الزمان، لكنها لم تكن شيئا بالنسبة لثروة أبناء أخيه وميراثهم من المال والأراضى والبيوت. لكنه بحكم عمله عشرين عاما مع الانجليز فى السودان حيث كانوا يعاملون المصريين من أمثاله بقسوة وغطرسة عاد الى قريته ليمارس نفس الأسلوب، بدرجة جعلته لا يعمل حسابا للشيخ محمد ابو طالب وهو شقيق العمدة السابق ومن عائلة كبيرة قوية النفوذ فى القرية، وهى المنافس لعائلة العمدة الجديد بكثرة أفرادها وقوة سطوتها على الناس نتيجة ارتباطهم الشديد بعامة الناس فى القرية.

رجع حكيم بخفى حنين لكن أعماقه كانت تغلى بغضب مكتوم يريد أن يصبه نارا تحرق شخلول وكل من يسانده وحين حكى ماجرى لأمه وأخوته استشاطوا غضبا لأنهم كانوا يتمنون أن يضعوا نهاية لهذه المشكلة،
قال ناشد، معلهش ما تشغلوش بالكم. أنا عارف إزاى ألاعبهم. لن يأخذوا أرضا ولا مالا والأيام بيننا.

جاء العمدةعبدالله ومعه الشيخ كامل صموئيل شيخ االأقباط بالقرية لزيارة شخلول وجلسوا حيث اعتادوا على الكنبة المفروشة أمام المنزل والتى يمر من أما مها كل عابر فى درب النصارى سواء كان داخلا أو خارجا منه. وكان هذا الموقع محرجا لكثير من الناس وخصوصا السيدات إلا أن العمدة وشيخ البلد الذى يرافقه فى أغلب الأحيان كانا يتلذذان برؤية النساء العابرات رغم أنهن كن يخفين وجوههن ويتحاشين النظر إلى هؤلاء الرجال. أكثر من هذا أن هذا الموقع يتيح لهما النظر إلى الخياطة سنيورة وهى جالسة خارج باب بيتها تعمل فى النور حيث يمكنها ان تلضم الإبرة وتخيط الملابس، وهى سيدة حسنة الوجه بضة الجسم ناصعة البياض تسيل لعاب العمدة والشيخ الذين يحاولان التلطف معها ومغازلتها.
رحب شخلول بضيفيه وجلس بجانبهما على الكنبة ودارت فناجين القهوة بينهم وأخذ الحديث يتطرق من موضوع إلى موضوع حتى جاء ذكر ناشد ورفضه تسليم الأرض إلا إذا دفع له مبلغ الجنيهات العشرة. وهنا تكلم العمدة بحدة، هذا ولد فلفوس عايز يخرب البلد فلا تدفع له مليما واحدا. وانبرى الشيخ كامل يعزز كلام العمدة ويقول، هذا شخص مشاغب وسوف نجبره أنا وجناب العمدة على تسليم قطعة الأرض رغما عن أنفه.
تكررت المراسيل من جانبهم لإقناع ناشد بالتخلى عن عناده. ولكنه رفض وإمعانا فى إغاظتهم سافرألى حيث توجد الأرض فى منطقة بعيدة الى الغرب من مدينة سمالوط وبحث عن خفير فى العزبة مشهور بأنه أحد الأشقياء وأجر له الأرض وطالبه بريها وزراعتها بالليل.

وفى اليوم التالى اتصل عمدتنا بزميله عمدة الغروب وأوصاه بأن يضع يده على قطعة الأرض ويزرعها تمكينا لورثة المرحوم مرقس منها. وحين أرسل عمدة الغروب رجاله أإلى الأرض وجد أن عنتر قد سبقهم وقام بريها ليلا ونثر فيها البذور وحذرهم من الاقتراب منها لأنه استأجرها بعقد رسمى من ناشد،
وهنا أسقط فى يد الجميع بما فيهم عمدة الناحية لأنه يعرف شراسة عنتر ويخشاه ولا يستطيع أن يدخل فى نزاع معه.
وهنا وجد الجميع أنه لاحل سوى الذهاب للمحكمة ورفع قضية لإثبات حقهم فى قطعة الأرض واستردادها بالقانون. وفوجىء الجميع فى المحكمة ان ناشد يملك عقد بيع من أبيه موثق من المحكمة حيث حصل على صحة توقيع بتاريخ سابق لوفاة أبيه. وهنا بدأت المراوغات القانونية بين الطرفين وكل واحد يحاول ان يثبت أنه المالك الحقيقى للآرض. لقد أدخلهم ناشد بمكره فى دوامة، ورغم أن قطقعة الأرض لاتزيد عن نصف

فدان ولم تكن تستحق بأسعار تلك الأيام أكثر من خمسين جنيها إلا أن هذا الموضوع قد فتح ثغرة يدخل منها كل من يريد أن يزيد النار اشتعالا، وهكذا بدأ النزاع يتسع حتى شمل الكثيرين من عائلات القرية.

ظلت القضية أمام القضاء اكثر من ثمانى سنوات. كانت العقدة الرئيسية هى توصيف وضع الخواجة مجلى، هل هو تاجر فقط؟ أم تاجرومزارع؟ اشكالية قانونية دار حولها سجال المحامين طويلا، وكل منهم يتبارى فى إثبات صحة موقفه. لقد ركز الخصوم على طلب نزع ملكية الأرض مقابل الدين، على أساس أن الخواجة مجلى كان تاجرا كبيرا ولديه سجل تجارى مؤكد، ومن الجائز قانونا نزع ملكيته لصالح ورثة مرقس أفندى. وكانت هذه عقدة أخرى فالإصرار على نزع الملكية ورفض استرداد مبلغ الرهنية قصد به إذلال ناشد وأخوته مما ضاعف من عنادهم والتمادى فى المواجهة. وكان هناك من المحامين العباقرة الذين يساندونهم ويدفعون بأن الخواجة مجلى كان تاجرا ومزارعا وبناء عليه لايجوز نزع ملكيته خصوصا وأن ورثته مستعدون لدفع قيمة الدين. وهذا ما حدث بعد هذه السنين الطوال.

سنوات الأحزان

فى غضون هذه السنين الصعبة مرت على الأسرة أحزان كثيرة. فقد مرضت أختنا الكبرى (حبيبة) مرضا شديدا وبعد شهور من المعاناة رحلت ألى العالم الآخر، وتركت خلفها ولدان وطفلة رضيعة إسمها (معزوزة) بقيت فى رعاية أمى ورعايتنا. كان موت أختنا الكبرى شيئا قاسيا على الأسرة ترك أحزانا عميقة نتيجة الشعور بالعجز وقلة الحيلة. فقد كلفتنا القضايا أموالا كثيرة أفقرت الأسرة وأعجزتها عن مواجهة مطالب الحياة الأساسية من مأكل ومشرب وعلاج. فالحسرة التى أعقبت الوفاة كانت نتيجة لإحساس بالتقصير فى علاج أختنا بصورة كافية. كما أن مرضها كان سببه صدام مع زوجها الذى فوجئت به يطالبها بأن تحصل على حقها فى ميراث أبيها المتوفى دون تقدير لظروف العائلة، فأحست بالغدر والجحود نتيجة لتنكره لكل أفضال أبيها الراحل عليه. ودفعها الغضب أن تترك له البيت وتأتى إلينا، ثم أصيبت بالمرض الذى لم يكن فى مقدورنا الانفاق على علاجه وأدى إلى وفاتها.

اشتدت الضغوط على العائلة وبدأ كل فرد فيها يحاول أن يعمل أى شىء يقدرعليه، فباستثناء ناشد الذى تفرغ للقضايا والمنازعات، اتجه حكيم وفوكيه لزراعة الأرض المملوكة لنا، وهى ثلاثة قطع صغيرة لاتزيد فى مجموعها عن فدانين ولاتكفى غلتها سوى استهلاك العائلة. تولت أختنا الصغيرة اعتدال هى وأخوها الأصغر توفيق رعاية البهائم وتغذيتها فى حقول البرسيم أو حقول الذرة حسب المواسم المختلفة. وفى احد الأيام أشعل الأولاد النار فى الحطب لشوى كيزان الذرة كما اعتادوا فى كل

يوم لكن يبدوأن شرارة اشتبكت بملابس الطفلة الجميلة ولم يستطع أحد من الأولاد والبنات المحيطين بها أن يطفىء النار التى علقت بثوبها وأحرقت جسدها وأودت بحياتها فى يوم وليلة. وانتصبت المآتم والأحزان مدة طويلة: لكن توابع الحريق خلقت شكوكا كثيرة فيمن كانوا معها واتجه الاتهام ألى ابن عمها ملاك وكان أكبرهم وقيل إنه هوالذى ألقى بالشرارة التى اشتبكت بملابسها لكن الأمر تم قبوله على انه قضاء وقدر ولم يأخذ طريقه الى القضاء.

لكن الأيام أثبتت أن ملاك كانت لديه ميول عدوانية وإجرامية، ظهرت واضحة فى سنوات الشباب وبعد أن بلغ الرشد، فقد دفعه الحقد على مليكة شحاته جارهم فى الحقل أن يتربص له ويفتعل معه معركة ويضربه بالشومة على رأسه، وكان يمكن أن تقتله لكنها أصابته إصابة شديدة خلفت له عاهة مستديمة. وحوكم ملاك عليها وقضى عامين فى السجن. كانت الغيرة هى السبب.

فقد كان مليكة شحاتة فلاحا مجدا وحكيما فى تصرفاته وفى تربية أولاده، واستطاع أن يتقدم فى حياته ويقتصد فى معيشته ويشترى بعض قطع الأراضى الزراعية، حتى أصبح يمتلك عدة فدادين يجتهد هو وأولاده فى زراعتها وتنميتها بدرجة اتاحت لهم أن ينعموا بوفرة من المال ظهرت فى أيدى أبنائه الشباب وهم يبارون أولاد القرية فى اللعب وبتظاهرون عليهم مما أوغر صدور البعض ومنهم ملاك الذى دفعته مشاعر الغيرة والحقد للتفكير فى االاعتداء على هذا الرجل الطيب المستقيم.

وقد أخذ ملاك جزاءه لكن السجن لم يغير طباعه أو يهذب ميله إلى العنف الذى ظهر بعد ذلك فى معاملته لزوجته وكانت سيدة بارة وبسيطة. لكنه دأب على إهانتها وضربها حتى بعد أن أنجب منها ثلاثة أولاد وبنت، اضطرت أن تحملهم وتذهب بهم إلى بيت أبيها حيث عاشت فى وسط رعاية أخوتها الذين احتضنوها بحب هى وأولادها ووقفوا إلى جانبهم حتى تخرجوا من الجامعة وحصل االأربعة على شهادات جامعية.

لكن جريمة حرق اعتماد أختى تم التسامح بشأنها مراعاة لعمى وعائلته وأعنبرت المسالة مجرد لعب عيال كما يقولون، وهزار برىء والأولاد الذين شهدوا هذه الحادثة كانوا فى سن الطفولة البريئة لم يزد أكبرهم عن أثنتى عشرة عاما وكانوامعتادين على أشعال النار وشوى كيزان الذرة كل يوم واللعب مع بعضهم ولم يكن أحد يظن أن تصل الأمور أبدا ألى هذا الحد خصوصا أن هؤلاء الأولاد كانوا أصدقاء محبين لبعضهم البعض. وكانت المأساة صدمة شديدة لهم ولكل فروع العائلة الكبيرة وعلى رأسهم العم الأكبر باخوم والد ملاك. كانت الفقيدة هى بنت اخيه الراحل وهى طفلة بريئة عزيزة عليه وكان هو كبير العائلة وكان يحاول أن يلم الشمل دائما إلا أن تصلب ناشد وعناده كان يحول دون ذلك وكان يترك للمنغصات أبوابا كثيرة.

كان هذا العم فلاحا بسيطا ومجتهدا فى عمله وفى تربية أولاده. وقد منحه الله موهبة فى تربية البهائم ومعرفة أمراضها بل وعلاجها وتوليد البقر والجاموس. كان بمثابة الطبيب البيطرى افى زمنه. فإذا عرفنا قيمة البقرة او الجاموسة عند الفلاح

وأولاده عرفنا أهمية هذا الرجل بالنسبة لأبناء القرية جميعا سواء الفقراء أو الأغنياء. كان معدودا من الأعيان وحكماء الراى بينهم، يحرص الكثيرون على توقيره واحترام كلمته.

كان رجلا ودودا هادىء الطبع يسعى إلى السلام بين الناس، وكان الناس يحبونه ويلجأون أليه فيما يحدث من خلافات بين بعضهم بعضا أوبين جار وجاره. وكانت كلمته مسموعة عند الجميع ولم يخرج على طاعته إلا ملاك ابنه وناشد ابن أخيه، وكان هذا بسبب غباء ناشد وعناده الذى تحدثنا عنه. وقد أوجد هذا الموقف جفوة لدى العم وأبنائه الكبار من أنداد ناشد فاصبحوايبتعدون عنه ويتبرأون من كل مشاكله مع الناس ومع العمدة والشيخ بصفة خاصة. لقد أوجد ناشد شرخا خطيرا فى جدارالعائلة الكبيرة وأساء إلى علاقات التحاب والمودة التى كانت سائدة قبل وفاة أبيه.

وقد انعكس ذلك بشدة على ناشد نفسه وضاعف من عزلته، فبعد أن رفضته نعيمة فكرفى الزواج من منيرة أبنة عمه باخوم وحاول ان يتقرب منهم إلا أنهم رفضوه باعتباره مشاغب وغلاط ولا يؤمن جانبه، وفضلوا عليه غالى عزيز لأنه شخص مسالم ولديه هو وأخوته الأربعة عشرة فدانين ارض ويمكنه أن يضمن لها حياة مريحة. وهكذا توالت الضربات على ناشد وكان ذلك كله من توابع تلك القضية اللعينة وجنوحه ضد التيار العام فى القرية.

شهدت هذه السنوات شدا وجذبا وتقلبا فى أحوال القرية وناسها. فالحياة لاتتوقف وعمليات الأخذ والعطاء فى الزراعة والتجارة لاتتوقف. انعكست هذه الأوضاع على حياة العائلة بقسوة شديد. فالقضية أجهدتهم ماديا ومعنويا، وأضاعت الكثير من الوقت الذى كان يمكن أن ينصرف فى عمل منتج. فقد تقرغ ناشد تقريبا للقضية وما يتبعها من منازعات فى محيط القرية. فكان يذهب مرات كثيرة إلى البندر، وكان الناس يرونه إما ذاهب للمحكمة أو للمحامى، وهنا أخذ البعض يستشيره فى بعض مشاكله وكانت مشورته تنتهى غالبا بدفعهم لرفع قضايا فى المحاكم، فيطلبون منه ترشيح المحامى المناسب لتولى هذه القضية أو فيأخذهم لواحد ممن يعرفه. بدأ ناشد يوثق علاقته ببعض المحامين واستهوته هذه الشغلة حتى أدمن الذهاب إلى المحكمة ومكاتب المحامين معظم أيام الأسبوع وكأنه موظف يواظب على عمله. وكان هذا يتم دون سبب او مبرر معقول.

من جانب آخر فإن منازعاته مع العمدة وشيخ البلد وتحديه لهم جعلت بعض البسطاء يرون فيه بطلا يمكن ان يتكلم بلسان الضعفاء ويعبر عن مطالبهم. فالتف حوله بعض المظلومين وكذلك بعض الموتورين والمغرضين وأخذوا يشجعونه على التمادى فى تحدى العمدة والشيخ والتحريض ضد بعض ملاك الأراضى بدعوى أنهم يستغلون الفلاحين ويسرقون ثمرة عرقهم.

كان موقف العمدة والمشايخ بالطبع فى صف ملاك الأراضي ومن ثم كان الصدام مع ناشد أمرا محتوما. أصبخ ناشد فى نظرهم، هو رأس الحربة فى هدم سلام هذه القرية الصغيرة. هكذا يقولون لأن هذه النزاعات التى يحركها أخذت تستدعى بعض الخصومات والحزازات القديمة وتفتح جروحا كانت قد اندملت منذ عشرات السنين.

ففى الماضى البعيد كانت عائلة أبو طالب هى التى تحكم القرية، وهى عائلة لها جذوورعميقة يقال إنها كانت من أول العائلات التى سكنت هذه الناحية، وأصبحت لها فروع كثيرة ممتدة فى نواحى القرية بحيث أصبحوا يشكلون أغلبية السكان، وكان من الطبيعى أن يكون حكم القرية حقا لهم يمارسونه جيلا بعد جيل عن طريق احتفاظ هذه العائلة بمنصب العمدة.

كانت لهذه العائلة مكانة فى نفوس الناس بحكم اعتبارات كثيرة تربطها بأهل القرية. أهمها أن معظم أفرادها كانوا من صغارالملاك فكانوا يتعاملون مع بقية المزارعين والفلاحين بروح آلتآخى والمودة وكأنهم أصدقاء للجميع لايتعالى أحد منهم على عامل أوفلاح، وكان هذا سرقبول الناس لهم لكن تزايد أفراد هذه العائلة بسبب كثرة الإنجاب كان له تأثير سلبى خطير، فقد أدى إلى تفتيت ملكياتهم الصغيرة وإضعاف قدراتهم المادية خصوصا وأن زيادة المواليد عندهم لم ترتبط بزيادة عدد المتعلمين بينهم وكان لهذا أثر سىء على مستقبل العائلة ونفوذها فى القرية.

لكن سنة الحياة هي التغيير والتبديل والتطور. وكان طبيعا أن يترك التعليم تأثيره على أحوال الناس. فكانت عائلة لطفى بك تكبر ويزداد وجودها قوة بحكم وصول بعض أفرادها إلى مناصب عليا ومراكز هامة فى الدولة. فقد وصل لطفى بك إلى منصب وكيل لمديرية أمن الجيزة، وأصبح أخوه صادق بك من أكبر المحامين فى مصر فضلا عن الأملاك الشاسعة التى اشتراها مما جعله الآن واحدا من الإقطاعيين الكبار. كذلك اتسع نفوذه السياسى بحكم انضمامه لحزب السعديين الأحرار. وكان معظم أفراد هذه العائلة موجودين فى القرية وكانوا جميعا يتمتعون بأخلاق طيبة وبروح التواضع الجم وكانوا يتقربون إلى أهل القرية يشتى الطرق. كانت الإمكانيات المادية المتوفرة لديهم تساعدهم فى تحقيق بعض الخدمات اللازمة للناس، وكذلك استضافة رجال الإدارة وكبار المسئولين عن الزراعة والرى والتعليم.

وهكذا ظهرت وجوه جديدة تساهم فى عملية التغييروالتطوير فى القرية. فأصبح كل من له حاجة يتجه أولا الى هذه العائلة ذات القدرة المادية الهائلة فى الوقت الذى بأتت فيه أحوال عائلة أبو طالب تتدهور مادية بدرجة تعجزهم عن المنافسة. وجاءت فرصة التغيير الحاسم بعد وفاة العمدة أمين رأس هذه العائلة الكبيرة. وكان رجلا محترما ومحبوبا من الجميع وكانت عائلة لطفى بك بكل أفرادها يحترمونه ويحملون له كل محبة وتوقير، وكانوا يعتبرون الخدمات التى يقدمونها لأهل القرية هى واجب عليهم تجاه الجميع وليس وراءها أغراض أو مصلحة شخصية.

هذه هى الروح التى سادت القرية منذ أجيال طويلة ومازالت تسودها حتى الآن باستثناء فترات قليلة وقصيرة كانت تنتفض فيها روح العصبية وتتسبب فى بعض الأحداث غير المحببة بين بعض الأفراد وبعض والتى كانت تؤدى إلى تعكير صفو الحياة قليلا فى هذه القرية الوادعة. لكن سرعان ما كان يتم تسويتها وتعود الأمور ألى طبيعتها.

بدات ازمة القرية هذه المرة نتيجة لسعى بعض الحاقدين والحاسدين لتحريك الأحقاد بين الناس. واستغلوا إعلان عبدالله أفندى أخو لطفى بك للترشيح لمنصب العمدة الخالى. وهنا أخذت بعض النفوس تسعى فى الظلام لإثارة الفتنة رغم أن الأمريبدو عاديا ولا يثير العداوة فمجال الخدمة مفتوح لكل من استطاع إليه سبيلا، ومنصب العمدة ليس استثناء. وعلى هذا كان يمكن أن يتم الاختيار بالتراضى بين الجميع إلا أن الخلافات اشتعلت وجرت البعض إلى الغضب والتحدى وكان من نتيجتها معركة بين بعض الأشخاص نتج عنها قتيل واحد من عامة الناس لاشأن له بهذا أوذاك. وكما يقول المثل (مالوش فى الطور ولا فى البقرة)، لأنه فلاح أجير أخذه الحماس للمشلركة فى فض خناقة مع آخرين من النالس الطيبين وكانت نتيجة الشجارهذه الثمرة المرة، تم توصيف الجريمة بأنها قتل عن طريق الخطأ، واستطاع عقلاء القرية تسوية المسألة والإتفاق على إجراء الانتخابات فى القرية ونجح فيها عبدالله أفندى أخو لطفى بك وبأتت القرية تلملم جراحها من جديد وتستعيد هدوءها الذى استمر سنوات حتى الآن.

ظلت القرية تنعم بالهدوء والسلام لايعكر صفوها شىء حتى اصبح الناس **يضربون بها المثل، وكان أبناؤها يتفاخرون بما تتمتع به قريتهم من هدوء وسلام بين الجميع مسلمين ومسيحيين بصورة يندر وجودها فى أى بلدة أخرى. تمت أثنادها بعض الإصلاحات الهامة. فقد تم توصيل المياه النقية إلى القرية ودخلت معظم البيوت وتم توصيل الكهرباء أيضا حتى أصبحت الطرق التى تربطها بالبندر تضاء طوال الليل ووصلت إلى مستوى القرى المتطورة خصوصا بعد أن فتحت بها مدرسة ووحدة صحية. وتم ذلك كله فى بداية الأربعينات.**

مضت سنوات عديدة ومازالت القضية منظورة امام المحاكم، وفى هذه الأثناء اتخذ ناشد خطوة جريئة فقام ببيع الأرض فقد كان فى موقف صعب وأوشك أن يفوته سن الزواج وهو لايملك مالا لتحقيق هذه الغاية. وقد ساعده هذا الحل على أن يتخذ خطوة إيجابية فى هذا الشأن، وسرعان ماوجد الخاطبة تعرض عليه عروسة جميلة بنت تاجر أقمشة فى البندر وتم كل شىء سريعا وتم الزواج وهو زواج موفق لأن هذه العروسة الجميلة كانت تتحلى بهدوء وبساطة لا تسأله ماذا يفعل ولا أين يذهب. وهكذا

سارت الحياة في يسر ورضاء جعلتها محبوبة ومقبولة من كل أفراد العائلة. وقد أتاح هذا لنادر فرصة كبيرة للسير فى طريقه المعتاد والجرى وراء القضايا التى تخصه والتى تخص الآخرين.

اكتشف الخصوم أن ناشد باع الأرض موضوع النزاع بحكم الحجة التى وقعها أبوه له قبل وفاته، وأصبح الموقف شديد التعقيد. أصبحت فكرة التمسك باستلام الأرض جريا وراء السراب. وكانت نصيحة بعض المحامين أن يتنازل ورثة مرقس أفندى عن مطلب تسليم الأرض ويعلنوا استعدادهم لقبول مبلغ الدين مقابل انتهاء الخصومة. ولم يكن هناك مفر من قبول هذا الحل إلا أن ناشد طلب من المحكمة أن توافق على تقسيط المبلغ على عدة دفعات فرفض خصومه وأصبح عليه أن يقوم بتدبير المبلغ كله فى غضون شهورقليلة. وهنا بدأ ناشد يقلب فى دفاتره القديمة والجديدة عمن يقبل أن يقرضه مبلغ خمسين جنيها وهذا مبلغ كبير بحساب تللك الأيام. وما هو الضمان الذى يمكن أن يقدمه للدائن. وفجأة قفز فى ذهنه أسم المقدس حنا أبو عيش، هذا الرجل يملك ثروة عريضة لكنه رجل شديد الحرص ولابد من خطة للآحتيال عليه.

كانت علاقة ناشد قد توثقت بهذا الرجل بعد لقاء تم صدفة فى المحكمة، إذ رآه مع اولاده الذين أقاموا دعوة ضده يطلبون فيها الحجر عليه باعتباره مختل العقل. كان ناشد يعرف أن هذا الشيخ الكبير هو شقيق جده جرجس يوسف فدعاه ليقضى ليلة عندنا يستريح فيها من عناء السفر، خصوصا وأن قرية العوايسة التى نعيش فيها تقع على مسافة ثلاث كيلومترات من المحكمة، وفعلا جاء معه إلى بيتنا حتى يتجنب مواجهة أولاده فى طريق العودة لأنه يشعر أنهم يتربصون به ويريدون التخلص منه. فجاء ليستريح قليلا ووجدها فرصة ليرى بنت أخيه التى لم يرها منذ سنوات طويلة لأن علاقته مع أبيها ليست على يرام. المهم أن أمنا رحبت به ـ وقامت على خدمته طوال الليل. وفى صباح اليوم التالى أخذ طريقه ألى البندر ومن هنالك ركب أوتوبيس إلى قريته (الطيبة) وهى تبعد حوالى خمسة وعشرين كيلومترا من البندر حيث توجد المحكمة.

أحس الرجل فى وجوده عندنا فرصة للراحة والتقاط الأنفاس، فاعتاد ان يأتى ليقضى الليلة معنا كلما دعى لحضور إحدى جلسات القضية بالمحكمة. وفى أحاديث السمر معه عرفنا أن أولاده وهم ستة رجال انقلب حالهم بعد وفاة والدتهم، واشتدت خلافاتهم معه بعد أن تزوج بسيدة أخرى تقوم على خدمته. فهم جميعا متزوجون ولهم أولاد وكان لابد له أن يتزوج بزوجة ترعاه وتسهر على خدمته فى هذه السن المتأخرة. لكن أولاده لم يعجبهم هذا الأمروأخذوا يتمردون عليه، حين رأوا أن هذه الزوجة فى متوسط العمر وتتمتع بصحة جيدة وقادرة على الإنجاب فأكلتهم الغيرة خوفا من أن تنجب طفلا أو طفلة تشاركهم الميراث. فبدأوا يسرقون المحاصيل من القطن والغلال ويتنافسون على من يحصل على النصيب الأكبر. فأراد أن ينتقم منهم

فكتب الأرض باسم الجنين الذى لم يولد بعد، فقاموا برفع دعوة فى المحكمة يطالبون بالحجرعليه باعتباره مختل العقل ولا يحسن التصرف في أمواله ولابد من رفع يده عن الأرض التى يملكها والتى تبلغ مساحتها خمسة وعشرين فدانا من أجود أنواع الأراضى فى زمام القرية.

ورأى الرجل أن يستعين بخبرة ناشد ليدله على محامى شاطر إلى جانب المحامى القائم على القضية الآن. فأخذه ألى محامية شابة تتميز بطلاقة اللسان والبراعة فى كتابة المذكرات اسمها، نعمت بدر. يقولون رغم حداثتها فانها لم تخسر قضية. لكن الرجل لم يفصح أبدا عن الأسباب الحقيقية التى دفعت أولاده لسلوك هذا الطريق، وكيف بدأت هذه المشاكل. .لكن مصاحبة ناشد له عند المحامين أثارت اهتمام أولاده فسعوا لمعرفة السر وجاءوا ألى بيتنا أيضا ورحبت بهم أمى فهم أولاد عمها. وكان لابد أن نسألهم عن سر ثروة عمها هذا، كيف أصبح يملك كل هذه الأراضى فى حين أن أباها مازال رجلا فقيرالحال لايملك إلا مايكفى قوته.

قالت أمى ما سمعته من أبيها، أن عمها هذا عثر على كنز كبير. حين كان يحفر هو وإبنه الأكبر سليمان فى كوم تراب خارج البلدة، تراب قديم مختلط بالرمل يقولون إنه من أيام الفراعنة ويسمونه الكفراوى. لكن الناس اعتادوا أن يأخذوا هذا التراب لتسميد الأرض قبل زراعتها وكان له تأثير كبير فى تخصيب التربة. وأثناء الحفر وجد سليمان مسخوطا كبيرا يظهر أمامه فجأة من بين التراب فظنه عفريتا فضربه بالجاروف الذى كان يغرف به التراب فتهشم التمثال، ووقع سليمان مغشيا عليه من هول الصدمة، وأصيب بمرض خطير توفى على أثره بعد شهور. لكن أبوه كان رجلا قويا متين الأعصا ب فتحقق من الأمرواكتشف انه تمثال من الذهب فجمع أجزاءه المهشمة فى جوال وغطاه وحمله مع أبنه على ظهر الحمار وذهب به سرا الى البيت فى جنح الظلام بعد حلول الليل حتى لايراه أحد من أهل القرية.

ولم يعرف أحد حتى الآن كيف تصرف فى هذا التمثال؟ هل باعه جملة أم قطعه قطعة. المهم أن الثروة فاضت معه ولانه رجل حريص وكتوم لم يعرف أحد سره إلا بعد انفجار الخصومة بينه وبين أولاده. كان يشترى الأرض قطعة قطعة حتى يبدوالأمر وكأنه نتيجة عملية اجتهاده هو واولاده فى فلاحة الأرض وتربية الماشية وبيعها بعد تسمينها. المهم لم تمر سنوات كثيرة حتى وصلت أملاكه ألى خمسة وعشرين فدانا من أجود أنواع الأرض. كان الأولاد يطيعونه ويفرحون بنمو الثروة وزيادة الأرض على أمل أن ذلك سوف يمكنهم من المعيشة المستريحة فى المستقبل.

وكانت أمهم سيدة قروية فاضلة تتفانى فى رعايتهم وتحكى لهم عن أخيهم الأكبر الذى دفع حياته ثمنا لهذه الثروة وتحضهم على طاعة والدهم والعمل معه باخلاص حتى يبارك الله لهم ويسعدهم هم وأولادهم. وتذكرهم بأن أخاهم الأكبر مات وهو يعمل مع أبيه وهوالذى وجد الكنز. وفى وجود هذه الأم الحنون كان الأولاد يعملون بجد ونشاط فى زراعة الأرض وتنميتها. وسارت الأمور سيرها الطبيعى وتزوج الأولاد

واحدا بعد الآخر، وبدأ كل منهم يستقل هو وزوجته فى جزء من البيت. وكان ذلك سببا فى ظهور بعض الخلافات بين الزوجات نتيجة الطمع وقلة القناعة، او قل بسبب التمييز بينهم فى بعض الأمور.

ظلت الخلافات فى حدود الاحتجاجات البسيطة ضد الأب وكانت الأم تقوم بدورالوسيط المحبوب والمطاع من أولادها. فالرجل يوزع عليهم جزءا من المحصول بالتساوى ليعيشوا منه ويحتفظ بالباقى ليستثمره، لكن كان بعضهم يتزمر بحجة أن الحصة التى أعطيت له لاتكفيه لأن عائلته كبيرة، ورغم هذا ظلت الأمورتحت السيطرة إلى أن ماتت الأم وبدأ العقد ينفرط والخلافات تشتد. عند ذلك أقدم أبوهم على الزواج بعد وفاة أمهم وكانت الزوجة الجديدة سيدة فى متوسط العمر لايزيد سنها عن حمسة وثلاثين عاما، يعنى سيدة قادرة على الإنجاب مرة ومرتين وستأتى لهم بشركاء جدد فى الميراث فأخذوا يوحد ون صفوفهم معا فى تحدى واضح لأبيهم ويطالبونه بتقسيم الأرض بينهم، مما أغضب الوالد ودفعه إلى تصرفات هوجاء فأخذ يضيق عليهم الخناق ويقتر عليهم بصورة شديدة جعلتهم يتفننون فى نهب الزرع وسرقة المحصول بشتى الطرق،

قيل إنه كان يخزن الغلال فى الأدوارالعليا بالمنزل ويغلق عليها الأبواب بالمفاتيح مما دفع أولاده لابتكار حيلة غريبة يحصلون بها على ما يريدون، فقاموا بعمل ثقوب واسعة فى السقف ومنها بدأت الحبوب تتدفق أليهم بكميات كبيرة واستمر الحال مدة طويلة حتى جاء الوقت الذى قرر فيه أن يفتح هذه المخازن وفوجىء بماحدث وأحس بصدمة أخرجته عن وعيه فقرر أن يحرم أولاده من كل ثروته. وكانت زوجته الثانية التى تزوجها بعد وفاة والدتهم حامل فى شهورها الأولى فذهب للمحامى وكتب الأرض كلها باسم الجنين وسماه نبيل، وخذله الحظ فجاء المولود أنثى سماها نبيلة. فقام اولاده برفع قضية يتهمونه فيها بالجنون ويطالبون بالحجر عليه.

هذا هو الرجل الذى قفز إسمه فجأة إلى ذهن ناشد وبدا يفكر فى طريقة للإحتيال عليه حتى يستدين منه المبلغ المطلوب. وتمهيدا للأمر نبه علينا إذا سؤلنا عن الجاموسة أو البقرة نقول إن الماشية حتى الحمار باسم والدتنا. وفعلا حاول الرجل بعد أن فاتحه ناشد فى أمر السلفة أو الدين أن يستقصى عن كل شىء نملكه وأخيرا وافق على أن يكتب له ناشد حجة رهنية بنصف فدان أرض. وبعدها بأيام ذهب ناشد إليه فى بلدته على أمل أن يتأكد من قبوله للعرض فأعطاه الرجل مهلة يومين لتدبيرالمبلغ. فذهب ناشد ليقض الليلة مع جدى جرجس فى بيته، وأثناء الحديث معه عرف جدى الهدف الذى يسعى أليه ناشد، فهز رأسه تهكما وراح يتغنى ببعض أبيات الشعر الشعبى ويغنيها بصوته قائلا:

جاء تمساح البحر الصغيريضحك على تمساح البحر الكبير، يروح فين تمساح البحر الصغير مع تمساح البحر الكبير.

كان جدى جرجس يعرف أخاه جيدا. فهو رجل ماكر وحريص أشد الحرص ولن يستطيع أحد خداعه، لكن ناشد خدعه فعلا وباع له الهواء فاخذ المبلغ منه وكتب له حجة بمساحة وهمية، نصف فدان بحدود تجعلها محصورة فى وسط الماء داخل ترعة الإبراهمية. وانطلت الحيلة على الرجل ودفع المبلغ وبهذا استطاع ناشد ان يدفع الدين ويضع نهاية لتلك القضية المشؤومة.

زواج وأفراح عائلية

هدأت الحياة قليلا بالنسبة لعائلتنا. وجاء عريس يخطب أختى فكتوريا وتم الزواج بعد وقت قصير، وانتقلت إلى بيت زوجها فى درب النصارى. كان زوجها يعمل جمالا وراعى غنم مثل ابيه واخوته، وكانت حالتهم المادية ميسورة. كان عياد زوجها شابا هادىء الطبع حسن الطلعة يواجه الحياة بابتسامة دائمة. عاش هو وزوجته وسط العائلة وقتا طويلا وبعد ذلك قسم الآب ثروته بين أولاده الثلاثة وانعزل كل واحد منهم فى بيت خاص به. واستقلت أختنا فى منزل قريب منا حيث أنجبت أولى بناتها طفلة جميلة سموها جمالات، ويعدها جاءت نظاكة ثم ناريمان وزوزوونعناعة وأخيرا أنجبت ولدين جمال وصفوت. ففى ظرف سنوات كونوا اسرة كبيرة من ولدين وخمسة بنات واستمرت الحياة فى طريقها المعتاد وتم زواج ابنتهما الكبرى واختها الثانية وأصيب االأب بفيروس (س) اللعين الذى دمر كبده وقضى عليه.

جاء الدورعلى معزوزة بنت أختى الكبرى حبيبة التى توفيت وتركتها رضيعة، فقد كبرت وأصبحت شابة وافرة الصحة والجمال، وجاء عمها زاخر يخطبها لأبنه الوحيد عدلى. وكان هذا الشاب مثالا للخيابة والتفاهة. كان شابا متلافا لايعرف للمسئولية حدودا. وكان الناس يتندرون عليه بأنه دلوعة أمه وأبيه لأنه ابنهما الوحيد، وكان والده رجلا هادىءالطبع فلاحا مجدا يهتم بأرضه وبماشيته ويعيش هو واسرته عيشة طيبة.

لم يذهب عدلى إلى المدرسة ولم يتعلم فأرسله أبوه ليتعلم صناعة الأحذية فى محل الخواجه مقبل زوج خالته، وصار أحد الصنايعية الذين يعملون وأصبح يتقاضى أجرا أسبوعيا، لكنه كان متلافا وكفه مخرومة فلم يكفه الأجروظل يحصل على مصروفه من أبيه،

وحين عرفت أمه أنه تعلم وأصبح يعمل ويتقاضى أجراً مثل زملائه نصحته بأن يعتمد على نفسه، فكف عن طلب المصروف من أبيه واتجه عقله إلى أن يقوم بعمل إضافى يحاول عن طريقه زيادة دخله، ففكرفى اكتساب زبائن من أبناء القرية عن طريق إغرائهم بنوعية الأحذية التى يصنعونها فى المحل وفى نفس الوقت يعرض عليهم استعداده أن يفصل لمن يريد حذاءا ممتازا وبتخفيض كبير فى الثمن. وأقبل عليه بعض الشبان فى البداية وفعلا صدق معهم فى وعوده، وجاءه زبائن أخرون، الواحد بعد الأخر يدفعون له مقدم الثمن أو العربون إلا أن وعوده فى تسليم البضاعة لهم بدأت تتخلف وتتأخر مددا طويلة وبعضهم فقد الأمل فى الحصول على حذائه وفى استرداد العربون الذى دفعه،

لكن عدلى عجز عن الوفاء تماما وأخذ يتهرب من مواجهة الناس لأنه كان ينفق ما ياخذه أولا بأول قبل أن يدفع ثمن الخامات الجلدية وغير الجلدية اللازمة لصنع الأحذية فوقع فى حيص بيص، ولم يعد قادرا على الوفاء بأى شىء. ظل يمهل زبائنه أسبوعا وراء أسبوع دون طائل ويتهرب من مقابلتهم فى بيته او فى الطريق فاخذوا يطاردونه من مكان إلى أخروهو يتهرب ويتخفى فى الذهاب والعودة.

كان الطريق المعتاد الذى يربط القرية بالبندرهو طريق ترعة الحلفاية وهو جسر ممهد لسيرالناس والسيارات وكذلك عربات النقل. والجميع يعتمدون عليه ويلتمسون فيه الأمان لأنه يضاء طول الليل ويعتبرونه الطريق الأمن لكل أبناء القرية.

ونتيجة لاختفاء عدلى وعجزالزبائن عن العثورعليه بالنهار فى وقت ذهابه للعمل. فكربعض الزبائن فى أن يتربصوا له بالليل فى هذا الطريق المضاء، لكنه كان يغافلهم ويأخذ طريق طرادى النيلالشرقى، وهوطريق بعيد عن نور الكهرباء. وهكذا يفلت كل ليلة من فخ المتربصين به كما لوكان يلبس طاقية الخفا، ويضطر الزبائن بعد ذلك للذهاب ألى أبيه يشكونه فيدفع لهم المبالغ الذى أخذها أبنه ويعتذر لهم عما حدث، وينتهى الأمر.

كنا نعرف كل هذه الأمورعنه، فرفضناه كلنا فى البداية. كيف نسلم هذه البنت اليتيمة لهذا الشاب المستهتر، هذه الطفلة نركتها أمها رضيعة فى حضن أمى وتربت بيننا حتى أصبحت ناضجة تتمتع بدرجة كبيرة من الجمال والنضارة. لجأ والد عدلى ووالدته إلى بعض الناس الطيبين من أهل القرية وطلبوا منهم أن يتوسطوا فى الأمر، وألح هؤلاء الوسطاء علينا وحجتهم أن عدلى هو ابن عم معزوزة وهذا يعطيه الحق شرعا فى التمسك بها،

كذلك فإن أباها، الذى لم تره طوال حياتها سوى مرة أو مرتين، قد جاء يذكى ابن أخيه ويدعونا للموافقة، وجاء معه ولداه الكبيران نعيم وموريس الذين يرجون منا أن نوافق على هذا الزواج وهم يتعهدون بالوقوف إلى جانب أختهم إذا حدث أى خلاف مع زوجها، ويطمنوننا بأن عدلى هو الأبن الوحيد لأبويه وسوف يضمون معزوزة فى أحضانهما كأنها ابنتهما أيضا. الكل يرى إن عدلى أبن عمها وهو أولى بابنة عمه من

الأخرين دون تفكير فى قدرة هذا الشخص على تحمل هذه المسئولية أو فى لياقته البدنية وصلاحيته للزواج بمثل هذه الشابة الفارعة. فقد كان قصير القامة نحيل الجسم باهت الوجه حتى تظنه مريضا.

كانت أمى تعارض بشدة وترفض وكنا جميعا معها، لكن الناس استطاعوا بعد وقت طويل من الأخذ والرد ان يقنعوا حكيم بالموافقة فرضخنا أخيرا. كان حكيم يحاول أن يخفف العبء عنا بأن نترك مسئوليتها لزوجها ولأبيه وأمه، خصوصا وأن عدلى ليس له أخوة وستكون معزوزة فى رعاية عمها وزوجته، وتم الزواج وعاشت فى وسطهم عدة سنوات فى هدوء واطمئنان أنجبت خلالها نادية أولا، وعيد بعد سنتين ثم اكتشفنا أنهما من المعوقين. فأجسامهما ضامرة لاتنمو بدرجة طبيعية وكذلك قدراتهما العقلية ضعيفة أيضا. كانت صدمة شديدة تحملتها المسكينة فى صير وأناة على مدى ربع قرن أويزيد، بعد ذلك رزقهما الله بطفلة جميلة وسليمة صحيا وعقليا سموها شوقية وهى التى تحملت مسئولية أخيها واختها بعد وفاة الأم. كانت تجربة مريرة جدا تحملت فيها المسكينة كثيرا من الألام والأحزان نتيجة لعجزهم عن مواجهة هذه الأمراض.

كانت المشكلة أن عدلى لم يعتد تحمل المسئولية، وربما كان هذا مقبولا فى السنوات الأولى على أساس ان مسئولية البيت كان يتحملها ابوه وأمه التى كانت تحب معزوزة واطفالها وكانت تساندها وتخفف عنها. لكن المأساة تفاقمت بعد وفاة الأب والأم. وعاد عدلى ليجد نفسه يتيما قليل الحيلة قليل الجهد فبدأت الخلافات تدب بينهما. وكانت مشكلة الطفلين العاجزين تحتاج ألى أب حساس ومسئول يبحث لهم عن علاج او تدريب يساعدهم على الحياة فى وسط الناس العاديين. لم يكن عدلى من هذا النوع من الرجال فضاقث به الحياة وسافر الى ليبيا ليبحث عن عمل يناسب قدراته لأنه لايقوى على شغل الغيط كفلاح أورعاية الماشية. وليته اهتم بزوجته وأولاده لكنه ذهب ونسى الجميع وبقيت معزوزة تناضل وحدها. إلى أن ماتت وغادرت الدنيا بعد معاناة شديدة مع المرض ومتاعب الحياة وتركت الولد وأخته المعوقين فى رعاية أختهما الصغرى وزوجها اللذين تحملا المسئولية بكل حب وإخلاص عدة سنوات حتى ماتت نادية وبعدها مات عيد.

وأنا مازلت أتألم كلما تذكرت مأساة العجز أمام هذه الأمراض الغريبة. والحكاية كلها سببها زواج الأقارب، بالإضافة لعدم اختيار الزوج المناسب. المهم أنه سافر ألى مدينة بنغازى وارسل خطابا أوخطابين من هناك ولم يرسل لأبنائه العجزة مالا أو ملابس كما يفعل الأباء عادة ولم يواصل ارسال الخطابات ليطمئن عليهم او يطمئنهم عنه واختفت أخباره سنوات طويلة، وظلت زوجته المسكينة تقوم بالعمل فى البيت وأحيانا فى الغيط من أجل رعاية أطفالها، حتى أنهكت صحتها وبدات تعانى من الضغط والسكر وألم العظام.

كان الأخ الثانى حكيم يتولى هووأخوه فوكيه تصريف أمور البيت والغيط فى غيبة الأخ الأكبرناشد الذى اعتاد الذهاب كل يوم تقريبا للبندر كما قلنا من قبل. وكانت أمى تساعد فى تدبير شئون البيت حيث تقوم بحلب الجاموسة وعمل الجبن والزبدة بالإضافة إلى تربية الطيور. كما تقوم هى وبناتها بتجهيز حبوب الذرة أو القمح للطحن فى ماكينة الطحين الموجودة خارج القرية، وهى مهمة كان يقوم بها حكيم وأخوه فوكيه معا. وفى البيت تتم عملية الخبيز فى الفرن البلدى داخل المنزل لانتاج الخبز، وبتوفيرالطعام من خبز ولبن وجبنة وبيض وفراخ كان يتحقق للأسرة نوعا من الأكتفاء الذاتى.

كانت أمى سيدة بسيطة لم تذهب إلى مدرسة ولم تكن تعرف القراءة والكتابة لكنها كانت تحفظ الصلاة الربانية " أبانا الذى فى السموات " وترددها فى الصباح وفى المساء عندما تذهب للنوم. كنت أنا أصغر أبنائها وأنام فى حضنها وأنا صغير فتقرأ فوق رأسى بعض الأيات وترسم علامة الصليب وتدعو االملائكة لحراستى، الملاك غبريال على الشمال والملاك ميخائيل على اليمين. وعندما كبرت وأخذ وعى يتفتح كنت أضحك معها وهى تردد هذه الدعوات وأقول لها، هم الملايكة دول ماعندهمش حد تانى غيرى فتضحك وتدعو لى ولجميع أخوتى وأخواتى أن يحفظنا الرب من كل سوء ويمنحنا الصحة والسعادة وطول العمر. وكان من أجمل الدعوات التى ترددها عند خروج أى واحد منا من البيت هى، "روح ربنا يجعل لك فى كل طريق رفيق وحبيب. وبالنسبة لى فإننى أشهد أن هذه الدعوات أستجيبت وتحقق منها الكثير لشخصى.

كانت أمى تكره الشر والعنف وتدعونا دائما لأن نحب بعضنا بعضا ونحب أخونا الكبير ونوقره ولانهينه، واستطاعت بهذا الأسلوب أن تبقى هذه الأسرة متماسكة سنوات طويلة متجاوزة العثرات والنكسات التى كانت تحدث لنا بسبب عناد ناشد، فتمتص غضبنا وتعيدنا إلى الهدوء كلما جد جديد. وكنا نستجيب لها فى أغلب الأحيان. كانت تركز دائما على روح المحبة واحترام الصغير للكبير. لكن الشىء المحزن أن ناشد كان ينحنى للعاصفة حتى تمر وبعدها يعود الى تصرفاته المعتادة دون أن يتعظ بما حدث ولم تزده الأيام شيئا غير الأنانية والقسوة واللامبالاة حتى بعد أن صار أبا لستة أولاد وتضاعفت أعباء الأسرة. كان يعيش بيننا فى البيت وكأنه يسكن فى فندق لايشغل باله بما نحتاج أو حتى بما يحتاجه أولاده أيضا. كان يترك الأمرعلينا وكنا نستغرب موقفه هذا، ولكنه لم يكن يهتم بغضبنا أوقرحنا وكان هذا يملأنا بالغيظ أحيانا،

لقد كبر حكيم فى السن وأوشك أن يفوته سن الزواج. وكان هو يحاول أن يدبر الأمور حتى يتمكن من تحقيق هذه الغاية وهذا مادفعه للموافقةالسريعة على زواج أخته فكتوريا وزواج معزوزة لشاب لايعرف المسئولية . كان يريد تخفيف الأ عباء على الأسرة حتى نتفرغ له. على أى أحال، فقد تحمل حكيم المسئولية حوالى عشرين سنة، مسئولية الأسرة كلها حتى رعاية أولاد ناشد الذين يعيشون معنا فى نفس البيت وكنا جميعا نحبهم ونرعاهم أما ناشد فكان يخرج من البيت لايعرف ماذا سيأكلون أو ماذا يفعلون. وكانت الأسرة تأخذ الأمر على انه مسألة مفروغ منها وتترك له كما

بقولون فاضية إلا أنه لم يكن يتركهم فى سلام بل يطب علينا من وقت لأخر ببعض التصرفات التى تهدم ما بنيناه وتعيدنا إلى الوراء. وكانت المشكلةالأساسية التى تمكنه من التسلط علينا هى خضوع حكيم له بدرجة أثرت على حياتنا كثيرا فلم نتنبه ألى خطورة سيرنا وراءه إلا بعد خراب مالطة، وهذا ما أدركناه بعد سنوات طويلة.

فى ذلك الوقت انتشر مرض غامض فى قريتنا وفى القرى المجاورة لم نكن نعرف له اسما فى البداية، وكان طبيب الصحة يزور القرية لمعالجة المصابين بالمرض وكنت أسير معه ألى بعض المرضى من أقاربنا. والحمدلله تم شفاء كل الحالات التى نعرفها تماما ولم تحدث أى وفيات. حينئذ بدأ الناس يتكلمون عن هذا المرض ويذكرون أن اسمه الكوليرا وأنه مرض خطير ينتقل عن طريق العدوى فحمدنا الله مرة ثانية أننا لم نأخذ هذه العدوى وأننى وغيرى كنا نزور الناس ونتصرف بتلقائية معهم ولوعرفنا هذه الخطورة فى البداية ربما كنا خفنا وأحجمنا عن تلك الزيارات. لكن هذه الحقيقة لحسن الحظ جاءت متأخرة وجعلتنا نسأل على بعض المرضى الذين تم لهم الشفاء لنطمئن على شفائهم النهائى، وكيف مضت الحياة بهم فوجدناهم على خير مايرام . كانت أحدى قريباتنا ممن مرت بهذه التجربة المرضية، وكان بيتنا بجوار بيتهم لا يفصلنا عنه سوى مدخل حارة صغير لايزيد عرضهاعن ثلاثة أمتار. وكان اهتمامنا بها شىء طبيعى بحكم الجيرة والقرابة وظهرت بعد هذه التجربة شابة جميلة وافرة الصحة والنضارة مما لفت نظر أخى حكيم إليها فأخذ يتودد أليها ويتكلم معها وهى ترحب باهتمامه بها ووصل الأمر إلى حد الأتفاق على الزواج.

وكنا نتابع هذا الأمر ببساطة ولانجد فيه شيئا من الغرابة حتى عرفت أمى بالأمر فانفجرت فى ثورة عارمة لم نعرف لها سببا. فوالد روحية ابن عمتنا وهو يعمل بناء يبنى البيوت ويساهم فى مجال العمران. مهنة شريفة وعظيمة توفر له ولأولاده حياة كريمة ولم يحدث بيننا وبينه شىء يعكر الصفو، وكثيرا ماكان يتعاطف معنا فى صراعنا مع الأخرين، كان له ثلاثة بنات جميلات وولد واحد أسمه وديع وهو اصغر الجميع سنا وقد أحسن تربية بناته على الاحتشام والأخلاق الفاضلة. تزوجت الكبرى من ابن عمها، ونضجت الثانية وأصبحت تلفت انظار الشباب وهى التى اختارها أخى وكان اختيارا موفقا حقا.

فهى تتميز بجمال وافر معتدلة القوام لايعيبها شىء ولم نعرف سر غضب أمنا على هذه الشابة ووجدناها ترفض بعنف وبإسلوب لم نألفه منها أبدا وكان الأمر محيرا وحين أفصحت أمى عن هذا السر بدا الأمر وكأنه نكتة سخيفة أضحكتنا وأحزنتنا فى نفس الوقت. فأمى تبغض أمها لانها مهملة فى ملابسها وشكلها يخلو من الجمال وان العائلة ليست فى مستوانا، ورغم تفاهة هذا السبب فلم نستطع أن نغيرموقفها فقد جعلت هذا الموضوع مسألة حياة او موت، وأخذت تهاجم أخى بصوت مرتفع حتى وصل الى الجيران والى روحية وأمها وأبيها فقرروا قطع هذاالعلاقة، وأعلن أبوها

رفضه لأخى حكيم وتزويج روحية لإبن عمها وهكذا أضاعت أمى فرصة حكيم فى زواج موفق.

مرت بعض الشهورحتى هدأت هذه الأزمة التى تسببت فيها أمى، وفجأة هبط علينا ناشد كالرخ بخبرجديد. لقد خطب مريم أخت زوجته لحكيم لقد جاءها أحد الرجال يخطبها وأحس أن والدها موافق على زواجها منه فتدخل وأوقف هذا الأتفاق وقال إن حكيم أولى بها من ذلك الرجل الغريب. لم يكن لدينا أي اعتراض بل كان الاعتراض الوحيد على المفاجأة. فلم يسبق لنا الحديث فى شأن هذه الزوجة. وأمى لم تكن مسرورة بهذا الأمر، وقالت، كفاية من الديست مغرفة. وهذا يعنى أنها لم تكن راضية تماما عن زوجة ناشد لأنها لاتعرف شيئا عن عملية خبز العيش أو عجن الدقيق ولا حلب البهائم. فقد نشأت هى وأخواتها فى المدينة فى جو رفاهية وحياة ناعمة فلا حاجة بهم للتفكير فى هم الخبيز أو العجين، وكل شىء كان يشترونه جاهزا ولا عمل لهن أكثر من اعداد الخضروات وطبخها مع اللحم او الفراخ.

والعروسة تتميز بأنها هادئة الطبع مثل أختها فلم نعترض وتم الزواج وجاءت العروسة لتعيش معنا ومع اختها الكبرى فى نفس المنزل، وبدأنا نحس بشىء من الراحة ونفكر فى مشاكلنا وأمورحياتنا.

شهوة الثراء السريع

لكن عدو الخير لايريد لنا الراحة فلم تمض ثمانى شهور على زواج أخى حكيم حتى فوجئنا ناشد قادم علينا مثل العاصفة ومعه عربة كارو وشخصين آخرين لانعرفهما ومعهما مجموعة من الجوالات الفارغة. وفتح لهم باب الدكان حيث كنا نخزن الغلال، وبدأوا فى تعبئة القمح فى هذه الجوالات. وفوجئنا بهذا كله دفعة واحدة. كيف يحدث هذا دون مشورتنا أوإخبارنا، لأن هذه الكمية من الحبوب هى خزين البيت اللازم لطعامنا طول العام. وليست للبيع. لقد كانت المفاجأة شديدة الوقع بدرجة أفقدت أخى حكيم أعصابه فأمسك بقطعة حديد وزنها خمسة ارطال وقذفها على رأس نادر ولحسن حظنا أن الضربة أخطأته ولولا عناية الله لقتلته وحدثت المأساة. وصرخت أمى صرخة قوية جمعت عددا كبيرا من الأهل والجيران الذين منعوا حكيم من الاشتباك مع أخيه.

توسط الناس لتهدئة الموقف وحاولوا أن يفهموا سرهذا التصرف المفاجىء من ناشد، فأخبرهم إنه استأجر دكانا فى مدينة المعصرة لتشغيله بقالة وخمور وهو يعرف أن هذا مشروع ناجح وسوف يربح كثيرا، ووجد أنه محتاج إلى المال لتأسيس المحل وتشغيله ولم يجد أمامه غير هذا الحل دون أن يفكر لحظة واحدة فى حاجة البيت لهذه الكمية من الحبوب، وكيف يمكن أن توفر الخبزالذى نحتاجه. وهكذا كان دائما يضعنا أمام الأمر الواقع ويوقفنا معه على حافة الهاوية. كانت هذه طريقته التى لم تتغير حتى آخر لحظة فى حياته. لا ينظر إلا تحت قدميه ولا يعمل حسابا لأحد. وكان هذا الأسلوب من أهم العوامل التى قضت على فرص نجاحه فى مشروعات كبيرة وعظيمة كان يمكن أن تجعل منه مليونيرا.

لقد باع القمح وقبض العربون ودفعه فى إيجار الدكان ولم يعد لديه فرصة للتراجع عن الصفقة. وهنا توسط الحضورلكى نسمح له بنصف الكمية ويترك النصف الأخر لحاجة الأ سرة علما بأنه هو وزوجته واولاده يعيشون معنا ويشاركوننا المشرب والمأكل لكنه لم يفكر فى ذلك لحظة واحدة وكأنه شاب طائش لايعرف المسئولية.

ورعم هذه التصرفات التى كانت تحرق أعصابنا إلا إننا كنا نتمسك بالأولاد وندللهم دون اعتبار لتصرفات أبيهم. ولم نفرط فيهم أبدا. وبعد عدة شهورجاء ناشد ليحمل زوجته واولاده فى تاكسى ويذهب بهم للسكن هناك فى المدينة ليعيشوا فى حجرة واحدة فى الدور الأرضى بجوار أحد العمال وزوجته ويستعملون دورة مياه مشتركة. وهو تصرف لايقبله عاقل يحرص على راحة أبنائه وحمايتهم. استغرب حماه وحماته هذا التصرف واحتاروا فى تفسيره. كيف يفعل هذا الأن؟ هل ضاق هو وزوجته بمن فى البيت. فزوجة أخيه هى أخت زوجته وتشاركها الاهتمام بالأولاد طول الوقت. لكن ناشد ركب رأسه، فالرجل يتطلع إلى الثراء ولا يريد أن يشاركه أحد. وهذه هى مشكلته. أنه غبى بصورة بشعة ضيق الأفق يتصرف بدافع اللحظة ولا يعطى اعتبارا للرأى الأخر ولا يسمع لأحد وهو يحس دائما بأنه مظلوم، وأننا ظلمناه. ففى رأيه أنه ربانا بعد موت أبينا وتعب من أجلنا. وكنا نطيعه ونصدقه فى البداية، ولم نتنبه لكل ماجلبه علينا من مشاكل إلا بعد سنوات وسنوات وبعد خراب مالطة.

كان مشروع افتتاح محل لبيع الخمور موضوعا مثيرا للتساؤل، كيف ينتقل هذا الانسان من تجارة البقالة التى اشتهر بها والده ونجح فيها ودمرها هو بتصرفاته الهوجاء. كيف ينتقل من حياته الريفية ألى حياة أبناء المدينة والاتجار فى الخمور؟ السبب أنه كان دائما يبحث عن النجاح السهل والربح السريع. وقد اشتدت فى نفسه الرغبة بعد أن خالط والد زوجته، تاجرالأقمشة وكان رجلا سكيرا. يغلق محله فى أخر النهار ويذهب ألى بيت أخته زوجة وكيل المحامى زكى الطحان. وكان زكى هذا رجلا زكيا وماكرا عرف كيف يستثمر مصاهرته للخواجة ملك القماش وساعدته زوجته على ذلك. فشجعت أخاها على الحضور للسهر معهم ودعوة أصحابه من التجارالأخرين لقضاء السهرة فى الشرب ولعب القمار.. وقد استمر هذا الحال سنوات طويلة.

راى ناشد هذا الجو ورآى كيف يلعب هؤلاء الناس بالفلوس وفكر أن يخوض التجربة معهم، فاقترح على حماه وكان ذلك في أيام العز، أن يشاركه فى أقامة محل لبيع الخمور بدير جبل الطير فى وقت إقامة مولد السيدة العذراء، وكان من عادة هذه الشلة أن تذهب فى كل عام الى المولد بدير جبل الطير لقضاء أسبوع كنوع من الفسحة والاستجمام أثناء الاحتفالات. عرض ناشد الفكرة على حماه فأعجبته ودعا بعض أصحابه للمشاركة فى تمويل هذا المشروع على أن يقوم ناشد بإدارة المحل مقابل أن يأخذ نصف الأرباح ويأخذون هم النصف الباقى نصيب رأس المال. وطلبوا منه أن يقوم بتوفير كل أنواع المشروبات التى اعتادوا عليها. وتوقعوا أن تغطى نسبة الأرباح

نفقاتهم أيضا وتكون النتيجة لعب وشرب. والواقع أن المشروع كان رابحا. والتجار الأحرون الذين يمارسون هذه التجارة من عشرات السنين يربحون الكثير ولايتخلفون عن المجىء أبدا. ولو كانت هذه التجارة خاسرة لأحجموا عن المجىء. هذا واقع معروف للجميع لأن مكاسسب الخمور لاتقل عن ثلاثين بالمائة، وهذا ما شجع حماه وأصحابه على مشاركة ناشد وتمويل المشروع.

وقد مضى ناشد فى تنفيذ الاستعدادات ونصب شادرا كبيرا وجهزه بالكراسى والتربيزات لزوم العمل وأحضر جمادانات الخمور وأصناف المزة التى يحبونها، وكان محله فى موقع متوسط من المولد، وأقبل عليه الزبائن بكثرة.,كنا نساعده أنا وأخى حكيم مع بعض العمال الأخرين.

مرت أيام المولد سريعة وكان الاقبال جيدا وباع معظم الكميات التى احضرها معه إلى الدير. وكان كل من يرى الرواج الظاهر يؤكد أن هناك ارباحا كبيرة قد تحققت إلا أن الحساب النهائى الذى قدمه ناشد يشير ألى أن النفقات والمصروفات أكلت القدر الأكبر من الأرباح ولم يكسب سوى القليل. وكان الأمر مذهلا لمن لايعرفون ناشد وأسلوبه فى الحياة. فقد كان يتحلى بعبقرية فى ترتيب الحسابات بحيث لايسمح لآى شريك أن يشاركه فى الربح أبدا فخرج الأخرون من المولد بلا حمص وحصد هو كل أرباح المشروع. وهو يبرر ذلك بأنهم شوية حرامية ويقول، دول ما بيتعبوش فى الفلوس ومافيش أحلى من سرقة السارق. هذه فلسفته فى الحياة تشربها من بعض الناس الذين كان يخالطهم، وكان لديه ميل غريزى لقبول هذه الفلسفة واتباع هذا الأسلوب. فقد كان أيام انشغاله بالقضايا يلتقى بأنواع غريبة من البشرويرتاح لصحبتهم. ومن هؤلاء الناس الذين أثروا فى تفكيره الحاج دكرورى.

كان هذا الرجل فارع الطول ممتلىء الجسم، وجهه أبيض مشوب بحمرة يكاد الدم أن يتفجر من خدوده، وكان عليه شنب يقف عليه الصقر كما يقولون. كانت هيئته تطفى عليه مهابة قوية فضلا عن انتمائه لعائلة كبيرة هى عائلة الحاج خالد العمدة الراحل. وكان الحاج دكرورى يعمل مقاولا للأ نفار، حيث يقوم بجمع الصبية من البنين والبنات للعمل فى محلج القطن بسمالوط بناء على أتفاق مسبق على الأجرالذى يدفع لكل عامل أو عاملة. وفى ختام كل عملية او مقاولة يتسلم هو من المحلج المبلغ كله ويقوم بدفع أجورالأولاد والبنات حسب اتفاقه مع كل واحد منهم. كان الحاج يكسب الكثير من هذا العمل. وقد مكنه ذلك من بناء بيت كبير وجميل وأسسه بأثاث فاخر.

ولم يكن لدى الحاج دكرورى أولاد أو بنات حتى ينشغل بمستقبلهم. وكان خالى البال من هذه الهموم. يعيش هو وزوجته فى هدوء وانسجام وينعمان برغد العيش. وبعد سنوات طويلة فى هذا العمل قرر الحاج دكرورى أن يتقاعد، وقد تعدى عمره الستين بقليل. وقبل أن ينهى عمله جمع الأولاد كالعادة وأخذهم للعمل بالمحلج كانت آخر وردية فى موسم القطن فقرر الحاج دكرورى أن يختم حياته بتصرف غريب جدا وهو أن يقبض المبلغ كما اعتاد، ويكتنزه لنفسه ويماطل فى دفع أجور هؤلاء الغلابة المحتاجين، ويصرفهم بالقول إن المحلج لم يصرف له هذه الأجور وظلوا يطالبونه مدة

طويلة حتى أصابهم اليأس وتركوا أمرهم لله. سأل ناشد الحاج دكرورى عن موقفه من الصبية الذين يصرخون طلبا لحقوقهم فأجابه فى هدوء وهو يضحك ويقول، يبقى يعوضوها السنة الجاية، والأيام ماخلصتش. يشتغلوا كم يوم زيادة و يقبضوا بدلهم. تصرف اجرامى وخسيس يدل دلالة قاطعةعلى انعدام الضميروالوازع الأخلاقى أو الدينى عند الحاج دكرورى.

والعجيب أن ناشد ارتاح لهذا المنطق البشع، وأظن أنه تشرب هذا الأسلوب وطبقه مع كل من عملوا عنده أوعملوا معه. فكان يماطل ويراوغ فى دفع أجوربعض العمال، وحين عرف العمال هذا عنه، أخذوا يتفننون فى خداعه واستغلاله بأن يتوقفوا عن العمل فجأة وفى منتصف الطريق ويضعونه أمام الأمر الواقع، إما أن يدفع أو يتركوا العمل ناقصا. أحيانا كان يرضخ وأحيانا كان يركبه العناد فلا يدفع فينصرفون عنه، ويتركونه حتى تركبه الحيرة فيأتى واحد منهم ويستدرجه بكلمات معسولة، بأنه سوف يتوسط لدى زملائه ويأتى بهم لإكمال العمل الذى تركوه. لكنه محتاج الى مبلغ يدفعه مقدما من أجل إقناعهم بجدية موقفه، فيعطيه ناشد المبلغ وبعدها يحتفى الرجل تماما عن الأنظار ويترك ناشد فى حيص بيص. وكان هذا مثار تندر جعل البعض يتهكمون عليه ويقولون، اللى يشتغل مع ناشد ما يقبضش، وإللى يقبض ما يشتغلش.

كان عند البدء فى أى مشروع، يأخذ فى التخطيط للطرق التى يمكن بها أن يحصل لنفسه على أكبر قدر من فوائده، دون الاهتمام بكيفية تنفيذ المشروع بمستوى مشرف، وتسليمه وفى موعده حسب العقود التى وقعها مع المسئولين عن المشروع. وكان إذا استعان بشريك أوأكثر، يصبح جل همه أن يستغل هذا الشريك حتى يتمكن من تنفيذ المرحلة الأحطرويتمكن من
السيطرة على المشروع ثم يبدأ فى التخطيط للطريقة التى تدفعه لترك المشروع والاكتفاء بأقل الخسائر.
وأنا شاهد عيان على ارتكابه هذه الجريمة مرات ومرات وعدم الحرص على الاحتفاظ بثقة الناس فيه، وهى ميول تخريبية يغذيها الطمع والجشع وضيق الأفق. وكان ينشغل بتحقيق هذه الغاية أكثر من الانشغال بنجاح المشروع وضمان استمراريته. وقد لاحظنا أنا وأخوتى أنه يحمل فى جيبه محفظتين، ويضع لكل مشروع حسابين، حساب حقيقى يثبت فيه المكاسب التى تحققت، وحساب أخر يبين فيه مقدار الخسارة التى يجب ان يتحملها الشركاء. وبعد أن أبلغ ناشد حماه وشركاه أن المصروفات أكلت الأرباح، أسرع كل واحد منهم إلى أخذ بقية حسابه وقرروا جميعا، عدم التعامل مع ناشد او الدخول معه فى أى تعاملات أخرى.

وهذا ماكان يسعى إليه، وهو يشعر الآن فى قرارة نفسه بالانتصار. لقد خدعهم واستغل أموالهم حتى يصل إلى هدفه. لم يعد يهتم بثقة هؤلاء الناس التى خسرها أوبصلة المصاهرة التى تربطه بحماه واقاربه. المهم عنده أنه خدعهم وخرج وحده بكل فوائد التجربة المالية والعملية حيث تعرف على أماكن استيراد الخمور فى القاهرة

وطرق البيع ونوعية الزبائن التى ترتاد الخمارات، فقرر ان يكرر التجربه ولحسابه الخاص. وهو واثق أن أخوته لن يتخلوا عن الوقوف ألى جانبه ومساعدته ودون انتظار لأجر أو مكافأة فالذى يهمهم هو أن ينجح ويربح من اجل أولاده. فحبهم للأ ولاد يدفعهم إلى نسيان جشعه وأنانيته وجحوده.

وبعد الذهاب إلى المولد مرة واثنين قرر ان يفتح محلا لبيع الخمور فى المدينة. فذهب الى القاهرة وأعلن ذلك لبعض أصحاب مصانع الخمور الكبار ووجد منهم ترحيبا باعتباره موزع جديد لهذه السلعة فقدموا له التسهيلات اللازمة وأعطوه بضائع بالأجل. وبدأت تجارته تروج وأرباحه تزداد. ولم تتغير معاملته لى أولأخوته. فهو يحتاج ألى من يقف معه ويساعده فى المحل، بل وكنا نحمل له الخبز والجبن والسمن وحتى الفراخ المذبوحة، كل ماتعده أمى نحمله له ولآولاده لنضمن توفير هذه الأطعمة لهم. لكنه كان مشغولا بنفسه لايشكر ولا يذكر ولا نعرف منه إن كان راضيا أم غاضبا؟ فوجهه الأسود دائم التكشير لا تنفرج أساريره إلا نادرا، ولا يفضفض معنا بأى كلام عن تجارته لكى نعرف إن كانت ناجحة أم لا. ولا يصرح بأى شىء يهمنا أو يسعدنا كما يفعل الأخوة دائما، بل يتكتم كل شىء وكأننا أعداء له. ولا يكشف لنا عن نجاحاته أبدا بل يشعرنا رغم مانراه من رواج وانتعاش أن العالم كله يحاربه.

كان أشبه بصندوق مغلق لايصارحنا بحقيقة وضعه ولاتعرف كيف نشاوره او تنصحه. كان شديد البخل يصعب عليه أن يكافىء انسانا أو يرد جميل انسان، وكان حين يضطر لدفع حق إنسان ما، يتململ وكأنه يقطع الفلوس من لحمه الحى، والمصيبة أنه كان يندد ببعض الناس الذين نعرفهم ويصفهم بالبخل لكن الذى ثبت لنا مع الأيام أن ناشد هو المثل الأعلى فى الشح والبخل. وقد ظهر هذا الأمر بوضوح شديد بعد أن خرج من البيت وأصبح يعيش فى بيت مستقل. وقد انعكس هذا الشح على تجارته وهبط به ألى الحضيض لأنه لايحسن تقدير الناس الذين يتعامل معهم وينظر للأمور نظرة انتهازية وقتية دون حساب للعواقب أوبمستقبل علاقاته مع الناس، فهو لايذكر ألا ماله أما حق الأخرين وما قدموه من معروف معه ينساه سريعا وكأن ذاكرته مخرومة.

ففى أحد المعامل الكبرى للخموربالقاهرة استقبله أحد كبار الموظفين ورحب به وقدم له التسهيلات التى لولاها ما كان يسنطيع أن يفعل شيئا. وكان من الطبيعى أن يراعى هذه الأمور ويجامله بما يعبرعن تقديره واهتمامه. ويتعامل معه بدرجة من الكرم والسخاء التى تشجعه على التواصل معه لكن داء ناشد كان يستعصى على العلاج. فهو لا يحب ان يعطى أبدا بل يحب أن يأخذ فقط. ففى إحدى زياراته لهذا المعمل طلب منه هذا الموظف مبلغا على سبيل السلفة فأخرج نادر المحفظة الفارغة وأخرج منها أربع جنيهات وقال إن هذا المبلغ هو كل ما معه، ومرت سنوات والأمور تسير سيرها المعتاد تأتيه البضاعة فى وقتها والكمبيلات يسددها على راحته، وفى يوم من الأيام ذهب الى القاهرة وزار المحلات التى يتعامل معها وغاظه ان رئيس الحسابات لم يرد له الأربع جنيهات. فذهب للخواجة مارماراس صاحب الشركة وشكا

له رئيس الحسابات وقال إنه مرتشى فقد أخذ منه مبلغا لم يرده. وضحك الخواجة ضحكة ساخرة وقال له نعم خبيبى، هذه موش رشوة. دى إكرامية أشان هو بيخدمك، إن ماخدش منك أمال ياخد من مين. كان الخواجة حكيما فى إجابته وأعطاه درسا عظيما لن يجد وقتا للإنتفاع به. لأن الخطا التراجيدى وقع فعلا ولا مفر من وقوع مأساة البطل.

عاد ناشد الى دكانه بعد أن ارتكب هذا الخطأ، وهو لايدرى رد فعل هذا الموظف الذى وشى به لصاحب العمل وأساء إلى سمعته، لقد قرر هذا الرجل أن ينتقم لنفسه من ناشد فلم يرسل البضاعة التى طلبها، بل أخذ يطارده لسداد الكمبيلات القديمة والمؤجلة وأحيانا الأنذارات التى تهدده بعمل بروتوستو، وتوقف ارسال البضاعة كلية من هذا المعمل وأخذت الأمور تنقلب رأسا على عقب حتى مع المعامل الأخرى وأدى ذلك كله إلى تدهور تجارته وانصراف الزبائن عنه. وعجز عن سداد ديونه حتى قام بعد الدائنين يتوقيع الحجز على المحل واضطررنا أنا وأخى لأن ننتشله من هذه الورطة ونعيد أولاده وزوجته إلى بيت العائلة ليعيشوا معنا بعيدا عن هذه المشاكل، وتركناه يكابر حتى إنصاع أخيرا وقرر أن يتنازل للمالك عن المحل ويسلم بجلده، رغم وجود بعض الديون التى ظلت تطارده على مدى سنوات طويلة.

أخى في منصب شيخ البلد

تصادف فى ذلك الوقت ان توفى الشيخ كامل صموئيل شيخ البلد فوجدناها فرصة ننتهزها لكى نحفظ ماء وجهه بعد هذا الفشل الذريع، فأعلنا أننا أقنعناه بالعودة لكى يتفرغ لخدمة القرية وبتولى منصب المشيخة الذى أصبح خاليا. والمعروف ان هذا

المنصب مخصص لشخص قبطى ليحل محل الشيخ الراحل. فالبلد يتولى أمرها العمدة ومعه أربعة مشايخ أحدهم مسيحى والثلاثة الأخرون مسلمون، يمثل كل منهم إحدى العائلات الكبيرة. وكما قلت سابقا كانت قريتنا رغم هذا التقسيم أو ربما بفضله من أكثر القرى أمنا وسلاما. وكانت من أكثرها تقدما وربما كانت من أوائل القرى التى دخلتها الكهرباء والمياه النقية. وكانت فترة الانتقال هذه تمثل مرحلة تنافس وقلق فى فحياة القرية. وكل تغيير فى مناصب الإدارة سواء كان يتعلق بمنصب العمدة أو المشايخ فى القرية كان يفتح الباب للتنافس بين العائلات وكانت العادة أن يتم حسم الأمربطريقة قانونية وسلمية عن طريق الانتخاب. لكن هذا لم يمنع قيام بعض الخصومات والحزازات بين هذا وذاك. كان المنافس الأخرعلى منصب المشيخة هو حبيب أفندى معوض، وكيل دائرة مراد بك الشريعى، وكان يتمتع بشخصية وقورة مهذبة على درجةعالية من الذكاء واللباقة. وكان هناك كثيرون يرون إنه أكثر صلاحية للمنصب من أخى ناشد.

لكن ظهورناشد واعلان رغبته للترشح وجد قبولا عند كثيرين ممن تحركهم العصبية العائلية او ممن يهتمون بالتوازنات فى إدارة شئون القرية. فعائلة حبيب معوض يقال أنها عائلة غريبة وطارئة على القرية وجاءت من (الشيخ فضل) عند اختيار مؤسسها صرافا للقرية منذ عشرات السنين. وبعد وفاة هذا الأب المؤسس، تولى هذا المنصب مرقس أفندى حنا وبعد وفاته تولاه ناشد أفندى معوض وأصبح هو صراف القرية وكبيرعائلة معوض وهكذا توطد نفوذهم فى القرية،

والجميع يعرف أن الصراف هو أقوى سند لعمدة القرية. وكانت هذه العائلة تنحازتقليديا لعائلة العمدةعبدالله. فإذا وصل حبيب معوض إلى منصب شيخ البلد عن المسيحيين فسوف يكون دعما مضافا للعمدة. وهذا لايرضى عائلة الشيخ خالد، عائلة العمدة الراخل. وهكذا انقسمت القرية ليس بين مسلمين ومسيحيين. ولكن بين شرقيين وغربيين. فعائلة حبيب معوض تسكن بجوار ديوان العمدة عبدالله فى غرب االبلد، وعائلة ناشد مجلى تسكن فى الجانب البحرى بين أغلبية الأقباظ وتنحاز الى عائلة الشيخ خالد التى تجاورهم من ناحية الشرق. وهناك بعض المسيحيين الذين يرفضون عائلة معوض لآسباب أخرى. فالمقدس غطاس سريان يرأس عائلة البراغثة التى منها الشيخ كامل صموئيل المتوفى، يرفض رفضا باتا أن يكون شيخ البلد من عائلة طارئة على البلد حتى ولوكان عمرها مائة عام فى القرية، وهكذا انحاز غطاس لاختيار ناشد لهذا المنصب وراح يدعو الجميع إلى انتخابه.

وكان ذلك بداية علاقة قوية توثقت بين غطاس وناشد عن طريق اللقاءت الكثيرة التى تتم بين وقت وأخر لمتابعة سيرالمعركة الانتخابية. عند اقتراب وقت الانتخابات ارتفعت سخونة المعركة وتضاعف نشاط المقدس غطاس وتضاعفت اللقاءات أيضا. كان المقس غطاس قد تخطى السبعين لكنه يتمتع بصحة جيدة ولياقة بدنية تمكنه من الحركة والنشا ط. وكان الكثير من الناس يهابونه لأنه كان معروفا بأنه يمارس الأعمال السحرية ويشيعون عنه أنه يمكن أن يكتب أعمال تنفع الناس اوتضرهم، وهى خرافات يتأثر بها الجهلاء والبسطاء. ورغم هذا فإنه كان يحمل مرارة

شديدة فى نفسه نتيجة إحساسه بتقدم السن وتدهور أحواله المادية. وكان يصب هذه المرارة على أخيه الأصغر صادق. فقد كان غطاس يتمتع فى مقتبل حياته بالوفرة المادية وكان يملك بيتا كبيرا ويتحكم فى مساحة كبيرة من الأرض بل وفى كل ميراث أبيه الذى تركه له ولأحيه صاددق وأخواته البنات. كان غطاس اكبرهم وتولى مسئولية الأسرة بعد موت أبيه.

وكان أخوه الأصغرصادق يكمل تعليمه حتى حصل على شهادة التجارة والتحق بوظيفة صغيرة بأحد البنوك بالقاهرة، وترك كل شىء أخر لغطاس وأخواته. وانشغل الرجل يعمله الجديد ليثبت وجوده فى الوظيفة ويبنى مستقبله عن طريق الجد والمواظبة والإخلاص حتى يتمكن من تدبيرأمور حياته وتكوين اسرة مثل كل الشبان فى سنه وفى وضعه. ومع الأيام كبرت الأسرة إلى خمسة أفراد الزوج والزوجة وولدين وبنت يذهبون الى المدارس ويعيشون فى شقة بالإيجار فى القاهرة.

وكان غطاس يعيش فى بحبوحة من العيش هو وزوجته واولاده وينفق ببذخ على ملذاته وعلاقاته النسائية وأعمال السحروالشعوزة ومحاولة السيطرة على عقول النساء والرجال، وانصرف جهده بعيدا عن رعاية الزراعة والمحاصيل فأخذ دخله يتناقص شيئا فشيئا على مدى ثلاثين عاما او يزيد حتى باع أكثرأملاكه واقترب من الفقر. وبعد وفاة زوجته لم يتخل عنه بناته الثلاثة وأولادهم الذين يرعونه ويوفرون له احتياجاته. وبدلا من أن يلوم نفسه على تدهور أحواله من الغنى إلى الفقر راح ينقم على أخيه لأنه لايساعده بالصورة الواجبة.

لم يكن هذا الأخ جاحدا وماذا يستطيع أن يفعل لأخيه الفاجر المتلاف.، وهومجرد موظف عنده عائلة وأولاد يحرص على مستقبلهم خصوصا وانه لم يأخذ من ميراث أبيه شيئا منذ ان تزوج وترك كل شىء لغطاس. لكن المشكلة أن غطاس وأمثاله من الأخوة الفاسدين يفيقون فجأة بعد تخريب كل شىء ليبحثوا عن كبش فداء لتحميله مسئولية الفشل والفقرالذى حاق بهم. لقد ادعى غطاس بانه كان يكافح من أجل أخوته وأنه انفق الكثير جدا على تعليم أخيه صادق وزواجه وكذلك على أختيه مما أدى ألى ضياع ماله، ونسى أن كل ما أخذوه كان جزءا صغيرا من حقهم فى ثروة أبيهم وأملاكه التى كانت تحت إدارة غطاس والتى بددها على مدى سنوات.

فغطاس لم يتعب ولم يعمل على صيانة الثروة وتنميتها وإنما انحرف وسار فى طريقه الخاص الذى اختاره لنفسه دون حرص على حقوق أخيه وأخواته التى جار عليها. وبدلا من الإعتذار عن سفاهته أصبح يلقى باللوم كله عليهم ويا ليته استحى واكتفى بكتمان الحقيقة، وتوقف عن التنديد بأخيه واتهامه بالجحود والنكران.

كان غطاس يصب نقمته على أخيه فى أذان أخى ناشد كلما تطرق الأمر إلى ذكرهذا الموضوع. ووجدت سمومه تربة خصبة فى ذهن أخى. وكان ناشد من نفس هذه

النوعية الكئيبة، فاختزن هذه الصورة فى عقله وراح يعكسها على أنا. ويقول، آدى نتيجة التعليم والمتعلمين، كان صادق سريان نفع غطاس علشان ننتظر من نسيم أن ينفعنا.، وأقنع نفسه بأننى سوف أكرر هذه الصورة التى رسمها غطاس لأخيه. وكان يعيد هذا الكلام كثيرا ليقنع أخوتى الآخرين.. والواقع أنه وقف فى طريق تعليمى منذ البداية. ولم يكن له أى فضل على لاماديا ولا معنويا. ومع ذلك يجلس فى كل محفل ليقول ويردد دون خجل بأنه ربانى وأنفق على تعليمى ولا يذكر أخوته حكيم وفوكيه أصحاب الفضل الحقيقى لأنهما وقفا بجانبى طوال تلك المراحل. وسوف أحكى لكم حكايتى مع التعليم كما حدثت فعلا لتعرفوا أين كان ناشد من هذه الملحمة الطويلة والناجحة. وبعيدا عن هذه الأكاذيب التى وحدت بين عقله وبين عقل غطاس سريان فأصبحا يصدقان أنفسهما، وكان سبب التوافق والتلاحم بينهما خيط رفيع لايراه الكثيرون.

مشكلتى مع التعليم

فقد كان ناشد من الكارهين للتعليم والمتعلمين نتيجة فشله فى الدراسة. لذلك لم يترك فرصة لأحد من أخوته لدخول المدرسة وشغلهم معه بمحاربات فاشلة لأهلنا وأهل القرية. وظل الأمر كذلك بالنسبة لى حتى فتحت المدرسة الأولية فى قريتنا فذهبت أليها بدلا من السباحة فى الترع والمجارى التى كانت تحيط بالقرية والتى أصابتنى بمرض البلهارسيا الذى رافقنى حتى سن الثلاثين ولم أتخلص منه إلا بعد تخرجى من الجامعة وتعيينى مدرسا للغة الانجليزية فى بيلا الثانوية فى سنة 1960،

هناك ذهبت للدكتور أنطون سيدهم لأسأله عن أسباب تكون الحصوات فى الحوالب فطلب عمل تحليل للبول ورأى تحت الميكرسكوب جراثيم البلهارسيا وهى تتحرك بوضوح ودعانى للنظر فرأيت بعينى سبب مأساتى الطويلة مع حصوات الحوالب والمثانة التى لم أتخلص منها إلآ بأربع عمليات جراحية فى مستشفى الجامعة والخامسة فى مستشفى كليفلاند بأمريكا لإزالة الكلى اليمنى.

أعود لأقول دخلت المدرسة الإلزامية وتفوقت فى القراءة والكتابة وحفظ النصوص الأدبية وأيات القرأن الكريم وكنت أصر على حضور حصة الدين الإسلامى مع زملائى المسلمين وأنافسهم فى الحفظ وأتفوق عليهم فى بعض الأحيان. وكان ذلك يلقى ترحيبا من بعض زملائى وتشجيعا من الشيوخ الفضلاء الذين أولونى اهتمامهم مثل الشيخ محمد هارون من سمالوط البلد، والشيخ محمد عبد الظاهرمن بلدة الشراينة القريبة منا. والغريب أن هذه الرابطة تواصلت وامتدت عبر اولادهم أثناء الدراسة الثانوية وكذلك فى المرحلة الجامعية، امتدت بينى وبين أحمد عبد الظاهر من ناحية، وبينى وبين عفت محمد هارون من ناحية أخرى. وحتى بعد ان تخرجنا ظلت العلاقة مع أحمد عبد الظاهر الذى تخرج من كلية الأداب قسم الدراسات الاجتماعية وأهتم فى دراساته العليا بدراسة النظام التعاونى وقضايا العمال، وتقدم فى هذا المجال

حتى حصل على درجة الدكتوراه وترقى فى المناصب حتى تولى منصب أمين عام الاتحاد التعاونى المصرى. كذلك تقدم عفت هارون فى كلية العلوم وتخرج فيها بتقدير ممتاز وأصبح واحدا من الباحثين المتميزين فى المركز القومى للبحوث. هكذا كان جيلنا وفيا لأساتذته وللصداقة، لم يبدأ التدهور الأخلاقى إلا حين تولى السادات المسئولية بعد وفاة عبد الناصر وأخذ يقود الثورة المضادة للقضاء على مكاسب الفترة الناصرية.

وهكذا بذر السادات بذور الفتنة التى استفحلت بين الشعب المصرى وهددت أمنه واستقراره وكادت أن تقضى على الأخضر واليابس بمجرد وصول الأخوان الى الحكم فى سنة 2012. والحمد لله أننا تخلصنا منهم فى نهاية العام بفضل وعى الشعب المصرى العظيم الذى خرج بالملايين فى مشهد لم يعرفه التاريخ من قبل، وهو يصرخ فى صوت واحد "يسقط. يسقط حكم المرشد " وتقدم الجيش لحماية هذه الثورة وتحقيق مطالبها وأنهى حكم عصابة الأخوان المسلمين وتم ذلك بفضل حكمة وشجاعة قائد عظيم هو عبد الفتاح السيسى. وهكذا تم التلاحم بين الشعب والجيش والشرطة للقضاء على هذه الجماعة الفاشية والتي حاولت الإنتقام وأخذت تقتل الأبرياء وتخرب في مؤسسات الدولة بل وقامت بحرق ثمانين كنيسة وانتهى الأمر بعد سنين طويلة وتضحيات عظيمة من رجال الشرطة والجيش إلى هزيمةهذه الفلول ودحرها.

وحين أكملت المرحلة الأولى بمدرسة القرية طالبت بأن أذهب للمدرسة الابتدائية فى البندر مع أصدقائى مكرم وتوفيق يعقوب اللذين كانا يرتديان البدل الأفرنجى ويدرسان اللغة الإنجليزية، وكنت أجلس معهما فى كثير من الأحيان وأسمع الكلمات وأحفظها، لكن ناشد كان يرفض ويقول إن سنى كبر على التعليم، وحين ألح فى طلبى وأبكى كان يمسك حكيم من ذراعه ويذهب به بعيدا خارج البيت حتى لا أسمعه ويهمس له ويقنعه بان يقول لى" إننا ذهبنا عند الصراف وكشفنا على تاريخ ميلادك وعرفنا إن سنك كبر وزاد عن السن المحدد للقبول". وهكذا تعطل تعليمى سنوات طويلة نتيجة حيل ناشد وألاعيبه، وبقيت عاطلا أذهب أحيانا إلى الحقل أو أذهب للسباحة والعوم فى مياه الترع مع أصحابى. وهكذا حتى بلغت الخامسة عشر وأنا أبحث عن شىء نافع أعمله إلى أن فتحت مدرسة الأقباط الأبتدائية بسمالوط البلد وعين بها الأستاذ خميس مرقس خصم ناشد القديم فساعدنى على الإلتحاق بهذه المدرسة فى السنة الثالثة. وقد وجد الأستاذ فريد أفندى مدرس اللغة الأنجليزية أن مستوايا فى كل المواد أعلى من مستوى طلبة السنة الرابعة ودعانى للإنتقال للسنة الرابعة إلا أننى ترددت وقلت أنا عايز أسس نفسى، وهوتصرف ساذج أضاع على فرصة توفير سنة دراسية. المهم أننى حصلت على الشهادة الأبتدائية سنة 1951 وعمرى سبعة عشرة عاما،

ودخلت السنة الأولى الثانوية وفى السنة الثانية قررت الوزارة أن تكون هذه السنة نهاية لمرحلة يؤدى الطلاب فى نهايتها إمتحانا عاما ويحصلون على شهادة تسمى الشهادة الإعدادية. وهى أول مرة تعطى فيها هذه الشهادة فى تاريخ التعليم. وبعدها تم

إلغاء شهادة الثقافة وشهادة التوجيهية وحلت محلهما شهادة االثانوية العامة. وكان بعض زملائى يسخرون من هذه التغييرات ويقولون إن وزارة التربية والتلعيم تستعملنا حقل تجارب. وبعد أن حصلت على الإعدادية بتفوق التحقت بمدرسة سمالوط الثانوية وأظهرت تفوقا فى كل المواد فى امتحان الفترة الأولى والفترة الثانية وكنت من الأوائل، لكن فى الشهر السابق على أمتحان آخر العام حدث إجراء غريب يثير الدهشة ويستحق وقفة لأرويه هنا باعتباره حدث تاريخى لم يحدث من قبل.

فقد حدث أنى مرضت قرب نهاية العام وتغيبت عن الدراسة نتيجة تكرار المغص الكلوى أياما كثيرة زادت عن نسبة الغياب المسموح بها وهى خمسة عشر يوما، وكنت أتلقى علاجا متواصلا عند بعض الأطباء لكن حين وصلنى الإنذار الخاص بالغياب أراد أخى ناشد ان يأخذ شهادة مرضية ويوصلها للمدرسة فقلت له لاتشغل بالك لأننى من الأوائل على الفصول الثلاثة وليس من المعقول إنهم يفصلونى.
والمؤسف أنه تم فصلى فعلا مع مجموعة من البلطجية والمتشردين، والشىء المحزن أن المشرف على الفرقة الأولى والمتابع لحالات الغياب كان الأستاذ ابراهيم الملاح وهو من أبناء دسوق بمحافظة كفر الشيخ، وكان شابا وسيما جميل الوجه خفيف الظل وكنا نحبه ونحرص على حضور حصته. كان يدرس لنا اللغة العربية وكان يعرفنى شخصيا على مدى العامين السابقين ويقدر تفوقى مثل الشيوخ المحترمين الذين تحدثت عنهم من قبل، ولكنه قام بهذا الإجراءغير المبرر، فقدم اسمى ضمن الطلبة الذين يستحقون الفصل من المدرسة، وتم ذلك بضمير بارد. وكان الموقف يقتضيه أن يبحث حالتى جيدا.

فحتى لو أننى لم أقدم عذرا أو شهادة مرضية فى وقتها فكان عليه أن يفترض ان الإنذار لم يصلنى ويرسل أنذارا آخر أو يكلف أحد زملائى الذين يعرفوننى أن يبلغنى ذلك حتى يتيح لى فرصة الحضور للمدرسة وتقديم العذر. لكنه لم يفعل شيئا من ذلك. وحين تكشف الأمر استاء كثير من أساتذتى وتحمسوا للدفاع عنى عند الناظر لأن القرار ظالم سيحرمنى من دخول الامتحان وضياع السنة الدراسية لأن الوزارة قررت ألغاء امتحانات الدور الثانى وكانت أول مرة يحدث فيها هذا الإجراء فى تاريخ التعليم المصرى، ولكن الناظر كان رجلا مستبدا ينطبق عليه المثل الذى يقول، أجسام البغال وأحلام العصاقير، فرفض كل وساطة وكل دعوة لإعادة النظر فى قراره. وهكذا دفعنى إلى الضياع بقسوة وانعدام ضمير، فقد ضاع على العام وفصلت من المدرسة وأصبحت فى الشارع.

لقد ترصدنى الحظ السىء فلم يكفه أبتلائى بالمرض وآلامه فأضاف إلى مصائبى ضياع الآمتحان وفصلى نهائيا من التعليم. لم نكن فى حالة مادية تسمح لى بضياع عام من عمرى واحتار عقلى فى تفسير هذا الموقف العدائى والمفاجىء منى، هل كان ابراهيم الملاح ينتمى للإخوان المسلمين سرا وكان ينفذ سياستهم فى اضطهاد طالب مسيحى متفوق، لآاعرف ولم أذكرهذا أبدا قبل الآن.

ومرت ثمانية وعشرون عاما على هذا الحادث الذى وقع فى سنة 1954 وتشاء الصدفة العجيبة أن التقي بالأستاذ ابراهيم الملاح فى بنغازى بليبيا عام 1982 كنت أعمل مدرسا للغة الإنجليزية بمدرسة بنغازى الثانوية، وعرفت منه أنه يعمل بمدرسة البنات الثانوية المجاورة لمدرسة بنغازى الثانوية بنين، وتعارفنا بمجرد اللقاء وكان كل منا يعرف الأخر. ولم أشأ أن أذكره بهذا الموضوع أبدا مع أن لقاءاتنا تكررت كثيرا. وكنت فى بعض الأحيان آخذه فى سيارتى واوصله حيث يشاء، لأنه لم يكن يملك سيارة وكان يضطر لانتظار الأوتوبيس وقتا طويلا. وقد عرف أننى أمارس الكتابة وأنشر بعض المقالات النقدية فى المجلات الثقافية وقد أطلعته على نماذج منها فأخذ يتحدث معى حول هذه الكتابا ت ويثنى عليها. وكثيرا مافكرت فى أن أذكره بعمله فى مدرسة سمالوط الثانوية وتدريسه اللغة العربية لى لكننى كنت أحجم فى كل مرة حتى لا أذكره بهذه الواقعة المحزنة أوأجرح مشاعره كما أننى لم أشر أبدا لانتمائه الإخوانى، وكان هناك آخرون أعرف انتمائهم لهذه الجماعة، وكان أحدهم واسمه حمدى من الغربية يحرض على الطلبة الليبيين ويقول لهم إن نسيم مسيحى وأن أنجيلهم مزور وينكر رسالة محمد، ورغم هذالم أسمح لنفسى بأن أذكرانتماءه لأى شخص خوفا على حياته لأن نظام القذافى لم يكن يرحم أحدا، وكان يأخذ الناس بالشبهات، لكن هذا النوع من أهل الفتنة لا يكف عن نشر سمومه حتى تأتيه اللطمة الموجعة وينقلب عليه المكر السىء .

ففى يوم من الأيام فتح الطلبة هذا الموضوع معى فى الفصل وقالوا إن الأستاذ حمدى يقول إن أنجيلكم محرف، فابتسمت ورددت فى هدوء:" إذا كان الأستاذ حمدى واثق من كلامه فعليه أن يحضر لنا الإنجيل الأصلى حتى يمكننا ان نقارن بين النسختين، اما إذا كان لايملك النسخة الصحيحة فلا يحق له ان يقول هذا." واقتنع الأولاد بهذا ويبدو أنهم لم يكونوا راضين عن مستوى حمدى فى تدريسه للغة العربية، فراحوا يواجهونه بكلامى ويشتدون عليه فى النقاش فثار فى وجههم ودخل فى صدام معهم، وهكذا انقلب السحر على الساحر.

وفى اليوم التالى دخلت عليهم الفصل فوجدت على السبورة قصيدة شعر فأخذت فى قراءتها لأننى أحب الشعر منذ الصغر، وقد أعطيته اهتماما كبيرا فى مراحل الدراسة المختلفة وكتبت بعض التجارب الشعرية. وأثناء قراءتى للقصيدة سألنى أحد الطلبة عن معنى بعض الأبيات لأنه غير قادر على فهمها، فشرحتها لهم باسلوب مبسط ففرحوا جدا وبدأوا يطعنون فى حمدى ويعبرون عن عدم قدرته على الشرح، وفاجأوه بهذا عند دخوله الفصل بعد ذلك، فاستشاط غضبا وأخذ يهددهم بإنقاص درجات أعمال السنة وامتحان الفترة فازداد الصدام بينه وبينهم. وتربصوا به حتى اوقعوه فى شر أعماله.

وقد شكانى حمدى لناظر المدرسه ولزملائه الشيوخ من مدرسى اللغة العربية فدعوا لاجتماع عام للمدرسين برئاسة الناظر طبعا وطالبونى بالرد على اتهام حمدى بالتعدى

على تخصصه في التدريس هل نسيم مدرس انجليزى أم مدرس عربى وأمام مايقرب من ستين مدرسا قلت اسمحوا لى أن أسال الأستاذ حمدى إن كان الأولاد شكوا له من اللغة الإنجليزية؟ لكنهم طلبوا منى أن أشرح لهم بعض أبيات في قصيدة فشرحتها لهم وأحب أقول للأستاذ أنا معلم ومهمتى أن اجيب من يسألنى في حدود ما توفرلدى من معرفة وقدرات علمية دون قصد أوإساءة لأحد وأنا أدعوا الجميع أن يفعلوا هذا ولا يضنوا بعلمهم على سائل في أي وقت فمهنتنا المقدسة تملى علينا أن ننشر المعرفة والتنويربين الناس جميعا. وأنا لن يغضبنى أن يقوم أحد بمساعدة أحد طلبتى على فهم درس في مادة اللغةالإنجليزية لم يفهمه منى فصفقوا لى واقتنعوا بهذا التوضيح لأنه ينفى وجود نية للأساءة .

ويبدو أن حبى للغة العربية جعلنى أحب أساتذتها وأصاحبهم فى مودة وتفاهم متصل، ولقد سعدت فى مدرسة بنغازى بصداقة ستة شيوخ فضلاء مثل عبد المحسن الوردانى وعبد المقتدر والشيخ سيد وآخرين سوف أحاول أن اتذكر أسماءهم لتسجيلها فى هذا الكتاب. وأشهد أنى قضيت سنوات هادئة ومريحة فى بنغازى سعدت فيها بالحياة فى داخل المدرسة وخارجها وأحببت الليبين بصدق لأن معظمهم يتصرفون ببساطة وحسن نية، وأثبتت الأيام لى أنهم يميزون جيدا بوعى عميق بين من يهتم بهم ويحرص على تعليمهم وبين من يستهين بهم ويخدعهم ويحاول استغلالهم.

لم أنس تلك المشكلة التى تسبب فيها ابراهيم الملاح أبدا، ولم أذكرها لأحد لأننى كنت حريص على ألا أسبب حرجا أو ألما لأحد، رغم أن هذه المشكلة هددت مسيرتى فى التعليم بالانقطاع. فقد حرمت من الامتحان وفصلت نهائيا من المدرسة وفشلت كل الجهود والوساطات فى إرجاع الناظر عن قراره الظالم ولكن ربك لايرضى بالظلم وقد دعت عليه أمى ان يذوق الحزن والألم الذى سببه لنا والذى أثبت أنه لايحسن التمييز بين طالب بلطجى متشرد وفاشل فى التعليم وبين طالب مجتهد ومتفوق وربما كان متعصبا دينيا والتعصب يدفع أصحابه دائما ألى الضلال.

لم تذهب دعوات أمى عليه هباء، لأن دعوة المظلوم تصل إلى مسامع الرب. وفعلا لم تمض شهور طويلة حتى سمعنا أن إبنه الضابط سقط تحت عجلة دبابة أثناء إحدى التحركات العسكرية ومات، فبالكيل الذى تكيلون به يكال لكم أيضا. هذا قول الانجيل. وهذا أنذار لكل من تسول له نفسه أن يظلم أويستغل سلطته لظلم الفقراء والضعفاء. والحمدلله لم نستسلم ولم نيأس وتحملنا فوق طاقتنا، وفى يوم قررنا أن نذهب إلى القاهرة لكى نبحث عن مدرسة خاصة تقبلنى لإعادة قيدى تمهيدا للحصول على تحويل منها لمدرستى بسمالوط.

وفعلا ذهبت أنا وأخى ناشد ألى القاهرة ونزلنا فى محطة الجيزة وقصدنا شقة صديقى كمال جليل وكان كمال بشوشا فى استقباله لنا وكان يحبنى جدا لأننى كنت زميل هتلر أخوه، وبعد أن عرف مقصدنا أخذنا إلى صديق له هوالاستاذ أنور فهمى قلينى ليدلنا على مدرسة خاصة تقبل اوراقى.

وتشاء الصدف أن نلتقى فى بيت أنور بعدلى ابن خالتى لبيبة من الطيبة ونعرف أنه يقوم بزراعة أرض الأستاذ فهمى قلينى وعرفنا أيضا بأن فهمى قلينى هو ابن خالة أمى. وهكذا أحسسنا بالراحة والاطئنان فى بيت أحد أقاربنا الذى لم نكن نعرفه. المهم ان الأستاذ أنور كتب لنا توصية لصديقه الأستاذ أحمد ناظر مدرسة السكاكينى الثانوية الخاصة. الذى أحسن استقبالنا وأستلم الأوراق وقيد إسمى بالسنة الأولى وتم ذلك فى وقت قصير جدا وبدات الدراسة فى اليوم التالى. كنا نقيم أنا وأخى ناشد بلوكاندة فى ميدان رمسيس وطرات لنا فكرة أن أعمل بجانب الدراسة وكنت مستعد لذلك وقال أخى انه سيكلم الأستاذ زكى الطحان وهو موجود فى اللوكاندة أن يساعدنى فى الحصول على عمل، ولكنه لم يتابع الأمر وتركنى فى اليوم التالى وسافر دون أن يذكر شيئا عن هذا الموضوع معى، وهكذا تركنى وفى جيبى جنيه ونصف جنيه لأعيش منه، دون أن يفكر لحظة واحدة واعيش فين، وأنا أنام عند نصرفهمى في شارع سعد زغلول بالجيزة وأذهب في الصباح الباكر إلى المدرسة بالعباسية في أتوبيسات مزحمة ومختنقة. لم يفكر الأخ ناشد في سكن أسكنه أوفى العمل وكيف أحصل عليه لكى أستمر في هذه المدرسة وأشتغل بعد الظهركى أعول نفسى في هذا المكان كما نصحنى

ورغم أنه تردد على القاهرة عشرات المرات من قبل وعرف متاجرها ومعاملها وتعامل معهم ألأ أنه لم يوجهنى فى أى اتجاه ولم يدلنى على طريقة أو على باب أطرقه للحصول على عمل ولو بائع فى محل، فقضيت حوالى اسبوعين بالمدرسة صباحا فى العباسية ومساء أعود الى حجرة صديقى نصر فهمى لأنام هناك. والواقع أننى كنت أتمنى ان اجد عملا لكن كيف؟ في هذه الظروف الملخبطة. ربما لواهتم بالبحث عن سكن لى بالقرب من المدرسة لساعدنى ذلك على البحث عن عمل لكن بهذا الوضع اظلمت الدنيا في وجهى خصوصا وان المبلغ الذى تركه لايكفى ولا يتيح لى فرصة للتصرف فلم أفصح عن رغبتى لأحد لأننى خفت أن أمرض ولا أجد أحدا حولى. وكان هذا من أكبرأخطائى لأننى لم احسن الاستفادة بهذه الفرصة التى أتت بى إلى القاهرة، عاصمة مصر حيث الحياة مليئة بفرص العمل والكسب الشريف خصوصا وأننى كنت أعيد السنة الدراسية ولم أكن فى حاجة كبيرة للمذاكرة وكان يمكننى أن أختار عملا يساعدنى مستقبلا فى دراستى الجامعية

ولكن هذا لم يحدث لأن أخى لم يقف الى جانبى فى تحديد هذا الاتجاه وكان يهمه ان يعود متعجلا على غيرعادته لآسباب عرفتها بعد عودتى الى القرية.

حين سألنى بعض الناس عن المدرسة التى دخلتها فى القاهرة وكيفية وصلنا إليها فحكيت لهم القصة ببساطة كما حدثت. أن صديق لنا ارسلنى بتوصية للمدرسة بالعباسية وقبلت أوراقى فى الحال وأخذوا المصاريف وهى ثلاثة جنيهات ونصف تقريبا. وفوجئت بأخوتى والناس الآخرين يضحكون ويقولون إن ناشد أخبرهم أنه ذهب إلى جمال عبد الناصر الذى رحب به وأرسله إلى كمال الدين حسين وزير التربية الذى استقبله على باب الوزارة مرحبا به، أهلا. ياشيخ ناشد. أطلب ونحن فى خدمتك. فشرح له الموضوع وفى الحال أصدر قرارا بعودتى للدراسة وإعادة قيدى بمدرسة العباسية الثانوية. يا للهول!! فانتازيا خيالية لاأساس لها من الواقع اختلقها بخياله

الخصب وأشاعها بين أهل القرية. فهويميل دائما إلى تصوير نفسه فى صورة البطل الجرىء القادر على اختراق كل جواجز السلطة وحل أعقد المشاكل. كان يفعل ذلك كثيرا بقصد كسب اعجاب البسطاء وربما خداعهم وإيهامهم بأنه قادرعلى أن يحل لهم مشاكللهم. المهم أن الجميع عرفوا القصة الحقيقية منى وبداوا يسألوه عن عبد اناصر وكمال الدين حسين، وأخذ بعضهم يسخرمنه بطرق أخرى مما أغضبه على لأننى كشفت الحقيقة.

لم اينس هذا الموضوع وزادت نقمته على وأصبح يؤكد لنفسه مقولة استخلصها من أحاديث غطاس المسمومة معه، إن كان صادق أبو سريان نفع أخاه يبقى نسيم هينفعنا. لم يكن يعيش فى الواقع وكان يتوهم لنفسه أدوارا خارقة، والعجيب انه كان يصدق نفسه كثيرا ولا يستحى حتى لو واجهناه بالحقائق. كان غطاس يمارس أعمال السحر وكان ناشد يؤمن بالسحر وبقوة هذه الأعمال. كان عقله مسكون بالخرافة يصدق المنجمين وقراءة البخت وكانت الكتب التى يحرص على قراءتها هى كتب التنجيم وأشهرها كتب الشيخ الفلكى وكانت أكبر قراراته تتم على هذا الأساس. وهذه الميول هى التى ربطت بينه وبين المقدس غطاس الذى وقف بجانبه فى الانتخابات نكاية فى الآخرين الذين يكرههم كرها شديدا. وقد أدى هذا فعلا ألى إرتفاع أسهمه وحصوله على الأغلبية فى الانتخابات، وأصبح هو أحد مشايخ القرية رغم عدم كفاءته الشخصية لهذا الدور، وهذا ما سوف تكشفه الأيام.

تولى ناشد مسئوليته كواحد من مشايخ القرية الأربعة وبدأ يشارك فى الاجتماعات التى يرأسها العمدة ويتابع مع الجميع مشاكل القرية واحوالها خصوصا انتخابات مجلس الشعب وغيرها من الانتخابات التى كانت تجرى فى السنوات الأولى لثورة يوليو، وكان بعض المرشحين لعضوية هذه المجالس يزورون القرية ويحرصون على لقاء ناشد ويحفزونه للوقوف معهم ودعوة الفلاحين لانتخابهم. وكان المرشحون يوزعون مبالغ كثيرة من أجل الفوز وكانت المبالغ تدفع عادة للعمدة والمشايخ من أمثال ناشد ليقوم هو بدوره بتوزيعها على الفلاحين وأبناء القرية. وطبعا كان العمد والمشايخ يوزعون القليل على الناس ويستولون هم على الجزء الأكبر لأنفسهم. وسواء كان هذا حقيقة او من باب سوء الظن فإن هذه العملية التى يلعب فيها المال الدور الرئيسى جعلت لنادر شعبية وأهمية فى التأثير على كثير من الفلاحين والأ جراء. وظهر ذلك جليا عندما جاء موسم الفيضان وأخذت البلدة كلها تتحسب لهذ الأمر.

فقد اعتاد الناس جميعا على أن يساهموا بجهودهم وامكانياتهم فى إقامة الحواجز والسدود لمنع مياه الفيضان من إغراق الزرع واغراق البيوت لأن قريتنا تقع فى زاوية مثلث ارض منخفضة يحيط بها من الخارج طرادى النيل، وهو جسر يرتفع قرابة خمسة أمتار عن مستوى النهر، ويحمى الأراضى التى تقع خلفه من الغرق. أما قريتنا فتقع فى بؤرة المنخفض ولا شىء يحميها سوى عناية الله. من أجل هذا كان الناس وخصوصا الشباب يتطوعون للعمل ليل نهارفى موسم الفيضان لحماية القرية دون أجر. وكان هذا هو التقليد المتبع على مدى عشرات السنين ولم يخرج عليه أحد

من قبل. لكن تركيبة ناشد الشخصية تميل دائما ألى المخالفة والسعى لتوريط الأخرين فيما لايحبونه أو يرضونه.. فجمع الكثير من العمال والفلاحين وقال لهم، أنتم أجراء وليس لكم فى هذه المزارع شئا يخصكم، فأصحاب الأراضى والمزارع أغنياء ولديهم المال ويجب عليهم أن يدفعوا لكم أجورا، وأنا أدعوكم ان ترفضوا هذه السخرة، ولا تساهموا فى إقامة الجسور او السدود حول هذه المزارع حتى يدفع أصحابها أجورا لذلك. وفى نفس الوقت وجه الدعوات ألى الملاك بأن يساهموا بالمال لدفع أجر الفلاحين والعمال الذين يقومون بعملية مقاومة الفيضان وأعرب عن استعداده لجمع النقود وتوزيعها عليهم، ومتابعتهم والأشراف عليهم

. كانت دعوة ظاهرها العدل لكنها جاءت فى وقت ضيق وبطريقة مفاجئة غيرمعتادة، لم يتعود الناس عليها ولذلك كان يصعب على بعض الملاك أن يضحوا بالمال. فالبعض يدفع راضيا والبعض الأخر يتزمر ويدفع القليل او يرفض. وكانت مشكلة هذا العام ان الفيضان جاء طاغيا وعنيفا عن كل السنوات السايقة. وطالت فترة المقاومة عن المعتاد حتى أخذ أغلب الناس فى الانصراف عن دفع الفلوس وتخاذل كثير من العمال والفلاحين فتفجرت السدود المقامة ووقعت الواقعة وفى ظرف ساعتين أحاطت المياه بالقرية من كل جانب بعد ان أغرقت المحاصيل، وارتفع مستوى الماء ألى اكثرمن ثلاثة امتار داخل بعض البيوت وأدى إلى هدم نصف منازل القرية. وكان خروج الناس من بيوتهم شيئا محزنا فلم يتمكنوا من جمع أشياءهم أو اخراج ملابسهم ومأكلهم وبعد ساعات قليلة أصبحنا جميعا فى العراء ننتظر معونة الشئون الاجتماعية

الفيضان يغرق القري

احتمينا من العراء بحجرة فى نادى الشباب خلف جسر الطرادى، وكان من حسن الصدف أن نكون السابقين إلى اللجوء إليها. وتقبل الجيران الأخرون الهاربون من خطر الفيضان الأمر برضا وتعاطف ولم يعترض أحد على احتلالنا هذه الغرفة الوحيدة ووقفنا جميعا نساعد بعضنا بعضا. وفى اليوم التالى جاءت خيام الحكومة لتنصب

وتستوعب عددا كبيرا من المتضررين. ولجأ بعض الناس ألى أقاربهم وذويهم فى أماكن أخرى بعيدة عن الفيضان. ذهب أخى ناشد بزوجته وأولاده ألى منزل حماه فى المعصرة وبقيت أنا وأمى وبقية الأسرة نسكن هذه الغرفة والفسحة التى أمامها بجوار أسرة المرحوم نصر فهمى الضابط الذى استشهد أثناء حرب 1967. والفضل يرجع إلى هذا الشهيد فى فكرة تأسيس نادى الشباب هذا، الذى يأوينا وكان من أبرز مظاهر التطور فى قريتنا حينذاك.

كنا كشباب نتعلم فى المدارس ونعيش فى قرية صغيرة ونلتقى أحيانا كأصدقاء في مجموعات صغيرة ثلاثة أو أربعة في أحد البيوت لنذاكر دروسنا أما كمجموعات لنتسامرونلعب معا، فكانت هناك مشكلة المكان الذى يمكن أن يجمعنا، وخطرت فكرة النادى للمرحوم نصرفهمى محمد فتح الباب وعرضها علينا ففرحنا بها ووجدنا فيها مخرجا لأزمتنا. وكان نصر فهمى شابا وسيما ونشيطا ولديه روح الجرأة والاقدام فأخذ الفكرة على عاتقه وذهب بها لفضيلة الشيخ محمد حسن العوايسى وعرضها عليه. وكان الشيخ محمد حسن يعمل قاضيا فى وزارة العدل، وكان لايزال شابا لم يبلغ الأربعين من العمر، وكان يتحلى بروح المحبة والتواضع والرغبة فى خدمة أهل القرية وتنويرأهلها. كان يتولى الخطابة فى أحد مساجدها يوم الجمعة. وكان يتميز بغزارة علمه فى أمور الدين والشرع ويزن كل شىء بعقلانية منفتحة ومتحررة من جمود التقليدين والحرفيين والمتزمتين فأقبل عليه الناس وانتشر صيته فى كل محافظة المنيا.

وكان رجال الفكر والمهتمون بالشأن العام يلجأون إليه لاستيضاح الجوانب الشرعية فى كثير من الأمور خصوصا وأنه كان يتحلى بلباقة وقدرة فائقة على التعبير عن أفكاره بوضوح، كما كان بحكم انتمائه الطبقى يتعاطف مع الفقراء والبسطاء ويهتم بقضية العدل الاجتماعى ومجانية التعليم والعلاج. هذا هو الرجل الذى حمل شعلة التنوير فى القرية وجمعنا حوله كأخوة وشجعنا على مزيد من التوافق والتعاون معا وساعدنا على الحصول على تأييد كل أعيان القرية الذين تبرعوا للمشروع فأخذنا قطعة الأرض وأقمنا عليها سورا وداخله غرفة للآجتماعات واصبحنا قادرين على أن نجد مكانا للأنشطة الفنية والرياضية وبدأنا مرحلة انتعاش وازدهار ووئام فى قريتنا حتى جاء موسم الفيضان فى 1954 ليوجه لنا هذه الضربة العنيفة التى دمرت الزرع وأغرقت البيوت ووضعتنا فى ضائقة شديدة.

يقول تشارلس ديكنزالروائى الكبير: " تأبى المصائب أن تأتى فرادى"، فلم تكن كارثة الفيضان هى الأولى بالنسبة لنا. فقد سبقتها كارثة أخرى ، قبيل قيام ثورة يولية 1952 ، إن تأثير هذه المصائب من حيث القوة والضعف يتحدد نتيجة قايلية المتضررين واحتمالهم لعواقبها. فقد كنا حينذاك فى حالة نقاهة أو تعافى من قسوة السنوات السابقة، وأخذنا نهتم بالزراعة والتجارة ونحاول هنا وهناك، ففتحنا الدكان الذى تركه أبى بقليل من المال وأخذنا نتاجر فى المحاصيل وبالذات القطن. كنا نشترى

الكميات بالقطاعى من الفلاحين وأولادهم ونجمع هذ الكميات الصغيرة ونوردها للبنك حيث يتم فرزها وتحديد درجة جودتها ثم نودعها على حساب أحد التجار الكبار باسمنا ونحصل منه على مبلغ سلفة إلى أن يحين الوقت لبيعها. وفى هذا العام تجمع لدينا عدد كبير من القناطير، كان سعر القنطار لايتجاوز عشرة جنيهات وفجأة ارتفع السعر عن طريق المضاربة إلى ما يقرب من ثمانى عشرة جنيها وكان المفروض أن ينتهز حكيم الفرصة ويبيع القطن لكن سوء الحظ كان له بالرصاد. فالتقى به ناشد ونصحه أن ينتظر إلى الغد لأن الشيخ الفلكى
تنبأ فى كتابه أن القطن سوف تصل أسعاره إلى عنان السماء، وعليه أن ينتظر إلى الغد.

ورغم أن ناشد لم يكن شريكا لنا فى القطن فقد أثر على حكيم ومنعه من اتخاذ القرار السليم الذى كان يمكن أن ينقذنا من فقر السنين الطويلة، وفى اليوم التالى وقعت الكارثة فقد نزل سعر القنطار ألى ما يساوى ثمانية جنيهات ونصف، وهكذا عدنا ألى مربع الفقر رقم واحد. كان حكيم يبكى ويصرخ من هول الفاجعة، وكاد ان ينتحر وكنا نشاركه الحزن وفى نفس الوقت نعضده ونطمئنه بأن الله قادر أن يعوضنا فى المواسم القادمة على شرط ألا يسير وراء ناشد وألا يصدق كلام المنجمين.

لم نكد نسترد أنفاسنا بعد هذه الإنتكاسة فى خريف 1952، حتى داهمنا فيضان النيل أواخر السنة 1954، فهدم بيتنا وأغرق جزءا كبيرا من زراعتنا ووضعنا فى العراء شهورا طويلة قبل أن تجف المياه ونعود إلى البيت لنجده قد تصدع وأحتاج الى الترميم او الهدم والبناء وهذا لم نقدر عليه على مدى ثلاثة عشرعاما. أما التعويض الذى أخذناه من الحكومة لم يزد عن ثلاثين جنيها.

مرت سنوات التعافى وبدأنا نستعيد حياتنا من جديد للخروج من جو هذه الأزمات. وكان هذا من أسباب عودتى من القاهرة لأننى كنت أعرف أنه يستحيل على أن أطلب مصاريف لإطالة بقائى فى مدرسة العباسية أو للبحث عن عمل بالإضافة إلى هاجس المغص الكلوى الذى كان يهددنى من وقت إلى آخر. لكننى وضعت فى ذهنى أن أعيد السنة الأولى مضطرا وقى السنة الثانية سوف أذاكر دروس السنة الثالثة أيضا وأتقدم لامتحان الثلاث سنوات منازل وتم هذا فعلا وحصلت على الثانوية العامة من القسم الأدبى بدرجات مرتفعة توأهلنى لدحول الجامعة القاهرة سنة 1956.

ذات الرداء الأخضر

كنت أتهيا لدخول جامعة القاهرة. وكنت واثقا من قبولى بها. إن مجموعى كبير يؤهلى لأى كلية من كليات الدراسات النظرية. وكانت كلية الآداب هى أول كلية كنبتها فى بطاقة الإختيارات. وأنا أحس الآن أن مستقبلى فى دراسة الآدب، ومن ثم أخذت أفكرفى أى الأقسام أختار. إن هوايتى هى الفراءة والكتابة. هل أدخل قسم صحافة لأ جعل من الهواية حرفة أوأدخل قسم اللغة الإنجليزية التى أحبها جدا لكى أتقنها وأتعمق في آدابها، ولأننى عاشق للأدب العربى وللشعر العربى قديمه وحديثه وأحفظ منه مئات الأبيات وبعض القصائد كاملة، كما أننى أصبحت أحسن التعبير بأسلوب متميزوجميل فى كتابة موضوعات الإنشاء التى كانت تعجب أساتذتى فى المدرسة، وكانوا يشيدون بها فى الفصل أحيانا. وقد يساعدنى هذا على أن أترجم من الانجليزية للعربية وأمضى فى محاولاتى الكثيرة فى كتابة الشعروالقصة القصيرة. لقد علق أحد مدرسى اللغة العربية على إحدى قصصى قائلا " نسيم...إنها بداية ناجحة وأنا أهنئك وننتظر منك الكثير"

اشتغلت هذه الأفكارفى خيالى، ولكنى كنت متردد أى القسمين أختار فرحت أستشير زملائى الذين سبقونى. قال لى أحدهم أدخل قسم اللغة الإنجليزية تتعلم اللغة وتكتسب ثقافة أدبية واسعة وعميقة. لقد قرأت جريدة الأهرام يوم ظهور النتيجة وقرأت أسماء العشرة الأوائل على قسم أدبى وكنت أنتظر أن تكون منهم. وكانت السابعة بنت اسمها سلوى لطيف تقول إن أباها مفتش أول اللغة الإنجليزية بوزارة التربية والتعليم. وقد سألها المحرر عن القسم التى تختاره فقالت قسم اللغة

الإنجليزية لأنها حصلت على أكبر درجة في هذه اللغة. وكانت هذه الكلمات هى الفيصل في الموضوع. لقد تعبت من التفكيروقد اهتديت أخيرا بمن يفوقنى علما ولغة. كان سبب الحيرة أحيانا أن درجاتى فى اللغات تؤهلنى لقسم فرنساوى وقسم انجليزى وقد ارتحت أخيرا لاختيار هذه الفتاة، وأصبحت أمنيتي أن ألتقى بها فى قسم اللغة الإنجليزية وأتعرف عليها فزامالتى لمثل هذه الفتاة تملأنى فخرا وتشعرنى بأن تفوقى فى الثانوية العامة قد قفز بى لمستوى أبناء الذوات. وقد وجدت نفسى فعلا بين أبناء الذوات، حين عرفت إن الجالس بجوارى هو حازم ابن بهى الدين بركات باشا رئيس وزراء مصر الأسبق. وقد عاد من لندن نتيجة العدوان الثلاثى واصبح زميلا لى فى الفسم، وبعد <u>أن استوعبت هذه الحقيقة رحت أترنم بقول الشاعر العربى:</u>

العلم يرفع بيوتا لاعماد لها والجهل يهدم بيوت العز والمجد.

وهنا عدت أتذكر الاسم سلوى وأعيده لنفسى: سلوى ياسلوى يا أحلى من الحلوى. وهذا شعر صالح جودت. ياله من اسم موسيقى جميل، وقع على نفسى وقع السحرفسكرت دونما شراب، وبدأت أفكر فى شىء آخرغيرالإسم. أفكر فى صاحبة الإسم. إن الإسم جميل وساحر فهل تكون هى جميلة وفاتنة؟ يا للحظ السعيد أن. تكون هذه الفتاة ابنة الرجل المعروف، وهنا قفز إلى ذهنى شىء جديد. وما فائدة الزمالة إذا لم يكن هناك تكافؤ فى الوضع الاجتماعى. هل يمكننى أنا الريفى الفقيرأن أتطور بهذه الزمالة إلى مستوى الصداقة أوالحب؟ لكن هذا يحتاج إلى الكثيروأنالا أملك شيئا. ولكن ماهذه الأفكارالسوداء. ماهذا كله لماذا أفكر فى تجنب البلاء قبل وقوعه. إن الحياة أمل وعمل. ربما أعمل وأنجح وأصبح شيئا مذكورا..

وبعد أيام قليلة حزمت أمتعتى وتركت قريتى المحبوبة العوايسة بريف ممالوط وذهبت ألى القاهرة، مدينة العلم والنور. وبعد أن قيدت اسمى فى قسم اللغة الإنجليزية، أخذت أبحث فى الكشوف المعلقة على حائط الممرالذى يتوسط مبنى القسم حتى وجدت اسمها فى المجموعة (ج) فكتبت اسمى فى هذا الكشف، وفى أول محاضرة أدخل فيها المدرج اخترت لنفسى مكانا منعزلا ورحت أتلفت حولى بنظرات ذائغة حذرة وأنفاسى متقطعة كأن شيئا ثقيلا يجسم على صدرى. فكل ماحولى غريب بالنسبة لى. هنا بنات يجلسون بجانب أولاد ويتكلمن معهم. وأنا أعرف مقدما أن هذا يحدث فى مدرجات الجامعة!! لكن الشىء الجديد علي أننى لم أره من قبل ولم أُعلفه. والبنت فى بلدنا عنما ترى شابا تبتعد عنه وتحاول أن تخفى وجهها وعينيها. بل تحاول أن تدخل فى جلدها حتى لايرى منها شيئا. بدأت أنفاسى تهدأ رويدا رويدا حين دخلت علينا الأستاذة.

القت علينا التحية وابتسمت. كانت شابة فارعة الطول نحيفة قمحية اللون باسمة الوجه. امسكت بكشف الأسماء وأخذت تتعرف على الطلبة والطالبات، وتمد رقبتها حتى ترى وجوههم عن قرب. وهنا تذكرت سلوى وبدأت أشد أذنى، وأميل إلى الناحية التى تنظر إليها االأستاذة. وبعد قليل انبعث الإسم من الصف الأمامى فى صوت خافت ضعيف، ثم انبعث صوت رقيق آخر يعلن إسما آخر، فلم أتحقق أى واحدة تكون هى؟ فأخذت أنظر إليهما من الخلف وعينى مركزة على حركاتهما وهن جالستين، وتمنيت لومعى أشعة إكس لأخترق بها هذه البلاطى السميكة وأرى وجوه أصحابها من الأمام.. من اليمين تجلس فتاة شعرها ذهبى اللون قصير منكوش بعض الشىء وترتدى بالطو أحمر، وعن يسارها تجلس فتاة صغيرة الرأس شعرها أسود فاحم، تعقصه من الخلف فى شكل ذيل الحصان. ومازلت أنظر ناحيتهما حتى اقتربت منى االأستاذة وأخذت تنظرألي باهتمام وتنصت لتسمع صوتى، سألتنى عن إسمى فأخذت أنتبه إليها وأجيب فى حياء وخجل مما جعل الكلمات تتعثر فى فمى بصورة لفتت إلي الأنظارحتى الطالبتان اللتان تجلسان فى ألصف الأول أدارتا وجهيهما إلى الخلف لرؤيتى فانتصبت فى وقفتى فرآيتهما.

الأولى وجهها ابيض أما الأخرى فوجهها أسمر شاحب لكننى لم أتحقق تماما من هذه الوجوه أوأفرق بين أصحابها. يكفنى أنى عرفت أنها إحدى الإثنتين.، وانتهت المحاضرة وخرجت مع الآخرين. خرجت وفى رأسى أفكار كثيرة وفى قلبى شوق غريب للمعرفة. وبعد فترة دخلنا مدرجا آخر، وكانت حالتى أكثرهدوءا. فجلست فى الصف الثانى بين أربعة زملاء، ورآيتهما أمامى فى الصف الأول ثنائى عجيب تكاد تلتصق إحداهما بالأخرى. ثم دخل المدرس وحيانا بابتسامة عريضة وكان لصوته فرقعة. وبدأ يتعرف على الأسماء واحدا وأحدا ويكررالإسم أكثر من مرة وكأنه يحاول أن يحفظه، وأحيانا كان يعلق بنكتة لطيفة على بعض الأسماء فأوجد جوا من المرح والألفة. وهنا جاءت الفرصة لأعرف فتاة الأحلام والأوهام. ولعل جلوسى بين زملائى ملأ نفسى بقدر كبير من الارتياح والطمأنينة فلم أعد فى حاجة للخجل اواختلاس النظر إلى زميلاتى، فالمسافة بينى وبينهما ضئيلة بل تكاد تكون منعدمة , فلو أننى حركت يدى قليلا إلى الأمام فربما لمست شعرها، وحانت الفرصة حين وقفت تعلن اسمها وكانت هى ذات الرداء الأخضر، وصاحبة الشعر الأسود الفاحم الظويل الذى يتدلى على ظهرها كذيل الحصان .إن طريقة عقصه تثير فى خيالى نوادر وصور للذيول والفرسان .فرحت أتأملها متوسطة الطول ممتلئة قليلا لون بشرتها أسمر به لمسة من الشحوب. شعرت بصدمة أثارت حيرتى، أتكون هذه الفتاة هى صاحبة الإسم الساحر الرنان. مفارقة كبيرة بين الإسم وصاحبة الإسم. بين الصورة المتخيلة والحقيقة الماثلة أمامى. هكذا شعرت بها لأول وهلة. الاسم جميل كان يجب أن تملأه

بصورة أكثر مالا. لكن هذه هى الحياة تمنينا دائما بالكثير وفى النهاية تواجهنا بالحقيقة. لم تطل حيرتى فقد انتهت المحاضرة والكل من حولى يتحرك للخروج فاستيقظت من سرحانى وخرجت معهم.

عرفت الآن أننى سوف أراها كل يوم فى هذه الحجرة أو فى غيرها، وفى فناء الكلية أوعلى الكافتيرية. لكننى لم أتوقف عن التفكير فيها، وكنت كل يوم أرمقها بنظرات غامضة، وأرى أنها ليست قليلة الجمال كما ظننت لأول وهلة بل أحسست أن فيها أشياء جميلة ومريحة. هذا الوجه المستدير والشعر الأسود الفاحم الذى يرتفع من الأمام فيشكل تاجا ينحنى مع استدارة وجهها ثم ينتهى من الخلف بخصلات تنعقد فى الوسط ثم تتدلى على ظهرها بما يشبه ذيل الحصان. هذه الهالة الجميلة تحيط وجهها المستدير ذى التقاطيع الدقيقة فتصنع لوحة متناسقة التفاصيل تتوسطها عينان سوداوان وأنف دقيق وفم يشبه الخاتم، ملامح جميلة وجذابة غيرت فكرتى عنها فبدأت أتعلق بها من جديد حتى مشيتها كانت تثير إعجابى.

كنت أتابعها أحيانا خلسة لأمتع عيني بقدها المعتدل وهو يتثنى فى مرونه عجيبة، وكانت إلى جانب ذلك كله شديدة التأنق فى ملابسها دون تبرج حتى يخيل للرائى أنها تتكلف فى تصرفاتها لكنها كانت تزيدنى إعجابا وتزيدنى شغفا بها. خصوصا بعد أن تأكدت، أن هذه المجموعة لاتضم من الطالبات المسيحيات غير هذه الطالبة وزميلتها، وهنا شعرت برباط آخر يمكن أن يقربنى منها. لكن العجيب أن ظهورهذه الرابطة بدا وكأنه حاجز يفصل بينى وبينهما. والذى زاد هذا الأمروضوحا كونى ريفيا دائم التحفظ فى الكلام فلا أبادر أى فتاة بالكلام إلا إذا بادرتنى هى. وقد لفتت هذه الطريقة بعض الأنظار إلي. حتى ظن بعضهن أنى ساذج, لكننى كنت فطنا. كنت أريد ن أعرف أسلوب كل زميلة قبل أن أختلط بهن. سألتنى إحداهن ذات مرة عن بلدى ..ديروط فضحكت وقلت بل سمالوط وليست ديروط، فاستطردت وكيف حال المذاكرة ، أجبت مش بطالة . لقد تكلمت معى معظم طالبات المجموعة سألننى عن بلدى وعن ديانتى وعن حياتى فى القاهرة ماعدا هاتين الطالبتين فكانت تنظران إلي من بعيد نظرات عجيبة، وخيل إلي انه بعد أن عرفتا أننى أشاركهن فى الديانة فأن هذا الرباط فرض عليهن التحفظ معى. ربما وإن بدا الموقف سلبيا فى أول الأمر. لقد لفتت هذه النظرات انتباهى وحاولت أن أجد لها مدلولا وخصوصا أنهما تتكلمان مع زملائى الآخرين. كنت أعرف ان معظم من تكلمن معى كن يقتربن منى وكأننى مخلوق غريب من عالم آخر. ورغم إدراكى لهذه الحقيقة إلأ أنى كنت أتجاوب معهن بأسلوب راق بل كانت

تفلت من بين شفتي بعض القفشات التى كانت تضحكهن وتقربهن منى أكثر. كان فى ذهنى أن أثبت أننى من سلالة الفلاح الفصيح وليس من سلالة الذين اشتروا الترماى.

لقد تلاقت نظراتى مع نظراتها مرات كثيرة ولكنها لاتفصح عن شىء، ربماكان حياء وخجلا متبادل. والأيام تمر والنظرات تتلاقى دون إفصاح، وفى ذات يوم دخلت المدرج وفى يدى جريدة المساء، وجلست ألى جانب زميلى طاهر ورحت أتصفحها. وفى أثناء ذلك سمعت سلوى تقول:" طاهر أرجوك، ماتحرجنيش مرة تانية وكفاية بقه. لن أقرأ. لاتطلبوا منى ذلك!! وعرفت أنها تشير إلى ماحدث بالأمس حين طلب منها بعض الزملاء أن تقرا المقال الذى كتبته وأمرتها الإٍتأذة أن تقرأ فقرأت فى صوت رقيق جذاب يختنق أحياتا ربما من فرط الحياء بسبب الموقف المفاجىء االذى لم تكن تتوقعه. ولكن طاهر راح يضحك ويقول:

معقول يامدموازيل سلوى والمقال رائع وإيه رأيك يانسيم؟

وكان ردى. طبعا مش معقول واحنا محتاجين نتعلم من المقالات الحلوة دى. ابتسمت هى أيضا ثم نهضت ومدت يدها الى الجريدة وأمسكت بها ونظرت فى إحدى الصفحات ثم ردتها وشكرتنى. فى ذلك المساء عدت ألى حجرتى الضيقة مسرورا. وبدأت ابسامتها تكبر فى خيالى فقررت من الآن سوف أحاول التحدث معها والتعرف عليها. وليكن ذلك من الغد. ومن ذلك الحين أخذت أنتهزالفرص للكلام معها. كانت كلماتى خافته بطيئة كادت أن تختنق فى فمى لكننى تطورت شيئا فشيئا وأستطعت أن أتغلب على حيائى الريفى وأعبر عن رأي بوضوح وكانت هى تعطينى اهتماما كبيرا فاحس أن لكلماتى صدى عندها. بل وخيل ألي أن هذه الفتاة تحمل لى نوعا من التقديير

وفى ذات يوم كنت خارجا من باب القسم فرآيتها تجلس هى وزميلتها على الحشائش الخضراء تحت شمس الشتاء الداقئة، ويقف إلى جانبهما حسان وصبور وكان بينهم شبه حديث. ودفعنى الفضول فاتجهت نحوهم ورأيت ان احييهم فالتفت حسان فائلا فى شبه تحذير:

_ وطى صوتك يا سلوى احسن أخونا نسيم يسمعك؟ وعرفت أنهم كانوا يناقشون حقوق المرأة فى التعليم والعمل، فلما أنكر صبور عليهن هذا الحق ردت سلوى عليه قائلة:

- **هوانت صعيدى؟ أما أنا فابتسمت وقلت: مش مهم قولى ماشئت، ألست صعيدية من أسيوط؟ فضحكت وقالت ولكنى لم أرها أبدا ولم أعش فيها يوما واحدا. ثم سألتنى وهل أنت من أسيوط؟ وأجببت من سمالوط.**
- **إذن صعيدى برضه؟ فأجبت: أيوه صعيدى وبوى صعيدى، وانفجر الجميع فى الضحك ثم عادت إلى أصل الحديث فقالت:**
- **على العموم أنا من رأى أن الفتاة يجب أن تتعلم وبعدين تتزوج ومن الأفضل لها أن تقعد فى البيت ولا تعمل إلا إذا كانت حياتعا الزوجية تحتاج الى عملها. فتساعد زوجها فى أعباء الأسرة .وانفض الحديث ودخلنا المدرج لسماع المحاضرات .ولكن صوتها ظل يرن فى أذنى طوال اليوم حتى بلغ ألى عقلى وقلبى.**

وأخذت أقول لنفسى، إنها تعبرعن وجهة نظرها لا شك فى هذا. فهى تقول ما تحسه وما ترى أنه الأفضل. ورأيها رأى قيم ومهم يدل على حسن تقدير للأمور ولظروف الحياة وعلى اتزان عقلها. فهى ليست متزمتة وليست مغرورة بل أنساتة وديعة تعرف قيمة التعاون وخاصة فى الحياة الزوجية.

-

- **بعد شهرين من الدراسة وقع العدوان الثلاثى على بورسعيد وتعطلت الدراسة عدة أسابيع بعدها عدنا إلى الدراسة، وأخذت أرتب أحوالى بعد أن وجدت حجرة صغيرة لاتزيد عن مترين فى متر ونصف فى شقة يسكنها ثلاثة أشقاء من سمالوط وتقع بميدان الروضة بالمنيل، وفرحت بها لأنها قريبة من الجامعة ولن أحتاج لركوب المواصلات. كان كبير الأشقاء الثلاثة يعمل فى البريد أما أخوته فيدرسون فى كلية الزراعة، وقد ارتحت لهم فى البداية وخصوصا وأنهم كانو يجيدون الطبخ وتدبير الأمورالمنزلية وأنا أشاركهم وأدفع لهم مايقرروه دون سؤال. لكن كانت هناك تناقضات ناتجة عن تربية كل منا والبيئة التى عاش فيها فضلا عن أختلاف الدراسة بين طالب يدرس الأدب وينشغل بأمور الثقافة والسياسة وطلبة تنحصر دراستهم فى النباتات والمحاصيل الزراعية والحشرات ولا يتسع عقلهم لأى نقاش أو حتى للنكته، فكان بعضهم يستظرف أحيانا بكلمة سخرية أو بنكتة فيضحكون لكن المصيبة إذا رددت عليه أو سخرت منه بكلمة فأقابل بثورة صبيانية تدل على تفاهة عقولهم.**

-

- **المهم بعد عدة شهور تركتهم وسكنت مع نسيم ابراهيم زميلى فى قسم اللغة الإنجليزية وظلت زمالتنا طول أيام الدراسة وتحولت ألى صداقة حميمة دامت حتى توفاه الله بعد عملية لأزالة سرطان فى المخ بمستشفى معهد ناصر فى 2 أكتوبر 1994، ومازلت أبكيه وأحزن عليه كلما جاءت ذكراه. وقد استمرت علاقتنا أنا وزوجتى مع زوجته وأولاده سنوات حتى تفرقنا بين أمريكا وكندا وبين البلاد العربية حسب أرتباطات الأولاد بأعمالهم.**
- **تعرفت على نسيم صدفة على بوفيه كلية الأداب. قال إنه طلب قيده فى قسم انجليزى لكن الأستاذ راضى موظف شئون الطلبة رفض وقيده فى قسم أجتماع وهو محتار ماذا يفعل، قلت له حلها بسيط. تكتب طلب وتقدمه للدكتور رشاد رشدى وهو سيرحب بك**

-

- **وفعلا تم ذلك وقيد اسمه فى قسم اللغة الإنجليزية وسرنا فى الدراسة معا. كانت الحياة فى هذا القسم شاقة وممتعة. فهذا القسم يجمع طلبة وطالبات من المدارس الإنجليزية والأمريكية ممن يتحدثون اللغة بطلاقة مما جعل الفجوة بيننا وبينهم واسعة إلى حد ما. لكنهم كانوا يتميزون بروح المودة والزمالة مما يقرب المسافة بيننا ويساعد على التعاون وتبادل المذ كرات معهم. كانوا يتميزون بالقدرة على ملاحقة الأستاذ ونقل كل ما يقوله فى المحاضرة وكنا نكافح بشدة حتى نقترب من هذه المستويات، ونشارك فى الحديث والمناقشات مع المدرسين والمدرسات فى المدرجات الصغيرة التى تضم عددا قليلا من الطلبة والطالبات وتتاح الفرصة لأمثالنا للحديث أو طرح الأسئلة وتبادل الأراء بيننا وبينهم،**

-

- **والحقيقة أننى شعرت فى الشهور الأولى بأننى قادر على مواصلة الدراسة فى هذا القسم وقادرعلى التفوق مثلهم. ففى ذات مرة طرحت إحدى المدرسات موضوع معين وطلبت أن يكتب كل منا مقالا عن هذا الموضوع ويسلمه فى أخر المحاضرة. وكتبت حوالى عشرين سطرا وفى الأسبوع ألتالى أعلنت الأستاذة الدرجات وأعلنت أننى حصلت على 18 درجة من عشرين أى درجة ممتاز وهو أعلى درجة فى الأوراق كلها مما لفت أنظار الزميلات بصفة خاصة وكان أكثرهن من مدارس أجنبية، فأخذن يسألننى عن المدرسة التى تعلمت فيها وكانت دهشتهن كبيرة عندما أخبرتهن أنها مدرسة سمالوط الثانوية وهى مدرسة حكومية. كانت هذه فرصة عظيمة أشعرتنى بالثقة فى**

قدراتى منذالشهر الأول، وقربت كثيرا من الزميلات اللاتى كن يتعجبن من لهجتى الصعيدية.

-

- لكننى فى الشهور الأخيرة من ذلك العام فوجئت بالمغص الكلوى مرة أو مرتين كل أسبوع وأخذت أعود الى حقن المسكنات وحين تعبت لجأت ألى مستشفى الطلبة التابع للجامعة. وكان وقتها نموذجا فى النظافة والخدمة الطبية الممتازة تحت إدارة أستاذ عظيم هو:

الدكتور جليل البندارى -

كان هذا الرجل يمثل عبقرية إدارية عظيمة جعلت من هذا المستشفى مزارا لكبار الزائرين لمصر فى تلك السنوات. لقد لجأت لهذا المستشفى وأظهرت كشوف الأشعة أننى مصاب بحصوات فى الحوالب وأننى أحتاج لعملية لم يحدد موعدها بعد. فأكملت الدراسة فى ذلك العام وأديت الأمتحان وظهرت النتيجة ونقلت للسنة الثانية بمادتين. لذلك قررت أن أسعى وراء العملية حتى أتخلص من ألام المغص التى تبدد فرصى فى التفوق وفى الحياة عموما.

وعدت لقضاء الإجازة الصيفية مع أهلى فى العوايسة، وهناك حكيت للشيخ محمد حسن العوايسى ظروفى الصحية وحاجتى إلى جراحة حتى أتخلص من أسباب المغص المتكرر، فاتصل تليفونيا بمراد بك الشريعى ليعطينى توصية للدكتور لطفى عبد السميع الذى قرر لى العملية، وقال إن مراد بك موجود الآن فى أبعدية الشريعى على بعد مسافة كيلو مترين من قريتنا. وذهبت فى صحبة ناشد، وأحسن الرجل أستقبالنا وأعطانى كارت توصية للدكتورلطفى عبد السميع الأستاذ بكلية الطب للتعجبل بإجراء العملية لى فى مستشفى لطلبة. وحملت التوصية لهذا الأستاذ الكبير وسرعان ما تحدد لى موعد فى بداية العام الدراسى الثانى، وقام بأجراء العملية الدكتور محمد صفوت وكان من أشهر أسانذة المسالك البولية فى ذلك الوقت. لكن يعد شهرين أظهرت الأشعة وجود حصوة أخرى فى أحد الحوالب، وتحددت لى عملية ثانية أجريت فى العام الدراسى التالى وأنا فى السنة الثالثة. لكن استمرار المغص جعلنى زبون دائم بهذا المستشفى العظيم االذى قدم لى أكبر خدمة فى حياتى حتى بعد أن تخرجت حيث أجريت لى عملية ثالثة كانت مقيدة اثناء الدراسة بالسنة الرابعة. لكن حرصى على أن أنهى الدراسة بأى شكل وأحصل على الليسانس اضطرنى إلى تأجيل العملية حتى أكمل الامتحان. وهذا ما حدث ولكن صحبتى للمغص الكلوى لم تنته بعد. لقد سألنى أحد الزملاء ذات مرة لماذا أبدو شاحبا وحزينا، فقلت له:

- " لا تتعجب. فأنا احارب أعداء الأنسانية الثلاثة وحدى، الفقر والجهل والمرض واحاول الإنتصار عليهم "

- **فضحك ودعا لى بالصير والسلوان.**
-
- **وانتهى الفصل الدراسى الأول، وعدت لأقضى أجازة نصف السنة فى قريتى الصغيرة، هناك على شاطىء النيل وشمس الشتاء الدافئة الحنونة وعلى رمال الشاطىء حيث يحلولى تأمل الذكريات أخذت أقلب فى دفاترى. كانت حياتى صفحة بيضاء تخلو من الخطوط والألوان، فلم يسبق لى أن دخلت فى علاقات عاطفية قبل الآن وها أنا فى الجامعة فى جو المدينة الكبيرة حيث تتسع مساحة الحرية وتتوفر فرصة الاختلاط بالجنس الآخر ويبدو كل شىء بل الحياة كلها فى هذا المجتمع الجديد طبيعية. لكننى عائد وليس فى نفسى إلا أصداء لكلمات رقيقة ترن فى أذنى وفى قلبى الخالى. وأشعر أننى فى حاجة إلى هذه العلاقة وأتمنى لها أن تنمو وتثمر الحب الذى يكسر كل الحواجز بين البشر، هذا الشعور جعلنى أستبطىء مرور الأيام وأتلهف على العودة للجامعة.**
- **بدأ الفصل الدراسى التانى وبدأت معه متاعب جديدة فعاودنى المرض، كان يعترينى من أسبوع ألى آخر فى شكل مغص كلوى شديد الألم، عاد يكدر حياتى ويعطلنى، وبدات تفوتنى بعض المحاضرات، واضطر إلى أن أستعيركشاكيل زملائى لأنقل منها ما فاتنى. ولكننى وجدت فيها كثيرا من الأخطاء والفجوات، فضلاعن عدم التنظيم. لم أكن مهملا فى حياتى ولم أتعود التهاون فى الترتيب والتنظيم قبل ذلك، لم أكن كسولا ولا غبيا وكنت دائم التفوق فى سنوات دراستى حتى الثانوية العامة أخذتها نظام الثلاث سنوات وحصلت على مجموع عالى أهلنى لدخول أى كلية. والآن أتعرض لأزمات صحية تعطل مسيرتى العلمية فكيف أواجه هذا الموقف.**

كان حبى للمعرفة يدفعنى دائما للبحث والتحصيل وكنت أتمتع بقدرة فائقة على الحفظ تتجلى فى إلقائى لقصائد طويلة من الشعر القديم والحديث، وكنت أتصورأن، مجيئى للجامعة سوف يمنحنى أكبر فرصة لدخول مكتبة الجامعة وقراءة الكتب التى كنت أعجز عن شرائها لكننى أتعرض الآن لهجمات المغص اللعين وأضطرأن أذهب ألى مستشفى الجامعة مرة أومرتين كل أسيوع وتضيع منى الليالى فى صحبة الألم الذى لا يعطينى أى فرصة للجلوس معتدلاعلى كتاب. كم حز فى نفسى الألم وبكيت حزنا على ضياع الوقت وضياع فرصة التفوق التى كنت أحلم بها. فما ذنبى أنا الآن. الأمر خارج عن إرادتى ولا يعيبنى ان، أستعين بزملائى أو زميلاتى خصوصا بعد

أن أحسوا بمشكلتى التى لم أذكرها لأحد لكن لابد من إنقاذ مايمكن أنقاذه. فلماذا لا أطلب منها الكشكول الذى اريده.

إنها مجتهدة وذكية ولابد ان تكون كتابتها خالية من الألخطاء. وفى اليوم التالى وقفت بعد نهاية المحاضرة الأولى فى الممر الذى يتوسط القسم وكان بينى وبينها خطوات وترددت قليلا قبل ان أطلب منها كشكول التاريخ، وهى المادة التى كان يدرسها لنا الدكتورعزالدين فريد باالإنجليزية وكانت تتناول التاريخ الإنجليزى، وهذه الدراسة كانت تقدم لنا الخلفية الضرورية التى تساعدنا فى فهم الأدب الانجليزى. المهم اننى ترددت قليلا وأخيرا تشجعت ونطقت الكلمات: تسمحى تعطينى كشكول التاريخ أنقل منه محاضرة فاتتنى؟ فإلتفتت إلي وكأنها لاتصدق أن هذا الخجول يكلمها وقالت أنا؟! فابتسمت قائلا: نعم أنت. فمدت يدها الى حقيبتها وأخرجت الكشكول سريعا وكأنها كانت تنتظر هذه الفرصة لكى يجرى الحديث بيننا ومدت يدها بالكشكول وقالت إنقل منه أى محاضرة على مهلك ورجعه بعد يوم أويومين مش مهم.

- **أخذت منها الكشكول وأنا ابتسم وأقول: شكرا ياسلوى لقد انقذتينى. وابتهجت بهذا الكلام وعلى وجهها إيتسامة عريضة وهى تقول لاشكرعلى واجب بس اطلب اى حلجة تانية وأنا مستعدة. وفى اليوم التالى رحت أقدمه لها فتظرت إليه دون أن تمد يدعا وهى تقول: بسرعة كده؟ وكتبت كل المحاضرات اللى فاتك؟ خليه عندك لما تكمل. ورددت عليها شكرا شكرا جزيلا. لقد سهرت معه الليل بطوله. كنت مندهشا لهذا الترتيب والنظام. كما أن جمال الخط ووضوحه ساعدنى فى عملية النقل. بل إن إعجابى بخطك جعلنى أحاول تقليده.**
- **وليس لدى كلمات تكفى للتعبيرعن شكرى وامتنانى لك لأننى كنت فى ورطة بعد أن اطلعت على كشاكيل بعض الزملاء ووجدت فيها متاهة، قلة الترتيب والتنظيم مع خطوط زى خرابيش القطط والآن اطمأن قلبى. إننى سوف أعتمد عليك فى حالة تغيبى بسبب المرض. ظهرعليها التأثر واحمر وجهها حياء. وهكذا أخذت ألجأ إليها كلما أحتجت إلى ذلك وهى تسرع فى تلبية طلبى وتشجعنى، وأيضا تتتبادل الحديث معى حتى عرفت الكثيرعن مشاكلى الصحية وأعربت عن إعجابها بصلابتى وقدرتى على تحدى المرض طيلة السنوات السابقة وحصولى على التفوق فى الثانوية العامة ودخول هذا القسم وهو نوع آخر من التحدى.**

- وذات مرة رآها زميلى نسيم ابراهيم وأنا أرد لها أحد الكشاكيل فاقترب منى وجلس إلى جوارى وكانت صداقتنا ناشئة فأخذ يداعبنى ويقول: إيه الانسجام العظيم ده يا أبو مجلى؟ يظهرإنك معجب بسلوى لدرجة التفاعل معها؟ وضحكت ضحكة حقيقية وقلت: دى إنسانة فى غاية النبل وإلا حساس.. وسخرنسيم ابراهيم منى قائلا: يا حلاوتك ماهو باين على شكلها، وكان يقصد أنها ليست جميلة. وقطعت عليه الحدديث وقلت". وده مش موضوع نناقشه الآن." ثم التفت نسيم ابراهيم نحوها ورأى فى يدها كتابا عن مسرحيات موليير وأشار أنه يريد أن يستعيره منها. فنظرت إليه فى سخرية لاذعة وقلت له هذه الكتب لايمسها إلا الذين يقدرون قيمة ماتحويه، أما أنت فابحث لك عن كتاب آخر يناسب تفكيرك يكون غلافه ملون وشكله جميل زى مجلات ميكى مثلا.
- " معلهش يا ابومجلى يا فهامة. أنا عارف إنك تفهم فيما وراء الطبيعة وفى لغة الأرواح والمعانى والأحاسيس الجوانية وكل ما يوحى بالحب لكن المهم أن تحضر لنا هذا الكتاب وبعد كده مع السلامة.
- - المهم إنك تلعب فى غيرها لأن ده مش مجالك.

وهنا دخل الأستاذ وساد الصمت حتى نهاية المحاضرة. خرجنا من المدرج وعين نسيم مازالت تنتقل بينى وبين سلوى وهو يهمس ببضعة كلمات انت دائما تعمل مهم. معلهش بس تجيب الكتاب ده نشوفه.

مرت الأيام بعد ذلك فى هدوء لايعكر صفوه شىء. كان كلما رحت أتحدث إليها كان هو يبتعد عنا، وكنت أتخذ ذلك مادة للسخرية والتندرعليه أحيانا وليس فى كل وقت. وكان هو يبررهذا التصرف بأنه شىء توجبه الزمالة، وهو كصديق مخلص أو يامل أن يكون كذلك يجب عليه ان يحترم مشاعراصد قائه فى هذه المناسبات ويترك لنا الفرصة حتى يتيح لعلاقتنا فرصة أكبر للنمو. وهنا طرأت على خاطرى فكرة ربما تجنبنا الحرج، فحتى تسلم سلوى من غيرة زميلتها التي تقف معنا أيضا فلابد أن اجد لهذه الزميلة من يشغلها. ولم يكن أمامى من هو أجدر من زميلى نسيم ابراهيم الذى أصبحت أءمن جانبه. وأخذت أعرض عليه هذا وأشجعه على الوقوف إلى جانبنا حين أتحدث إلى سلوى لكى أهيء له فرصة التعارف مع زميلتها انطوانيت. ورغم أن زميلى كان يرغب فى هذا التعارف وكان يبيت النية أن يتقدم إليها إلا أن سلوكه ظل كماهو، ففى كل مرة ينوى أن يتقرب منها ويتحدث معها تخونه شجاعته فى حين ازدادت الألفة بينى وبين سلوى.

ظهرت نتيجة امتحان السنة الأولى ونقلنا ألى السنة الثانية. مرت ألأجازة الصيفية ثقيلة متباطئة لم تخلو أيامها من تنفيص المغص. كل ذلك في انتظاردورى في العملية حتى بدأ العام الدراسى الجديد، وفي الكلية قابلت نسيم إبراهيم والتقينا بسلوى وزميلتها وسألتنى عن النتيجة فطمأ نتها .لم تكن الدراسة قد بدأت بعد في القسم فذهبت الى مستشقى الطلبة اسستقسر عن موعد المملية فعلمت أن دخولى قد تقرر بعد أسبوع. فشعرت براحة كبيرة ونشوة غامرة، أخيرا أخيرأ سوف أتخلص من أسباب الألم والمغص واخذت أدندن بأغنية وأضحك على نفسى مما لفت نظر زميلى نسيم إبراهيم فسألنى: ميسوط وفرحان قوى كده بالعملية؟

فعلا، ومنذ الذى يرى نهاية ألامه ولايفرح؟ أو يلمح بداية الشفاء ولا يسر؟ لقد عانيت الأمرين من هذا المرض على مدى ست سنوات. كان المغص الكلوى يداهمنى مرة أو مرتين كل أسبوع،

وكنت أقضى معظم أيامى همدان وتعبان من تاثير المسكنات من حقن وبرشام دون طائل، سنوات طويلة عشت فيها ضعيفا هزيلا يقتلنى الاحساس بالعجز والآن أفرح لأنى أرى نهاية هذا الضعف وهذا العجز.

قال: إنك حققت فى هذه السنوات مالم يقدرعليه كثير من الأصحاء وهذا يؤكده مجموعك فى الثاوية العامة ودخولك الجامعة، فكيف تعتبر نفسك عاجزا؟

- **كنت أحس أننى أهلا لنجاح أكبر، وبالرغم من ذلك فإننى وقفت عاجزا أمام أمور كثيرة كانت تتوق لها نفسى. وكان المرض يعجزنى عن إتيانها.**

لكن العملية ليست سهلة ألا تخاف منها؟

- وأخاف من إيه؟ من الموت؟ إننى أموت كل يوم، والعملية لاتعنى الموت، فالموت يحدث فى كل الظروف وأنا لا أفكر فى الموت ولا أكره الحياه. كل ما يهمنى هوأن أكون قادرا على خدمة نفسى وأعيش فى حالة عادية مثل كثيرمن الأصحاء.

وفى اليوم المحدد كنت فى مستشفى الطلبة بميدان الجيزة أرتدى بيجامة من الدورمكتوب على صدرها في الجانب الأيسر

" مستشفى جامعة القاهرة " وقد ظن بعض الأصدقاء أن العملية سوف تتم يوم دخولى فحضروا معى نسيم إبراهيم وفرج يعقوب ونازوز بسطا وقضوا اليوم كله في غرفة الاستقبال حتى تأكد لهم أن ذلك لن يتم قبل إجراء الفحوصات والتحاليل وكشوفات الأشعة وخلافه وهى إجراءات ضرورية قد تستغرق عدة أيام.

أخذت الأيام تمر دون أن تخلو من التفكير فى المصيرالمجهول. الحياة والموت والمستقبل وألم الغربة، والفقرالذى يعجز أخوتى عن الحضور والوقوف إلى جانبي في هذه اللحظات المصيرية. ورغم إيمانى الشديد بالله فقد مرت بى لحظات سوداء غمرتنى فيها أفكارأشد سوادا كنت أصل فيها إلى درجة الكفر والإلحاد. كنت أقارن بين سلوكى وسلوك بعض أندادى ممن منحهم الله الصحة والمال واوتو القدرة على الفساد والإفساد. وهنا أحس قسوة التجربة، التي وضعتنى فيها الأقدار وما ضاع على بسبب ذلك من فرص، وأهم من ذلك ضياع المال خلال ست سنوات من الألم بينما أنا في أشد الحاجة إلى كل لحظة منها، وكل مليم أنفقته على المرض في أثنائها. كان هذا الشعورطبيعيا بالنسبة لشاب فقيرمثلى من أبناء الطبقة الكادحة حينما يدركون أنفسهم ويدركون ظروفهم وخاصة الطموحين منهم، هؤلاء الذين تتسع أفاقهم في حين تضيق ذات اليد عن تحقيق أمالهم، فيحاولون تفادى العقبات وتخطى الحواجز بالكد المضنى والسعى المتواصل ثم يرون الحظ السيء وهو يلاحقهم بشتى الصور، فينفد المال ويلتهمهم المرض فيحول نجاحهم إلى فشل وانتصارهم إلى هزيمة فيحسون القسوة والمرارة التى تبلغ ذروتها في لحظات التفكير الصامتة فينكرون حكمة الأقداروعدالة السماء. وقد عبرت عن هذا الإ حساس بهذه القصيدة التي تقول:

ربى وجدت مارقا هل لى لحبك أن أعود؟
مسنشقا زهر الربى متضوعا سحر الخلود
ربى جوارك منيتى هلا سمحت أن أعود؟
أبى وأمى أورثانى الذنب إن الإُثم موروث أكيد
وخطيئة أفنيت عمرى عندها وبلا حدود
حينا أميل إلى اليمين وتارة عند اليسار ولا أحيد
فخطيئتى ثقلت وشلت قدرتى فغدوت من ربع الحياة
طريد
و ينام قلبى لكن عقلى ساهر يطحن خطايا الأمس
ويروم المزيد
ويصور الفحش لقلبى أنه كشف لدنيانا وللعلم الجديد
وتثور نفسى وتقشعر مشاعرى بئس إكتشاف رد
أصلى إلآ القرود

وكم من مرة عدت إلى نفسى لكى ألومها على هذا التفكيروألتمس لها الأعذار من حولى وهى بلا شك كثيرة. فمن يرى بلاوى الناس تهون عليه بلوته. طافت بى

هذه الأفكار السوداْء مرات عديدة وكل مرة كنت انتصر فيهاعلى نفسى فأقنعها بعدالة السماء، ومن ثم سلمت من العقد ومركبات النقص فلم انقم على الحياة ولم أكرهها ولم احسد الأصحاء ولا الناجحين. فقد كنت ناجحا رغم كل شيء بل كنت أتالم دائما عندما أرى انسانا مجتهدا ومتفانيا في عمله ويلازمه سوء الحظ.

وقد ساعدنى على الخروج من هذه المتاهة القاتمة وجود أصدقاء كثيرون من حولى فلم يمر يوم دون أن أرى صديقا أو أكثر. كنت اشعر معهم بالسعادة والقوة تجرى في كيانى. إذ كنت أحس بمشاركتهم لى في الآمى، ومن ثم كنت امزح معهم طيلة الوقت الذى يقضونه معى حتى أشعرهم بالطمانينة وأننى على ما يرام وماهى إلا أيام فليلة وينتهى كل شيء فى سلام، هذه الروح المعنوية العالية كنت استمدها من التفافهم حولى ومشاركتهم المخلصة لى، ورأيت الإخلاص في اجلى معانيه في زميلى وصديقى نسيم إبراهيم. رأيت التفانى والتضحية في أكمل صورة، وكثيرا ما ساءلت نفسى هل لو كنت مكانه هل كنت أفعل مايفعله معى .وزاد ذلك من حبى للحياة والأحياء وجعلنى أتساءل كيف يعيش الناس بلا أصدقاء؟

وكم حسدت نفسى على هذه النعمة! كنت أراها غنية تملك الكثيرمن محبة الناس واهتمامهم. وهذه قوة فعالة لها فعل السحروقوة المال. وهكذا عشت أيامى متفائلا أبدا أرى النور من خلال الظلمة، والقوة في أذيال الضعف. والانتصار في أعقاب الهزيمة. فلم يتمكن اليأس من الوصول ألى نفسى، رغم الصدمات المتوالية. أعود وأقول كان زميلى نسم أبراهيم خير صديق كان يذهب الى الكلية في الصباح ويعودالى سكنه لتناول غذاءه ودون ان يستريح بأتى لزيارتى في الرابعة بعد الظهر وهوموعد الزيارة الرسمى. وكان ذلك يوميا بدون استثناء وفى يوم الجمعة كان يزورنى مرتين صباحا ومساء في مواعيد الزيارة.

وكان يطلعنى يوما بيوم على سير الدراسة وعلى المحاضرات فلم أشعر أننى انقطعت عن الكلية يوما واحدا إلى جانب ذلك كان يعمل أي شيء يرى أنه يدخل السرورإلى نفسى. وفى يوم جاء لزيارتى ورآنى ارتدى قميصا قصيرا مفتوحا من الخلف استعدادا للدخول إلى العملية، واستقبلته بالتنكيت والضحك ورغم ذلك فقد شحب وجهه وانقبض وبدأ التأزم يظهر على وجهه واضحا حتى كادت الدموع تفر من عينيه. وهنا سمعت صوته المخنوق يقول لى " لازم تصلى قبل العملية" وأجبت سوف أفعل وعليك أن تطمئن فالأمرأبسط مما تتصور، وسوف تأتى غدا لترانى في أحسن حال، ورد قائلا

سوف أذكرك الليلة فى صلاتى وادعولك بالسلامة. وودعته بالضحك والهزار حتى يطمئن على حالتى المعنوية. ولم تتم العملية الجراحية في تلك الليلة وبدلا منها أجريت لى عملية منظار لتوسيع الحوالب حتى يسهل أخراج الحصاوى دون جراحة. وفشلت هذه المحاولة.

وحدث ان أصابنى صداع حاد من جراء جقنة البنج الموضعى. وأصبح من الصعب على الوقوف أو مغادرة السريروتحريك رقبتى بل كنت أحس ان عينى الشمال مزرورة ولا أستطيع أن أفتحها كاملة . كنت احس بصداع شديد ودوار يكاد يلقى بى على الأرض وقد وقعت فعلا إلا أن الريس سيد أنقذنى قبل أن أسقط على الأرض وحملنى على يديه حتى أجلسنى على السرير، فكم أنا مدين لهذا الرجل اليقظ الأمين رئيس التمريض في المستشفى؟ ومن ثم استسلمت للرقاد كارها لأكثر من عشرة أيام.

وكان نسيم ابراهيم يزورنى كل يوم في نفس الميعاد. وفى يوم دخل على وهو يبتسم فقلت " أهلا وسهلا. باين عليك مبسوط النهاردة؟ " فنظر إلى والإبتسامة تتسع على وجهه وأخذ يهز رأسه ويقول " تعرف أنا مبسوط ليه؟، لأنى أحمل لك أخبارا سارة " قلت له أخبار إيه كلمنى." ورد على البنت إياها وسكت وكأنه يختبرنى، فقلت أي بنت؟ فبدأ يفصح " لقد تأكد لى اليوم أنها تحبك وتحمل لك تقديرا كبيرا. لقد قابلتها اليوم صدفة وهى خارجة من باب القسم فقلت لها نسيم مريض في المستشفى ويطلب منك كشكول الدراما لأنه لايثق إلا في كتاباتك." لم تكد تسمع كلمة مريض حتى دبت على صدرها وتغير لون وجهها، وكأن شيئا صدمها، ثم بدأت تتساءل عن مرضك والكلمات تتعثر في فمها. وشعرت بخطورة الموقف فأخذت أطمانها عليك حتى أفهمتها الموضوع فدعت لك بالشفاء وعرضت أن تقوم هي بنقل المحاضرات لك بنفسها وقالت " لاداعى أن يجهد هو نفسه في الكتابة وأنا مستعدة أن اكتب له كل المحاضرات حتى يتم له الشفاْء." لكنى عرفتها بأننى سأكتب لك المحاضرات ولن أتركك تتعب فيها. فألحت على " لاداعى إن وقتك لايتسع لذلك أما أنا فعندى متسعا من الوقت " ورفضت أنا مرة أخرى ولما رأت اصرارى على ذلك وعدتنى باحضار الكشكول وأى كشكول تريده." سررت بهذا الكلام وأعربت عن شكرى وتقديرى لهذه المشاعرالنبيلة. ثم بدأت أمزح مع صديقى نسيم فقلت " وهل أنا دعوتك إلى هذ؟" فقال " ولكننى تطوعت لأنى أعرف أن ذلك يسرك، وقد رأيتها أمامى

فجأة فاندفعت نحوها دون تفكير وحدث ما قلته لك" فشكرته على محبته وعلى جهوده الكثيرة من أجلى ورجوته ان يبلغها شكرى وتقديرى.

في اليوم الثانى أقبل على وفى يده الكشكول المطلوب وقال، خذ هذا ومعه أجمل الأمنيات. أمسكت بالكشكول فقرأت إسمها وابتسمت ثم سألته "هل معك أخبارجديدة؟"
قال: ليست جديدة على أي حال ولكنها أخبار سارة، فقد سمعت زميلتها أنطوانيت أخبار مرضك فراحت ترفع يدها وتدعو لك بالشفاء العاجل.
فشعرت بالخجل فكم أنا مدين لهما بالشكر والإمتنان. إن مشاعرهما الرقيقة تفرض على الإنسان ان يحبهما ويعتز بصداقتهما.
قال نسيم "في الواقع إنها أخلاق كريمة، لكن انطوانيت تبدوأكثر رقة ولطفا من سلوى لأنها تنطلق ببساطة في التعبيرعما تحس به، كما يبدو التأثر على وجهها واضحا اما سلوى فلا تخلو من مكر. فهى تتحفظ وتحاول في بعض الأحيان أن تخفى تأثرها فعندما رفعت أنطوانيت يدها وقالت يارب إشفه بدون جراحة لم تزد ألأخرى على أن قالت" يارب."
فقلت كتر خيرهم، هذه مشاعر تستحق التقدير فليس لنا فضل على أحد، وانا مدين لك ولهما بالفضل الكبير، فقد أشعرتمونى أننى لست وحدى ولست معزولا عن الناس. فبلغهما تحياتى وسلامى وشكرى. وانتهى وقت الزيارة فغادرنى وتركنى أنعم بهذه المشاعر الجميلة الذى وفرها الخالق لمساندتى في هذه المحنة الكبيرة. وهل هناك أفسى من محنة الفقروالمرض؟!

مضت الأيام على هذه الحال حتى تمت الجراحة وتم إخراج خمسة عشر حصوة من الحالبين، ونسيم يزورنى يوميا ويحضر لى كل ما أحتاج إليه ويطلعنى على سير الدراسة أولا بأول، ومن حين لآخر يحمل لى بعض الأخبار السارة والأمنيات الطيبة من سلوى وزميلتها أنطوانيت مما ضاعف من تقديرى لهاتين الزميلتين وإعجابى بسلوى، لأنها بادرت وانفردت بارسال كل الكشاكيل التي أحتاجها ولولاها لضاعت على نتيجة فصل كامل من الدراسة. لقد احتاجت حالتى الصحية البقاء حوالى أربعين يوما في المستشفى وحوالى إسبوعين للأستجمام في بلدى بجوار أهلى.
عدت للدراسة بعد هذه المدة لأستأنف المذاكرة مع نسيم حيث كنا نسكن معا من بداية الفصل الثانى في السنة الماضية، أما تعارفنا على بعض فقد حدث من الأسبوع الأول للدراسة، وأصبحنا نشكل ثنائى صعيدى بحراوى فأنا قادم من سمالوط محافظة المنيا وهو من إمليط مركز إيتاى البارود.

وذات ليلة أخبرنى أن القسم ينوى الفيام برحلة للحوامدية على ظهر إحدى البواخر النيلية فوجدتها فرصة للترفيه بعد هذه الأوقات الصعبة التي مرت على فاتفقت معه على الإشتراك فيها، وعند لقائنا بسلوى وزميلتها هنأونى بالشفاء ودعوتهما لمشاركتنا في الرحلة ورحبت انطوانيت بالفكرة لكن سلوى أعتذرت لضيق الوقت فعادت الأخرى واعتذرت أيضا ووعدتنا سلوى بقبول مثل هذه الدعوة في فرصة أخرى.

في اليوم التالى وصلنا تلغراف من والد زميلى نسيم يخبره بأن خاله موريس صدمته سيارة وتوفى فانقجر نسيم في سيئة جدا، بل حالة انهيار لأن خاله هذا رغم صغر سنه كان هو صديقه الحميم الذى يصحبه ذهابا وإيابا إلى المدرسة كل يوم، وحاولت أنا وزميلى عبدالله عبادة الذى كنت أشاركه السكن. حاولنا أن نخفف عنه الصدمة وحالة الحزن التي كانت تسيطرعليه ونشجعه على ان يتماسك ويستعد معنا للامتحان الذى اقتربت أيامه. تعبنا معه أياما ولكنه كان مستسلما ويرى أنه لافائدة من أي شيء فالحياة عبث. وأخذ يركن إلى النوم أغلب الأوقات. فكنت اقترب منه وأقرأ له دروس اللغة اللا تينية. فقد كنت أحب هذه المادة وأحصل فيها على درجة عالية وكان يرفض هذه المادة ويريد أن يهملها. المهم اننى نجحت شيئا فشيئا في تحريكه للاهتمام بالمذاكرة لأن الإمتحان اقتربت أيامه والنواح على الميت لن يفيده شيئا. وقد شجعته للبقاء معى حتى نهاية الأمتحان وكان عبدالله كريما ورحب بهذه الفكرة وكانت النتيجة مفرحة لنا جميعا.

والواقع أن عبد الله عبادة كان يتمتع بأخلاق راقية وروح إنسانية عالية مرحة ومحبة. وقد دعانى عبدا لله للسكن معه فتركت سكنى بميدان الروضة واستجبت لدعوته لأننى كنت انا وعبد الله عبادة زميلين بمدرسة سمالوط الثانوية وكنا فى فصل واحد وكنا نعرف بعضنا على مدى سنوات الدراسة، كانت علاقتنا علاقة أصدقاء فاستجبت لدعوته حين عرفت أنه يعيش وحده أيضا. كانت الشقة عبارة عن حجرتين وصالة وحمام وكانت بالدور الثالث في عمارة جديدة طويلة ونحيفة تقف كالبرج على شاطئء الجيزة.

انتقلنا الى السنة الثالثة لنبدا عاما مليئا بالمغامرات والمفاجآت والنشاط أيضا. إذ بدأنا محاولة ترجمة مسرحية AlL For Love لجون دريدن تحت اشراف الدكتور شوقى السكرى الذى كان يجلس معنا مرات كثيرة وللأسف لم تتم الترجمة. كذلك انشغلنا في مشاركة الدكتور شوقى في

إدارة ندوة " ناجى" الأدبية التي تقام في ميدان الدقى في بيت الأستاذ محمد ناجى تكريما لذكرى أخيه الشاعر الراحل الدكتور إبراهيم ناجى، والتي كان يرأسها الدكتور شوقى. وقد سعدنا بدعوة كثيرين من الشعراء والكتاب البارزين في ذلك الوقت. وفى تلك الأيام حدث أن اشتريت مجلة روز اليوسف فوجدت فيها دعوة عامة لزيارة معرض كاريكاتيرفنانى المجلة وعرضت الأمرعلى زميلى نسيم إبراهيم فرحب بفكرة الذهاب إلى فندق هيلتون حيث يوجد المعرض والاحتفال الذى تقيمه إدارة المجلة بمناسبة مرور خمسة وثلاثين عاما على صدورها. وكانت ليلة نادرة في حياتنا لم ولن تتكرر، وقد وصفها نسيم إبراهيم في المقال التالى وعنوانه:

عندما دخل الصعيدى هيلتون

كتب نسيم ابراهيم يقول:

اليوم الذى دخلنا فيه فندق هيلتون لمشاهدة معرض رسامى روز ايوسف وكنا قد عقدنا العزم على حضور حفلة الافتتاح. وكانت ليلة امتلإ الفندق فيها بالفنانين والفنانات وبنجوم الأدب والصحافة وفئات أخرى من الشعب. وبين هؤلاء وأولئكك رايت الصعيدى انسانا آخر. لاتبهره الأضواء ولاتأخذه المناظر كأنه زائر معتاد من زوار هيلتون الدائمين بل وكان له رأيه فى الناس والأشياء.

مرعلى رسومات المعرض وأعجب بها وهنأ أصحابها على القيام بهذه الأعمال ثم قدم لهم تعليقانه اللاذعة. قال للدكتور مصطفى محمود إن صورته تشبه فقهاء المصاطب. فضحك الدكتور مصطفى وقال إن العيب على الرسام رجائى.عندئذ نظر الصعيدى إلى الرسام رجائى وقال له " يظهر إنك خريج الأزهر" فضحك أيضا .هكذا قابل الصحفيين وكأنه يعرفهم وعاش معهم لحظات كواحد منهم وهو يحدثهم عن الصحافة وتطلعه إلى العمل بها لما يحسه فى نفسه من موهبة ومقدرة, وعاش مع الفنانين فنانا صافح عبد الحليم حافظ وكمال الطويل وفاتن حمامة وصباح وتحدث معهم وكأنه يعرفهم من قبل حتى استطاع ببراعة أن يجذب صباح ويتحدث معها . ناقشها فى تقديم قصة للسينما. إنه يرى أن صباح هى الوجه الملائم كبطلة لقصته، وانتقلت به صباح إلى المخرج حسن رمزى وراح الثلاثة يناقشون الفكرة جديا ودعاه حسن رمزى لزيارته فى مكتبه. ثم تركهم وعاد يضحك. وحين سألت نسيم عن حقيقة القصة قال " بينى وبينك صباح هى آخر من يصلح لعمل قصتى، وبعدها عاش بأحاسيسه كلها مع الموسيقى حتى آخر السهرة.

نشرزميلى نسيم ابراهيم هذا المقال فى العدد الأول من مجلة "الشعلة "مجلة قسم اللغة الإنجليزية، التى توليناتحريرها معا بعد أن تركها الزملاء الذين تخرجوا وأنقطعت علاقتهم بها. نشر نسيم هذا المقال وكان العدد الأول حافلا بكثير من المقالات والتعليقات المفيدة التى لقيت قبولا وترحيبا وظلت المجلة معلقة على الحائط مدة طويلة، رغم وجود فصة لكاتب شيوعى لا أتذكر إسمه الآن قدمها لنا أحد الزملاء من أصحاب الميول اليسارية وأظنه محمد بسبوس ورأينا فيها صورة لمعاناة العمال الشديدة فى ظل النظام الرأسمالى، ولم يلتفت إليها الأمن مما جعلنا نطمع فى مزيد من الحرية، وقلنا هى مجلة حائط إن رأحت أو جت. ومع ذلك فقد تمت مصادرة العدد الثانى لأسباب غير أمنية.

كان العدد يضم مقالا آخر للزميل نسيم ابراهيم يتهكم فيه على الزميلات الأريستوقراطيات ذوات الأثواب التشابهة والحركات المتشابهة التى تتبدى فى طريقة سيرهن على شكل ثنائيات وثلاثيات لافتة للنظر ومثيرة للسخرية. وقد أثار هذا الكلام غضب البعض منهن فذهبن يرفعن شكوتهن للدكتور عز الدين فريد عميد الكلية وعدن من عنده ينظرن إلينا شزرا ويقلن

THERE MUST BE RESPECT BETWEEN GENTLEMEN AND GENTLE LADIES.

فاعتذرنا لهن وقلنا على العين والراس،

وذهبنا للعميد لنسترد المجلة فوجدنا تهما أخرى فى انتظارنا. فقد سرقت صورة الغلاف وكانت لطالبة بالسنة الأولى تجيد الفروسية وكانت قد تم انتخابها ملكة جمال رأس البر فى الصيف السابق على دخولها الجامعة واسمها جيهان مكاوى التى عملت مذيعة فى التليفزيون بعد تخرجها. وأوحت لها الزميلات المتذمرات منا بأن الصورة لم تسرق وأننى أخذتها لكى أنشرها فى مجلات وصحف قد تسىء لسمعتها وأقوال أخرى مما أدخل الخوف فى نفسها لكن العميد طمأنها من هذه الناحية. وقال لها إن نسيم مجلى لايفعل هذا وهكذا برأنى العميد من التهمة لكنه رفض أن يعيد لنا المجلة وحفظها فى مكتبه. أما المشكلة الثالثة فقد حدثت بالصدفة فأنا لم أكن ميالا للرسم ولم أجيده أبدا. هذه المرة قعدت أشخبظ على ورقة فرسمت طالب ضخم الجثة سقط منه الكتاب على الأرض وهو جالس على كرسى ويده على خده وتحتها كتبت "ياميت ندامة على أللى حب ولا طالشى"

أصابت هذه الكلمات زميلنا على جمال الدين دون قصد منى فحزن وغضب وأخذ يشكو أين الصداقة وأين شهامة الأصدقاء وعرفنا أنه كان يمر بأزمة بعد أن تخلت عنه الحبيبة وكانت هى أيضا إحدى الزميلات بالقسم. هكذا تجمعت الصدف السيئة فى وقت واحد لتضعنا فى موقف لانحسد عليه، وقد تألمنا لما حدث للزميلات والزملاء وقررنا التوقف عن تحرير المجلة.

- قبيل الامتحان بأسبوعين ابتدأت أنظم وقتى وأعيد ترتيب محاضراتى خصوصا تلك التى فاتتنى، واكتشفت فجأة أننى نسيت بعض محاضرات الشعر ووجدت صعوبة فى مراجعة مقررالشعر بسبب ظروفى المرضية ونوبات المغص الكلوى التى كانت تباغتنى بين يوم وآخر، ففاتنى سماع الأستاذ وهو يقرأ هذه القصائد ويشرحها مما يساعدنا على تذوقها والاستمتاع بها، وافتقادى لهذه الفرصة خلق فجوة بينى وبين هذه المادة، لأن الشعر ليس محفوظات نرددها بدون فهم واحساس بل هى موسيقى وصور فنية تخاطب الروح والوجدان. ونتيجة لمعرفتى بهذه الحقيقة وقعت فى الحيرة فماذا افعل؟

تلفت حولى بمن أستعين وتذكرت أن صديقى نسم ابراهيم قد سافر ألى بلدته إمليط بمركز إيتاى البارود بحيرة ولن يعود إلا قبل الآمتحان بيوم أو يومين، تذكرت فى الوقت نفسه محاضرة فى الترجمة يوم الأربعاء فقررت أن أحضرها ربما أجد أحدا يساعدنى، ولحسن الحظ وجدت سلوى حاضرة فقلت لها إننى أعرف أن الدراسة سوف تتوقف لمدة أسبوعين وقد يصعب علينا اللقاء قبل هذا الوقت، فطمأنتنى بأنها سوف تحضر فى الغد محاضرة اللغة العربية وسوف تحضر لى كشكول الشعر.

ولكننا مش جايين الكلية فى الأسبوع المقبل!

فقالت سوف احضر فى الساعة التاسعة يوم الأحد ولا تشيلش هم.

وفت سلوى بوعدها وجاءت ومعها كشكول الشعر، ووجدت أمامى ثلاثة أيام كاملة تكفى لنقل كل المحاضرات الناقصة عندى، ووجدت أيضا فى كشكولها شروحا إضافية ربما نقلتها عن أبيها مفتش أول اللغة الإنجليزية بوزارة التربية والتعليم والذى يقوم بتدريس بعض المحاضرات فى جامعة عين شمس. المهم أننى فرحت بهذا الشرح فرحة لا توصف لأنه أضاء لى بعض المقطوعات الشعرية التي غمض على معناها. وكان هذا شيئا مهما بالنسبة لى لأن لى بعض المحاولات فى كتابة الشعر العربى وأظن أن

دراستى للشعر الإنجليزى سوف تفيدنى فى اكتشاف طريقى وتؤهلنى للنجاح مستقبلا.

وفى صباح الأحد ذهبت إلى الكلية وجلست على البوفيه فى انتظار حضورها لكى أعيد لها الكشكول. وكانت الساعة التاسعة لكن سلوى مرت دون أن ترانى ولم أستطع أن أناديها حتى لا أسبب لها حرجا وانتظرت حتى أفرغ من شرب فنجان القهوة ثم نهضت وأخذت أبحث عنها فى داخل القسم فلم أجدها لكن بعض الزملاء أخبرونى أنها كانت تسأل عنى. أخذتنى الحيرة وأخذت أسأل نفسى، ربما خرجت من الباب الخلفى دون أن أراها وتعرف أننى حضرت لكى أعيد لها الكشكول. تعبت من السير جيئة وذهابا فى ممرات القسم وممرات الكلية فعدت للجلوس على البوفيه ظنا منى أنها ربما تعود لأنه إذا لم تتسلم منى الكشكول اليوم فلن أجد فرصة أخرى للقائها قبل الإمتحان. أجهدنى التفكير فى الأمر، ماذا تقول عنى؟ وما ذنبى فى هذا المأزق؟ لقد تعودت الصدق واحترام مواعيدى مع الناس جميعا، وهذه الزميلة التى ترفقت بى وقدمت لى العون فى أحرج الأوقات، ماذا تقول الآن عنى الآن؟ كيف تتآمر على الظروف وتضعنى فى هذا الموقف المخزى؟ هى لايمكنها أن تستغنى عن هذا الكشكول الأن فماذا أفعل لإخرج من هذه الورطة؟

هل أذهب إلى منزلهم وأسلمها الكشكول؟ إننى أعرف المنزل فى شارع المنيل وأعرف البلكونة التى كانت تطل منها فى الدور الثالث، وقد رأيتها مرات عديدة أثناء مرورى أمام العمارة وأنا قادم من ميدان الروضة حيث كنت أسكن فى سنة اولى، وكيف يكون رد فعلها إذا فوجئت بوجودى على باب بيتهم؟ وكيف يكون موقف أبيها أو أمها إذا رأتها تتكلم معى على الباب؟ أنا أعرف إن أباها وأمها بلغا درجة عالية من الثقافة لكن هل يكفى هذا لتغيير الطبع الصعيدى المحافظ؟ هل بلغ إيمانهم بالتمدن والاختلاط أن يسمحوا لإبنتهم أن تستقبل زميلا لها حتى ولو على باب الشقة؟ لكن السؤال الأهم هل أجرؤ انا فعلا على الذهاب إلى منزلها إذا حكمت الضرورة؟

بعد أن سألت نفسى هذا السؤال أحسست بالرهبة والخجل وبدأت شجاعتى تخوننى. فأنا أخشى أن أسىء إليها من حيث لاأقصد. لقد أحسنت إلى ومدت لى يد العون فهل يكون رد الجميل هكذا. دارت فى رأسى هذه الأفكار والهواجس حتى كادت تصرعنى. فكرت فى أن أذهب وأترك الكشكول عند بواب العمارة لتوصيله وسرعان ماتراجعت لأن ذلك سوف يحدث نفس

الأثـر ولـن يجنبهـا الإحـراج، وقـد يضـيع الكشـكول مـن البـواب وتكـون الطامـة الكبـرى التـى لا حـل لهـا. وهنـا شـعرت بالتعـب الشـديد فقـررت أن أجلـس تحـت شجرة حتى أستريح وأسترد أنفاسى المرهقة.

سـندت جنبـى علـى الحشـائش الخضـراء البـاردة التـى بـدأت ترطـب جسـمى وتمـتص حرارتـه ثـم وضـعت رأسـى علـى الأرضـية البـاردة وسـرحت مـع هـذه الأحاسـيس اللذيـذة وأغمضـت عينـى ورحـت فـى غفـوة لا أعـرف مـداها. افقـت بعـدها وأنـا أشـعر بالراحـة والهـدوء وأخـذت أفكـر مـن جديـد واهتـديت ألـى حـل غريـب هـو أن أحضـر إلـى الكليـة يوميـا حتـى أراهـا وأسـلمها الكشـكول وأشـرح لها الأمرحتى لا تسئ الظن بى.

حينئـذ دقـت سـاعة الجامعـة تعلـن الثانيـة والنصـف، فتـذكرت موعـد الطبيـب ولابـد أن أسـرع حتـى لا يفـوتنى الوقـت فأمسـكت بالكشـكول فـى يـدى ونهضـت مـن مكـانى مسـرعا ومشـيت فـى شـارع الجامعـة ثـم انحـدرت إلـى أحـد الِشـوارع ألجانبيـة متجهـا الـى شـارع يـافع بـن زيـد حيـث توجـد العيـادة الخارجيـة. وفـى نهايـة الشـارع لمحـت فتـاة ترتـدى ثوبـا أبـيض تسـير بجـوار رجـل متوسـط الطـول يرتـدى جاكتـة بيضـاء وبنطلونـا رماديـا فأخـذت أحـث الخطـى نحوهمـا. آه لـو تطلـع هـى؟ دخلـت الفتـاة وأبوهـا مـن البـاب الخـارجى للعيـادة وكانـت المسـافة بينـى وبينهمـا مسـافة قصـيرة لاتزيـد عـن عشـرين متـرا. وعنـد دخـولى مـن بـاب العيـادة وجـدتها واقفـة أمـام مكتـب الاسـتقبال فنظـرت إليهـا وابتسـمت وأسـرعت نحوهـا وقـدمت الكشـكول وشـكرتها وأخبرنهـا أننـى كنـت أبحـث عنهـا فـى الكليـة منـذ الصـباح حتـى هـذه اللحظـة فأمسـكت بالكشـكول فـى هـدوء وهـى تبتسـم ابتسامة رقيقة وقالت" معلهش جرى خير."

يالهـا مـن صـدفة عجيبـة أنقـذتنى مـن طوفـان الأفكـار التـى كانـت تتقـاذفنى فشـعرت بالاسـترخاء وأنـدفعت إلـى أقـرب كرسـى وجلسـت عليـه، بعـد أن عـاد إلـى الإطمئنـان خصوصـا حـين تأكـدت أن الطبيـب لـم يصـل بعـد، فقـررت الانتظـار. جلسـت هـى وأبوهـا فـى الصـالون وجـاءت جلسـتهما مواجهـة لفتحـة البـاب الواسـع، فأخـذت أختلس النظـر إليهمـا مـن وقـت إلـى آخـر ورأيـت والـدها يـداعبها فـى رقـة بالغـة وهـى تضـحك فـى دلال فخفـق قلبـى بقـوة وتمنيـت أن أشـاركهما هـذه السـعادة. وهنـا نـودى علـى اسـمى للـدخول الـى الطبيـب الـذى قـرر لى إجراء جراحة لاخراج حصوة موجودة بالحالب.

عـاد نسـم ابـراهيم مـن بلـده وبـدأنا نسـتعد لامتحـان الفصـل الثـانى، فلفتـت نظـره المحاضـرات التـى نقلتهـا مـن كشـكول سـلوى ومـا فيهـا مـن شـروح ضـافية

فانكب عليها يتفحصها بشغف شديد وبشعور غامر بالفرح، كأنه وجد كنزا جعله يشيد ويثنى على هذا الجهد االرائع ويشكرنى على أنى وفرت عليه مجهودا كبيرا كان يحتاجه لفهم هذه الموضوعات. وأثار هذا الكلام انتباه صديقناعبدالله عباده الذى كنت أشاركه السكن وقتها وكان يدرس فى قسم الاجتماع فأخذ هو الآخر يعلق بطريقته الخاصة:

- **لكن إزاى ده يحصل؟ تعطيك الكشكول فى هذا الوقت الحرج وهى مطمئنة، فهل وصلت التضحية لهذه الدرجة؟ شىء غريب ومدهش!**
- **- لكن هذا ما حدث ياعبد الله. هكذا رددت عليه.**
- **وانتهز نسيم ابراهيم الفرصة وقال ساخرا: مش غريب ولا حاجة اصل المحروسة تحفة.**
- **رد عبد الله أنأ لازم أشوفها انا حاسس إن ابو ابراهيم متحامل عليها.**
- **فقلت غدا باذن الله سنراها معا ونترك لك الحكم والرد على هذا الولد المتعجرف فضحك نسيم ابراهيم وقال ربنا يكون فى عونك ياسى عبدالله.**

اطمئن ياعبدالله صاحبنا هذا أفكاره مشوشة ومتطرفه أحيانا وسوف ترى، وضحكت وضحك عبدالله ونسيم وعدنا الى قراءة المحاضرات والاستعداد للإمتحان بعد أيام، والحمدلله قد مر كل شيء بسلام وانصرفنا لقضاء الأجازة الصيفية كل ذهب إلى بلده.

هكذا كان راى نسيم دائما وهو رأى غير ناضج لأنه يحكم على المظهر. وقد عرضه هذا لبعض الصدمات. فقد تقدم لزميلتها انطوانيت لأنها كانت بيضاء الوجه فاعتذرت عن فكرة الزواج، ثم تعلق بزميلة أخرى فاعتذرت أيضا وقبل ان يصل لهذه النهاية اكتشف أنها لعوب ومتعلقة بزميل آخرغيرمسيحى يسكن بالقرب منها ويزورها في سكنها أحيانا، وهى مغتربة وليس معها أحد من العائلة ألا اختها التي تدرس بأحد المعاهد المتوسطة. والمضحك أن نسيم انتهى في النهاية وتزوج بفتاة صعيدية ليست بيضاء وعاش في وفاق وسلام.

-

ظهرت نتيجة الامتحان وفرحت بانتقالنا ألى السنة الرابعة، وانتهزت فرصة الأجازة الصيفية وذهبت ألى مستشفى الطلبة وتمت العملية الثانية في شهر أإسطس 1959.وبعد أسبوعين خرجت من المستشفى. لم يزرنى من الأصدقاء غير قلة من المقيمين بالجيزة او القاهرة. لكنى اسبشرت خيرا بالعملية وتصورت أن الألم قد فارقنى الى الأبد ولكن هيهات. فهى مهلة

قصيرة وسوف يعاودنى في النصف الثانى من السنة الرابعة حيث تقرر لى عملية ثالثة وقد تمت بعد تخرجى سنة 1962 وكنت أعمل مدرسا بمدرسة بيلا الثا نوية بكفر الشيخ. لكن مسلسل العمليات لم يتوقف. فلعملية كان لها توابع وهكذا ومن توابع هذه العملية حصوة صغيرة بقيت في الحالب الأيمن وبعد عدة سنوات سدت الحالب فجأة مما تسبب في فشل الكلى اليمنى وقد تم اسئصالها في مستشفى كليفلاند أثناء زيارة للد كتور أيمن ابنى والذى كان في السنة النهائية للتدريب بهذا المستشفى المشهور.

قبلها أجريت لى عملية قلب مفتوح فى ستشفى قصر العينى الفرنساوى أجراها طبيب نابغة هو الدكتور طارق حلمى ٍسنة 2000. وكان الدكتور ممدوح أبنى يعمل ضمن فريق مساعديه. نفس العملية تمت للمرة الثانية في 2016 بمستشفى فلوريدا بعد أن تجاوزت الثمانين على يد جراح كبيرهو الدكتورهولتس حيث يعمل إبنى أيمن طبيبا للتخدير بالمستشفى. ، وأخيرا أجريت لى عملية بالعمود الفقرى منذ عام على يد جراح نابغة شاب تجاوز الثلاثين بعام واحد هو الدكتور وسام الفلال . واكتفى بهذا من دفتر الآلام والأحزان لأنه طويل والقائمة تضم أكثر من *عشرة عمليات، والشكر موصول للأطباء وللتقدم المستمر في طرق الفحص* والتشخيص والعلاج.

وأخيرا شكرا لله الذى هيأ لى كل هذه الفرص وأطال عمرى حتى هذه الساعة لكى أحكى هذه القصة بما فيها من لحظات فرح وسنوات ألام وأشكره بصفة خاصة أننى مازلت أحتفظ بذاكرة قوية وعقل سليم حتى الآن وأنا أقترب من التسعين. وهذا الكلام أكتبه لكى يقرأه أبنائى وأحفادى الغاليين الذين أحبهم وأفخر بتفوقهم العلمى ومواهبهم الفنية قى الموسيقى وفى الأنشطة الرياضية. لكى يعرفوا كيف عاش جدهم يلاطم أمواج الهموم ويحارب الجهل والفقر والمرض في وقت واحد. وأمامى الان جراحة أخرى بعد أسبوعين من الآن لاستئصال المرارة لأننى كنت ومازلت أؤمن بأن لى رسالة تقوم على أساس أن الكتابة شهادة على العصر والناس وينبغى أن تكون شهادة صادقة لاتبتغى غير رضاء الخالق وحده لاتنافق أصحاب السلطة ولا الأغنياء.

كانت السنة الرابعة أكثر سنوات الدراسة قسوة بالنسبة لى حيث تقلصت المبالغ المرسلة لى من أخوتى بل وتوقفت في الفترة الأخيرة تماما، ووجدت نفسى مضطرا للبحث عن عمل يساعدنى على إعالة نفسى حتى أكمل امتحان الليسانس وأخذت أسال بعض الأساتذة عن مساعدتى بتوصية لمؤسسة او لرجل أعمال يمنحنى قرصة للعمل عنده، وكان من الذين اتجهت إليهم الدكتور مجدى وهبة حفيد يوسف وهبة باشا. وكان معروفا باهتمامه

بالشباب وسمعت أنه ساعد الكثيرين ومكن بعضهم من وظائف في مكتبة القسم وفى أماكن أخرى بالجامعة وبالصدفة وجدته أمامى على بعد خطوات فاتجهت إليه. وكان يعرفنى جيدا بحكم ترددى عليه خلال فترة تحريرنا لمجلة الشعلة بقسم اللغة الإنجليزية. وكان يراجع ماننشره فيها باعتباره المشرف المسئول عن ذلك، وبعد قليل من التردد قلت له أنا محتاج جدا للحصول على عمل الآن وبعد نقاش قصير مد يده في جيبه وأعطانى عشرة جنيهات ووعدنى بالتفكيرفى مسألة العمل.

أنقذنى هذا المبلغ ومكننى من تدبير أمورى حتى أنتهيت من امتحان الليسانس. والواقع أن الإفلاس أضطرنى أنا وزميلى نسيم ابراهيم للتهرب من دفع أجرة الشقة على مدى ثلاثة شهور، وكان صاحب البيت فلاحا طيبا ونبيلا احس بظروفنا فلم يطالبنا بالدفع حتى آخريوم ونحن نسلمه المفتاح بل دعانا لتناول الشاى عنده، لكننا شكرناه على وعد منا بالعودة لدفع التسعة جنيهات المتأخرة، ولكن ذلك لم يحدث. لأن كل واحد منا اشتغل في بلد بعيدة عن القاهرة إضاقة إلى مشاغل الحياة التي كانت تنسينا أشياء كثيرة.

كان نسيم ابراهيم أفضل حالا منى ماديا لأن والده كان على قيد الحياة ويشجعه بفرح ومحبة باعتباره ابنه الأكبر الذى يريد أن يفرح به في حياته. بعكس حالتى أنا فقد مات أبى وعمرى ثلاث سنوات وتحكم في أمورنا أخ أكبرطايش وعنيد أدخلنا في نزاعات مع مغظم أهل القرية مما بدد جهودنا وامكانياتنا المادية المحدودة، ولأنه فشل في التعليم فقد فرض علينا عدم الذهاب للمدرسة وكنا ثماني أفراد أربعة بنات وأربعة أولاد أنا أصغرهم جميعا. نجح في هذا الحصار مع أخوتى حتى جاء الدور على حيث حاول تعطيلى مرات كثيرة ولكنى تمردت ولم استسلم ومن هنا بدأت العداوة فهو ينتهزكل فرصة ليضع أمامى العراقيل جتى حصلت على الليسانس وعينت في بلد بعيدة ولكنه لم يهدأ، رغم أنه كان اول المستفيدين منى ومن عملى، إذ كنت أرسل الجزء الأكبر من راتبى الشهرى لأخى الأصغر منه والذى كان يحمل هموم الأسرة كلها وخصوصا لأن أمى كانت معهم وكانت توصينى خيرا بهذا الأخ الشرير. ورغم أن له ستة أطفال يعيشون في قلب الأسرة ويتمتعون بكل مايصل إلى البيت منى إلا أن كراهيته وحقده على لم يتوقف. وقد اكتشفت في النهاية نتيجة لبعض الشواهد أنه مريض نفسيا ولديه عقدة من نجاحى فى التعليم ويسعى إلى تدمير حياتى.

هوامش:

- **كتبت هذه القصة والكثير من أحداثها التي مضى عليها أكثر من نصف قرن نقلا من مذكرات سجلتها في تلك الأيام واحتفظت بها حتى الآن إضافة إلى ما تحفظه الذاكرة ويضيفه الخيال القصصى للكاتب.**

\

\

بدأت الآمتحانات الشفوية قبل الامتحانات التحريرية بأسبوعين. وأثناء ذلك فوجئت بالشيخ محمد عبد الصمد مأذون البلد، يزورنى ويطلب منى السفر معه الى العوايسة وقال، انتحابات العمدية ستتم بعد أيام ونحن نحتاج لوجودك معنا لأن الناخبين يثقون بك ويحترمونك. فأجلت اتحان إحدى المواد وعدت معه فعلا وكان دافعى الأول أن أحاول ضبط تصرفات نادر خوفا من تهوره حتى تتم الانتخابات فى جو سلام وهدوء ونجنب أنفسنا والقرية كلها شرورالصدامات العنيفة خصوصا وأن التنافس اشتد فى المرحلة الأخيرة، وبدأت تخرج محاولات التهديد من هنا وهناك .

وقد بذلت جهدى على مدى يومين كاملين فى زيارة أهلنا ودعوتهم لانتخاب الحاج عبد الصمد والد المأذون. كان هو المرشح المنافس لفوزى أفندى العوايسى أخو العمدة الذى توفى منذ سنتتين تقريبا. ورغم أن الحاج عبد الصمد كان قد أشرف على السبعين إلا أن النعرة العصبية حركت العائلة كلها وعلى رأسها الشيخ محمد حسن العوايسى القاضى لاستعادة هذا المنصب إلى عائلتهم، كانت فلوسهم قليلة وكانت عزوتهم كبيرة بالناس، لكن المال الكثير فى يد فوزى أفندى ومساندة الإدارة له أرضاء لخاطر لطفى بك وصادق بك فعلت فعلها وحصل فوزى أفندى على أكبر الأصوات وفازبالمنصب وانتهت المعركة فى سلام وعدت الى القاهرة لاستكمال امتحان الليسانس.

كنت حين أستدعيت للسفلر إلى العوايسة مع الشيخ محمد عبد الصمد، قد أجلت امتحان مادة الحضارة، وقد كلفنى ذلك خسارة كبيرة فى الدرجات فحين عدت أرسلنى رئيس للقسم للدكتورة فاطمة موسى لأؤدى الامتحان أمامها.

وكانت الدكتورة فاطمة موسى من سكان الأبراج العالية، ولا تعلم شيئا عن واقع الناس الفقراء من أمثالى، فراحت تسألنى بعيدا عن المقررات التى قرأناها أو الأفكار التى كنا ننشغل بها فى دراسة فكرالرنيسانس مثل الحرية الدينية والحرية الفردية والمنهج العلمى ومحاولة سيطرة الانسان على مصيره ومصير الكون. ذهبت الدكتورة بعيدا جدا وشطحت بالنسبة لى فركزت أسألتها على الأفلام التى قدمت مسرحيات شكسبي، وعن الممثلين الذين قاموا بالأدوار مثل أنطونى كوين وغيره. وربما لو وجهت هذه الأسئلة لطلبة وطالبات المدارس الأجنبية لوجدت قبولا لأنهم من القادرين ماديا والذين يملكون ثمن التذكرة. وحاولت عبسا أن ألفت نظرها إلى عدم مشاهدتى لهذه الأفلام ولم تنظرإلى شحوب وجهى ومظهرى الحزين. لم تتبين الدكتورة شيئا مما لاحظه زميلى الأردنى حين سألنى لماذا أنا حزين. ولم تتوقف لتسألنى لماذا لا أجيب عن هذه الأسئلة، حتى تعرف كينونة الإنسان الذى أمامها مثلما يعرف بعض الأساتذة ذوى الفراسة العالية،

لكن يبدو ان هذه الموهبة كانت مفتقدة لديها. ولو سألت لعرفت كيف تدير المناقشة معى ولو عرفت أننى لم أكن أذهب إلى السينما أبدا لأننى لا أجد ثمن التذكرة، وكان كل همى أن أدبر قوت يومى حتى أكمل دراستى الجامعية، لأضافت إلى علمها وعيا بالبعد الاجتماعى والبعد الإنسانى فى العملية التعليمية. لكن كان هناك عامل أخر مسيطر على ذهن الدكتورة فاطمة موسى هو، أن طلبة الليسانس لابد وحتما أن يعرفوا أفلام السينما العالمية وكبار ممثليها وممثلاتها، وكان اسلوبها الغريب فى المحاضرات مستفزا أحياناً، فلم تكن على وقاق مع طلبة الدفعة، وكان الأولاد والبنات يضايقونها، فكانوا يحكون أقدامهم بأرضية المدرج و تضطر إلى ترك المحاضرة والخروج من المدرج . انصب كل ذلك على رأسى فى ذلك اليوم فلم أحصل إلآ على درجة النجاح وضاعت منى خمس درجات على الأقل كانت ستضمن لى تقدير جيد فى المجموع النهائى. وتذكرت أبيات الشاعر البائس عبد الحميد الديب التى يقول فيها:

يهيم بى الأسى والحزن حتى كأنى عبلة والحزن عنتر
كأنى حائط كتبوا عليه هنا يا أيها المزنوق طرطر

فماذا أفعل مع الحظ السيء الذى يترصد خطواتى وكل مرة أهم فيها للتقدم خطوة أواجه بالعراقيل وبالناس الذين لايحسنون التقدير ولا ينصفون الفقير. وقد رصدت كثيرا من مواقف الأساتذة معدومى الضمير الذين يقيمون الطلبة على أساس طبقى، ولا أريد الخوض الأن فى هذا الموضوع لأن سرد الوقائع التى حدثت معى سوف يحتاج صفحات كثيرة وسوف يتطلب ذكر أسماء حتى ممن كنت أحبهم من الأساتذة.

النتهت امتحانات الليسانس وعدت إلى البلد لأقضى الأجازة الصيفية وأنا واثق أننى سوف أحصل على تقدير جيد الذى يؤهلنى للدراسات العليا والحصول على

الماجستيروالدكتوراه، ولكن خاب أملى فقد ضاع التقدير بفارق ست درجات لأننى حصلت على 189 وتقدير جيد من 195 بنسبة 65%، من المجموع الكلى وهو ثلاثمائة وكان من المعتاد فى مثل هذه الحالات أن ترفع هذه الدرجات الست بنسبة 2 فى المائة عن طريق لجنة الرأفة التى يرأسها رئيس القسم الدكتور رشاد رشدى. لكنه رفض أن يطبق هذه القاعدة بالنسبة لحالتى كما سمعت من الدكتور شوقى السكرى رئيس الكونترول. وكان ذلك بسبب علاقتى بشوقى السكرى نفسه، فقد كان مسئولا عن ندوة "ناجى" التى كانت تقام أسبوعيا فى منزل المرحوم محمد ناجى، وكنت أقوم أنا وزميلى نسيم ابراهيم بتنظيم الندوة ودعوة الضيوف، وكان رشاد مدعوا فى يوم من الأيام لمناقشة كتابه "ماهو الأدب" فى هذه الندوة لكنه اعتذر وأناب الدكتورة لطيفة الزيات للحضور بدله.

والحقيقة أننا سعدنا بوجودها لأنها كانت تتحلى بقدرة فذة على المناقشة والإقناع وذلك كله فى أسلوب واضح وسلس وسهل الفهم
وهذا ما تأكد لى أثناء دراستى لدبلوم النقد المسرحى بمعهد الفنون المسرحية، وكانت تدرسنا مادة النقد الأدبى للنص المسرحى. وقد تعلمت منها الكثير. المهم أن الدكتور رشاد رشدى كان يسمع عن ندوة ناجى التى جعلت اسم الدكتور شوقى السكرى يلمع فى الأوساط الثقافية، وكان يعرف أننى وزميلى نسيم ابراهيم نقوم بتنظيم الندوة ولا نعرف شيئا عن الصراع الذى كان يجرى فى الخفاء بين رشاد رشدى وشوقى السكرى،

كان الدكتور رشدى يتهم شوقى السكرى بأنه شيوعي ويرفض ترقيته ألى درجة الأستاذية ويشكك فى الدكتوراه التى حصل عليها من انجلترا. وبلغت الخصومة بينهما حدا فرض على الجامعة أن تحيل بحث الدكتور شوقى الذى حصل به على الدكتوراه إلى لجنة تقييم فى انجلترا، وانتهى قرارها بالثناء على البحث والاعتراف بأهلية صاحبه للدكتوراه. لم أعرف هذا إلا بعد التخرج حين قرأته فى الصحف المصرية، وعرفت أننى وزميلى كنا ريفيين سذج نتصور أن أساتذة الجامعة منزهين عن المصالح والأغراض، ودفعنا ضريبة جهلنا أو نتيجة جرأتنا ودخولنا فى مجال الصراعات الفكرية والثقافية دون خوف من الاتهامات التى كانت تجرى فى تلك الأيام عن الشيوعيين وأعداء الثورة، هذه الإشاعات التى كانت تطارد الكثيرين بحق أو بغير حق.

مدرس لغة في بيلا الثانوية

كان الليسانس بالنسبة لى هو طوق النجاة من حالة الفقر والمرض التى أعانيها، ورغم حزنى على ضياع التقديرالذى كان يؤهلنى للحصول على الماجستير والدكتوراه إلا أننى حمدت الله وطمنت أهلى أننى نجحت ولن أحتاج منهم ألى مساعدة أخرى بل

إنى وعدتهم بأننى سوف أساعدهم وأعوضهم عن بعض ما تحملوه من أجلى. ولحسن الحظ أن وزارة التربية أعلنت عن مسابقة لتعيين مدرسين للغة الآنجليزية،

وكانت المشكلة أن النتيجة تأخرت حتى آخر يوم للإعلان وكانت جموع الطلاب واقفة تنتظر، وطلبنا من العميد أن يطلب من وكيل وزارة التربية ألا يغلق باب استلام الأوراق حتى آخر النهار حتى نتمكن من سحب أوراقنا من الكلية والتقدم بها ألى الوزارة فأخذنا أوراقنا من جامعة القاهرة وخرجنا نلهث الواحد وراء الآخر حتى نلحق بموعد تسليم الأوراق. كان يوما عصيبا من بدايته حتى نهايته، ابتدأ بالقلق أولا على النتيجة ثم الخوف من ضياع فرصة التقدم للوظيفة.

ربما كان هذا حال الغلابة من أمثالى وهم كثيرون. أما أولاد الأساتذة والسفراء والوزراء فكان لهم شأن آخر. كان معظمهم يفكر فى وظائف أخرى تدر مالا وجاها. كتبت فى اختيار الأماكن التى أود التعيين فيها، محافظة المنيا، وبنى سويف، والجيزة. وفى فترة انتظار النتيجة جاءتنى دعوة كريمة من مدير الكلية الأمريكية فى أسيوط للعمل هناك، وذلك لأنه سمع كلاما طيبا عنى من أحد الأخوة الذين كانوا يعرفون معاناتى وكفاحى فى سبيل النجاح، وحين قرأت الخطاب على أخى حكيم رفض أن أعمل بالمدارس الخاصة، رغم أن المديرعرفنى بأنه سوف يطلب حال تعيينى بالتربية أعتبارى معاراً للمدرسة. والواقع أنها كانت فرصة عظيمة لم أعرف قيمتها إلا بعد أن تم تعيينى فى كفر الشيخ، وكان السبب فى هذا أن إسمى اختلط باسم زميلى نسيم ابراهيم يوسف الذى اختار محافظة البحيرة ونواحيها لأنه من سكان إيتاى البارود، ولما أعلنت اعتراضى للموظف المسئول على تعيينى فى مكان بعيد عن بلدى ومكان لم أختاره طمنى بأنه بعد استلام العمل يمكن اجراء بدل مع نسيم ابراهيم لكنه بعد أن ذهب إلى المنيا ورأى جمال المدينة، رفض وقال:
ـ معقول أترك المنيا عشان كفر الشيخ.

عند استلامى قرار النعيين كان معى الصديق العظيم الراحل كمال جليل الذى كان يساندنا دائما ويفرح لنجاحنا ووجودنا معه وكأنه الأخ الأكبر الذى يحبنا ويحنو علينا. وكان معه صديق لآأذكر اسمه قال لى من المدن الجميلة فى كفر الشيخ مدينة بيلا، اهلها يحبون الغرباء وأنا منهم. وإذا أعجبهم شاب فإنهم يحيطون به ويصادقونه. وبعد أن يتعرف عليهم ويزورهم عدة مرات يحدثونه عن ابنتهم، ويلمحون له بالزواج. وإذا استعصى عليهم يعملون له أعمال سحرية ويربطونه بها فلا يستطيع فكاكا. ضحكت وضحك معى كمال أيضا وقال:
ـ ابشر ياعم الدنيا فتحت لك صدرها.

وفعلا اخترت الذهاب ألى بيلا وكانت المفاجأة أن الكهرباء لم تدخلها واضطررنا أن نحضر دروسنا على لمبة الجاز. وقد رفض عدد من زملائى البقاء فى مدن أخرى بكفر الشيخ وتركوا العمل نهائيا غير نادمين، لكننى لم أكن أستطع ذلك لأننى كنت فى حاجة

ماسة للمرتب الذى لايزيد عن ثلاثة عشر جنيها وستين قرشا شهريا. ولم أكن أملك ترف البحث عن مكان آخرأو وظيفة أخرى، ووبل للفقراء. وكان على أن أرضى بالقسمة والنصيب وحاولت أن أكيف نفسى على جو الحياة فى هذه المدينة الريفية، وطقسها البارد وأن أتحمل الخوض فى الشوارع المليئة بالطمى الذى يتخلف عن هطول المطر بغزارة طول العام، وهو شيء لم نكن نعرفه فى قريتى العوايسة بمحافظة المنيا.

كانت الحياة في بيلا تنتهى عند الغروب، فلم يكن بها مجال للترفيه او السهرغير المقاهى ونادى المعلمين الذى يقع فى شقة تتكون من ثلاثة غرف وصالة وليس به غيرالطاولة وترابيزة بنج بونج ولا شيء آخر. وهى ألعاب لا أميل إليها كثيرا فعدت إلى هوايتى المفضلة وهى القراءة، قراءة الكتب المدرسية التى أقوم بتدريسها وقراءة جريدة الأهرام وكان ملحق الجمعة يقدم زادا وفيرا وغنيا من المعرفة والثقافة السياسية والأدبية والفنية
كان يتصدره مقال محمد حسنين هيكل الذى يتابع تطورات الأحداث السياسية المحلية والعالمية ويحللها تحليلا دقيقا وبأسلوب سهل الفهم هوقمة البلاغة فى مجاله. أضف الى ذلك أنه كان ينشر مسرحيات توفيق الحكيم وروايات نجيب محفوظ ومقالات لويس عوض وحسين فوزى وحسين مؤنس والدكتور زكىنجيب محمود وأخرين إلى جانب أعار صلاح جاهين ورسومه الكاريكاتورية وإشعار صلاح جاهين وكذلك أشعار صلاح عبد الصبور. كان الملحق الأدبى للأهرام فى تلك الأيام جامعة مفتوحة للعلم والثقافة.

وكانت جريدة الجمهورية أيضا تقدم مقالات رائعة لشعراء كبار مثل كامل الشناوى وصلاح عبد الصبور والخميسى الى جانب كتاب الفكر اليسارى المتميزين مثل محمد عودة ومحمد مندور وآخرين. كنت أقرأ لهؤلاء جميعا وأسعد بصحبتهم، وكانت بعض المقالات تتناول بعض الكتب الجديدة ذات القيمة الأدبية أوالتاريخية فأحرص على الحصول عليها وقراءتها سواء كانت بالعربية أو بالإنجليزية، ومن ثم انجذبت ألى عالم الكتابة وأخذت أهيء نفسى لهذا المجال خصوصا وأنه كانت لى محاولات سابقة فى كتابة الزجل والشعر فى المرحلة الثانوية وفى الجامعة، أخذت أطورها فى مرحلتى الجديدة فى ضوء ما اكتسبته من معرفة جديدة فى الأدب وكل فروعه. وقد كتبت عددا من القصائد نشرت مؤخرا فى 2013 بعنوان
" أشعار وأغانى مصرية " صدرت عن دار الحضارة بالقاهرة.

أخذت قرار قيامى بالعمل من مديرية التربية بكفرالشيخ، وذهبت لاستلام العمل فى بيلا وعلى باب المدرسة تقابلت مع إدوارعبد الملك مدرس التربية الفنية، وكان قادم مثلى لاستلام العمل بنفس المدرسة، واثناء الحديث مع السكرتير أشار على إدوار بان يصعد إلى الدور الثانى حيث حجرة التربية الفنية ليتعرف على الأستاذ صبرى الذى سوف يتسلم منه الحجرة، فذهبت معه وهناك استقبلنا الأستاذ صبرى بحفاوة بالغة وظهر أنهما يعرفان بعضهما من قبل. وفد دعانا صبرى للذهاب معه الى سكنه حيث

تناولنا الغذاء معه واتفقنا على الإقامة أيضا بهذا السكن. وقد مكث معنا الأستاذ صبرى حوالى اسبوع وكانت صحبته لطيفة، كان رجلا ضخم الجثة ولكنه بشوش الوجه يفيض مرحا بحيث لا تحس معه بالغربة. وقد ساعدتنى هذه الصحبة معه ومع إدوارد على الشعور بالإرتياح وقبول الواقع الجديد والتركيز على العمل فى هذه البلدة. ارتحنا لهذا السكن أيضا خصوصا وأنه كان على بعد خطوات من المدرسة لايفصله عنها أى شىء سوى الشارع. وكان عبارة عن شقة من ثلاثة حجرات وصالة بالدور الثانى مبنية من الأخشاب والمولاس ومغطاه بسقف رقيق من جريد النخيل وبوص الذرة، وكان المطرينزل علينا أحيانا من بعض الفتحات ويضطرنا لتحريك السراير من أماكنها حتى لا تغرقها مياه الأمطارليلا وهكذا. لكن الحياة فى بيلا كانت مريحة ومنخفضة التكاليف.

قضينا بضعة أيام قبل افتتاح الدراسة فى أول سبتمبر. كنا نذهب الى المدرسة يوميا لنتعرف على ظروف العمل وعلى زملائنا الأخرين ونقضى بعض الوقت فى لعب الطاولة او كرة اليد. كذلك اجتمعنا أنا وزملائى مدرسى اللغةالإنجليزية. وكان المدرس الأول أستاذ سودانى يحمل شهادة عالية من الخارج ويستعد لاستلام عمله بكلية المعلمين الجديدة بمدينة المنيا. وكان شخصية مرحة خفيفة الظل تحس أنه يشاركك فى نقد السخافات الروتينية والشكليات ومنها ما يتعلق بتوزيع المدرسين الجدد بطرق عشوائية تبعد الكثيرين عن أهلهم وتسبب كثيرا من المضايقات والمشاكل. وكان يوصينا بالصبر على مثل هذه السخافات والتركيز على العمل ومراعاة مصالح الأولاد الذين يتعلمون فى هذه المدارس. وعند توزيع الجدول اكتشفنا أن المدرسة بها فصل مشترك بنات وبنين به ثلاثة عشر طالبة رفض زملائى فاروق سلام وجمال كامل وضع هذا الفصل فى جدوله واستغربت ان يرفض هؤلاء المدرسين القدامى بالمدرسة قبول هذا الفصل، فطلب الأستاذ سرور منى أن اتولى أنا التدريس فى هذا الفصل لأن فاروق وجمال متخرجين من كلية المعلمين ولم يسبق لهما التعامل مع بنات. أما أنا بحكم تعليمى فى قسم اللغة الانجليزية بكلية أداب جامعة القاهرة حيث تزاملت مع زميلات طيلة مدة الدراسة، فمن السهل على مثلى القيام بهذه المهمة فوافقت.

ولم أفاجأ او أحس بغربة فعلا رغم أن المهمة كانت شاقة جدا لأن التجربة كانت غريبة على البنات وعلى الأولاد أيضا، وكان على أن أذيب هذه الأحاسيس عندهم بالتعامل على ان هذا أمر طبيعى لأن المرحلة الجامعية ستضعهم فى هذا الجو وعليهم ان يتعلموا كيف يتعاملون برقى مع بعضهم بعضا ومع زميلاتهم من الطالبات خصوصا وأنهم أبناء مدينة صغيرة ويعرفون بعضهم بعضا وأنهم جميعا فى حكم الأهل والأقارب. وسارت الأمور على خير مانتمنى وكان التنافس على التفوق العلمى هو سيد الموقف فى هذا الفصل، ولم تشهد التجربة أى مشاكل بل كان التفاهم والتعاون واضحا بين الجميع.

ولعبت المكتبة دورا هاما فى زيادة حماس الأولاد على القراءة، وتشجيعهم على كتابة ملخصا للكتاب الذي يقرأه كل منهم وعرضه أمام زملائه وزميلاته فى حضور أمين المكتبة، وبعض الأساتذة. ويرجع الفضل فى هذا إلى أمين المكتبة الزميل الراحل الأستاذ أحمد عبدالله اسماعيل الذى استحدث هذا التلقليد فى مدرسة مشتركة فى مدينة ريفية صغيرة. وكان يقلب فى الكتب ويختار منها المناسب ويعطى كل تلميذ وتلميذة كتاب ويحدد له وقت لقراءته، وقد أقبل منهم عدد كبير على الحصص المخصصة للمكتبة وكانوا يبذلون جهدا كبيرا فى القراءة ويتبارون على التفوق والبروز، وقد أظهرت هذه التجربة تفوق كثير من الطالبات فى القراءة وفى الحديث بشجاعة أثناء المناقشة. وقد دعانى أمين المكتبة لحضور بعض الجلسات مع الطلبة والطالبات والاشتراك فى المناقشة وأجابة أسألتهم وتوجيههم لقراءة بعض الكتب الجادة فى الأدب وفى الفن لأننا من خلال القراءة الواعية يمكن أن نكتشف ميولنا الحقيقية التى تساعدنا على اختيار التخصص العلمى الذى يستهوينا فى دراستنا الجامعية. وفى إحدى الجلسات قدم الأستاذ أحمد عبدالله قصة " أنا حرة " تأليف الكاتب الكبير احسان عبد القدوس وطلب منى أمام الطلبة والطالبات أن أقرأ هذه الرواية وأن أقوم بالحديث عنها فى ندوة عامة بمدرج العلوم بالمدرسة. وكانت تجربة مثيرة إذ امتلأ المدرج بالطلبة والطالبات من كل الصفوف واستمعوا فى هدوء للمحاضرة وفى النهاية فتحنا الباب للمناقشة وكانت الأسئلة تدل على درجة عالية من الوعى الاجتماعى والثقافى. فالقصة تناقش قضية الحرية الفردية ومسألة حرية الاختيار من خلال قصة حب تطرح السؤال الهام: هل فى الحب حرية؟ وهل هناك حرية حقيقية؟ وتجيب على ذلك با لنفى وتقول أن أكثرنا حرية هو عبد للمبادىء التى يؤمن بها.

كانت التجربة مثيرة حقا إذ كشفت عن نتيجة هامة وهى تعطش الشباب والشابات إلى مثل هذه الندوات الأدبية والثقافية التى تربطهم بتيار الحياة العامة وتتيح لهم فرصة المشاركة والتعبيرعن أرائهم ومشاعرهم، وهذا ما جعل بعض الأساتذة والطلاب يدعوننى للتحدث فى طابور الصباح من وقت إلى أخر مشاركة لزملائى أساتذة اللغة العربية الذين كانوا يحتكرون حديث الصباح باعتبارهم سادة الفصاحة والبلاغة.
وكانت المفاجأة أنهم اكتشفوا أن هناك أستاذا للغة الأنجليزية يحسن الحديث ولديه ألمام بقضايا الفكر والثقافة التى تشغل المجتمع فرحبوا به وضموه إلى جانبهم، وأشهد الآن أنهم كانوا صحبة جميلة، نلتقى أحيانا فى بعض أوقات الفراغ نتبادل الحديث فى الشعر والأدب وفى الدين.
وقد حدث ذات مرة وكان عيد الأضحى على الأبواب أن سألنى بعض الطلبة فى نهاية الحصة: إسمع يا أستاذ نسيم لماذا لاتعترفون بالنبى محمد؟ فقلت أنتم تعترفون بمحمد ونحن نعترف بالمسيح ولكل دين أنبياؤه. قالوا نريد إجابة محددة، ماذا يقول الإنجيل عن محمد؟ حاولت أن أتملص من الموقف. وقلت الإنجيل في المكتبة ممكنتقرأوه. قالوا المكتبة لايوجد نسخ للإنجيل ونحن نريد أن نعرف النص الحقيقى. قلت الإنجيل سبق محمدبستةقرون ولميقل عنه شيئا ولا ذكر لإسم محمد في الإنجيل. ردوا في صوتواحد نريد أن نعرف بالحق ماذا قال الإنجيل بالنص عن الأنبياء الآخرين؟ وأنت لازم تقول

لنا. وقلت لهم أن المسيح يقول " سيأتى بعدى أنبياء كذبة فلا تصدقوهم " وتقبل الأولاد هذا الكلام بهدوء، وخرجت من الفصل لكنهم نقلوا كلامى إلى زميلى الأستاذ عبد الفتاح الخواجة فجاء الى حجرة المدرسين وهو يضحك ويقول "يخرب بيتك يانسيم يامجلى. كنت قول الكلام ده

فى الفصل وما تقولوش فى الحوش". فلما نظر إليه بقية الزملاء فى تساؤل حكى لهم ماحدث فضحكوا. فقلت لهم الأولاد أمسكونى على باب الفصل وأغلقوا الباب وأصروا على أن أقول لهم نص الإنجيل فقلته. والإنجيل كتاب مشهور ومنشور وليس منشورا سريا. ومن حقهم أن يعرفوا ما يقوله الإنجيل. وتقبل الجميع هذا الكلام فى هدوء. وتماديا فى مشاكسة عبد الفتاح الخواجة سألته، لماذا يحتفل المسلمون بعيد الأضحى؟ هل هى رغبة فى التعبير أنهم أهل تضجية وفداء وهذا شىء جميل، مع أن الذبيحة كان اسحق ابن ابراهيم وليس اسماعيل؟ فرد قائلا إن الذبيح كان اسماعيل، فقلت أنا أوافقك لو أن القرآن ذكر اسماعيل بالاسم. فقال الأستاذ يحيى قطب إن المعتزلة قالوا إنه اسحق. وقال الزملاء الأخرون أمهلنا للغد لنراجع القرأ ن ونتحقق من هذه المسألة. وفى العد أعلنوا جميعا أن القرآن لايذكر اسماعيل بالاسم لكن الفقهاء اتفقوا على أنه اسماعيل. اما الأستاذ يحى أكد أنه بحث هذه النقطة أثناء الدراسة في كلية دار العلوم وعرف أن المعتزلة يقولون إنه اسحق. وارتحت لهذه النتائج الذى توصلوا إليها. لكن أحدهم سألنى وماتفسيرك يانسيم لهذه القصة؟،

قلت: بعيدا عن النصوص الدينية أرى أنه يستحيل أن يقدم اسماعيل كذبيحة، لأن القراءة الصحيحة للقصة تقول أن ابراهيم وسارة كانوا يعيشان فى مجتمع إقطاعى طبقى، فيه السيد وفيه العبد. وفيه السيدة وفيه الجارية. وكانت سارة هى السيدة التى أحست أنها غير قادرة على الإنجاب وأنها كبرت ولم يعد لها أمل فى ذلك، فأمرت ابراهيم بأن يتزوج الجارية فتزوجها وأنجبت له اسماعيل. وحين أنجبت بدأت الغيرة تأكلها فأمرته أن يأخذ الجارية وابنها وأن يتركهم فى مكان بعيد وحسب نص القرآن بواد غيرذى زرع، وأطاعها ابراهيم وتخلى عن هاجر وابنها ارضاء للسيدة سارة التى أنجبت اسحق. وهذا يعنى أنه ضحى باسماعيل إرضاء لسارة. فهل يختبر الله ابراهيم فى الإبن الذى تخلى عنه وتركه فى الصحراء أم يختبره فى الإبن الغالى اسحق؟ كانت مناقشات مثمرة وجادة وكانت تسودها روح الود والتسامح ولم نكن نعرف هذا التشدد أوالتطرف الذى انتشر الآن كالوباء. فقضينا أياما سعيدة كنا نشتاق فيها إلى المدرسة حتى فى أيام الأجازات لكى نلتقى فى هذه الجلسات نتكلم فى الأدب وفى اللغة العربية وأنا من عشاقها كنت دائما أحب أساتذتها وأصادقهم وأكثر من الجلوس معهم.

أما محاضراتى وأحاديثى فى الأدب والسياسة فجعلت لى شعبية بين الشباب من هواة الأدب والشعر أذكر منهم ابراهيم الوصيف الذى فوجئت بأنه يحفظ بعض قصائدى التى كنت أقرأها أحيانا عليهم، والأستاذ حسن الموافى المحامى وأخوه حسين وآخرون ممن كانوا يحاولون كتابة الشعر ويدعوننى لسماع تجاربهم الجديدة وهذا

كان يسعدنى جدا ويربطنى بهؤلاء الأصدقاء ويملأ فراغ حياتى الذى كنت أحسه أحيانا فى هذه المدينة،

لم يقف الأمر عند هذا الحد بل امتد ت شعبيتى ألى خارج المحيط المدرسى وأصبحت أدعى للحديث فى المناسات القومية. وأذكر على سبيل المثال دعوتى ألى ندوة بالمدرسة الأعدادية للبنات لمناقشة موضوع الأسرة وتحديد النسل الذى سمى بعد سنوات بتنظيم النسل. وكانت المفاجأة أن المتحدثين الأخرين أربعة من المشايخ وخطباء المساجد. وكانوا ظرفاء فرحبوا بمشاركتى لهم فى تلك الندوة. وجاء الدور على للحديث فقلت إن االسادة الأجلاء يرفضون تحديد النسل لأنهم يرون أنه قتل للأجنة معتمدين على الأية الكريمة التى تقول " لاتقتلوا أولادكم خشية إملاق فنحن نرزقهم وإياكم " وقبل أن أنتهى من نطق الأية فوجئت بالشيوخ الأربعة يقفون معا ويعترضون فى صوت واحد: لا يا استاذ لا توجد فاء فى الأية. فاعتذرت عن هذا الخطا عير المقصود، وأكملت جديثى بأن تحديد النسل ليس قتلا للأجنة وللأطفال، فنحن كمسيحيين نرفض الإجهاض باعتباره قتل للأجنة ولكن ندعو لطرق أخرى كثيرة يعرفها الأطباء. كما ندعو لزيادة الوعى والإكتفاء بعدد قليل من الأطفال حتى نحسن تربيتهم ورعايتهم. وعلى أى حال هذه الخطة لن تنجح إلا بزيادة الوعى ورفع المستوى الثقافى لأن المشكلة ترتبط أساسا بالأمية والجهل والتواكل.

وقبيل حرب 1967 حين استنفرت البلاد والقوى العشبية لدعم موقف عبد الناصر ومناصرة الجيش وتدعيمه لمواجهة عدوان اسرائيل المحتمل بعد أغلاق ممر باب المندب، دعيت للمشاركة فى المؤتمر الكبير الذى يقيمه مجلس المدينة وأعضاء الإتحا د الآشتراكى فى دار سينما بيلا، فكتبت قصيدة حماسية وألقيتها فى حشد كبير امتلأت به القاعة، وأذكر منها الأبيات الأتية"

سلمت يداك الغر عبد الناصرى سلمت يدا شعبى العريق القادر
ضربت فأعمت عين كل دسيسة خرجت من الجحر اللئيم الغادرى
سر ياجمال لإسرائيل ودكها والله للثوار نعم الناصرى

وقوبلت القصيدة بعاصفة من التصفيق الحارالذى اسعدنى وأكسبنى مزيدا من حب الشباب بل وحب كثير من أهل هذه البلدة. لكن الفرحة لم تدم فسرعان مانقلب الحال إذ قامت اسرائيل بهجوم مفاجىء فجر 5 يونية على مطاراتنا ودمرت سلاحنا الجوى، وأخذت فى الزحف لاحتلال سيناء ومنطقة القنال. وحين أعلن خبرهذا العدوان فى صباح ذلك اليوم الحزين فوجئت أنا وزوجتى بطالبات المدرسة جميعا يدخلون علينا وهم يبكون ويصرخون بحزن ودهشة حقيقية مما حدث. كانوا يسألوننى ويطلبون منى أن أشرح لهم. ولم أكن أملك جوابا شافيا لكننى أخذت أنا وزوجتى فى تهدئتة خواطرهم, وطمأنتهن على أن هذا العدوان سوف يتم دحره والشعب المصرى قادر على أن يستوعب المفاجأة ويرد عليها .

وبعد خروجهم من المنزل، مكثت وقتا طويلا أنا وزوجتى نتأمل ما حدث. مامعنى أن يتجمع هذا العدد الكبير من الطالبات ويأتين إلى بيتى أنا بالذات. هل بلغت ثقتهم بى إلى هذا الحد فيتجهن ألى دون الأخرين من المدرسين ليسألن عن هذه النكسة الوطنية الخطيرة، وأسبابها كأننى واحد من زعماء السياسة فى هذا البلد. صحيح أننى كنت متحمسا لعبد الناصر وللثورة وكنت أتحدث على مدى السنوات السابقة عن الثورة وانجازات عبد الناصر داخليا وخارجيا لكننى لم أكن أتوقع أن تؤثر أقوالى ألى هذه الدرجة. أقول رغم الحزن الذى كان يعتصرنى أنا وزوجتى إلا أن هذا الموقف أعطانى دفعة قوية وملأ نى بالثقة فى أن كلامنا وجهادنا فى نشر الوعى وفى عملية التنوير لم يضع هباء، ورغم أن هذا الوفد كان يتكون من الطالبات فقط إلا أنهم كانوا تمثيلا حقيقيا لجيل يعرف معنى الوطن. جيل مستعد لأن يناضل وأن يضحى من أجل بلده وحريته، ويعطى الأمل فى النصر القادم. وهذا ماتحقق فى أكيوبر 1973.

عشت أياما عديدية بمشاعر هذه اللحظة التى أظهرت لى مدى الحب والتقديرالذى يحمله لى أبناء بيلا والذى غمرنى منذ الشهور الأولى لمجىء هذه المدينة. والذى حملنى على الزواج من إحدى طالبات المدرسة، التى أكملت دراستها بعدالثانوية العامة وحصلت على دبلوم التربية وأصبحت مدرسة بالمرجلة الإبتدائية. وهى زوجة رائعة الجمال تتميز يدرجة عالية من الذكاء وخفة الدم. ورغم أنها كانت دلوعة أمها وأبيها بسبب أنها البنت الوحيدة بين خمسة أولاد إلا أنها أثبتت أنها معلمة جادة ومنضبطة وست بيت نشيطة وميدعة فى إعداد الطعام والتنوع فيه بدرجة تفوق المحترفات. وكانت عنايتها بالأطفال شيئا يدعو للإعجاب إذ كانت تتحمل فى صبر السهر عليهم وتغذيتهم بل وعمل البلوفرات لهم. إننى الأن أشهد بعد خمسين عاما من الزواج أننى لو تزوجت بخمسة زوجات لما قمن بما قامت به. وأنتهز الفرصة لأدعو لها بدوام الصحة والسعادة. أننا عندما نسترجع هذه المسيرة وننظر للآولاد والأحفاد نشعر بالرضى والفخر وأقول إنها علاقة بنيت على الحب جعلتنا نواجه كل الصعاب بثبات حتى وصلنا إلى برالأمان وكانت ثمار هذه الرحلة الطويلة والشاقة ثماراعظيمة، إنها قصة مثيرة وحافلة وسوف أحكيها فى الصفحات التالية.

تم الزواج فى25 يولية 1965، أى بعد مايقرب من ست سنوات من وصولى إلى بيلا. كانت إحدى التلميذات الثلاثة عشر فى الفصل المختلط الذى وضع فى جدولى لتدريسه اللغة الإنجليزي عند بداية عملى بالمدرسة، وكانت هى الطالبة المسيحية الوحيدة بينهن، وقد استمرت علاقتى بهذا الفصل فى السنوات الثلاثة التالية حتى امتحان الثانوية العامة. وكان نجاح التجربة دافعا لأن تستقبل المدرسة عددا جديدا من الطالبات عاما بعد عام وتزداد نسبتهن فى الفصل بدرجة تتفوق على عدد الأولاد، وأصبحت المتخصص فى تدريس هذه الفصول المختلطة، فتقوم إدارة المدرسة دون أن تسألنى بوضع الفصل الجديد فى جدولى. وقبل أن تتخرج الدفعة الأولى من المدرسة كنت أقوم بتدريس ثلاثة فصول مشتركة بنين وبنات فى السنة الأولى والثانية والثالثة.

وكان أولياء الأمور يهتمون أكثر بأمر بناتهن ويأتون للمدرسة ويلتقون بى للسؤال عنهن وتوثقت معرفتى بالكثير منهم، وكان هذا يزيد مشاعر ارتباطى ببيلا رغم أننى أطلب فى كل عام نقلى إلى المنيا بلدى أو إلى القاهرة لأكون قريبا من أهلى فى سماالوط.

أما أهل زوجتى فبدأت معرفتى بهم فى نهاية الأسبوع الأول من الدراسة حين ذهبت لحضور إجتماع صلاة بالكنيسة فى مساء الجمعة، وعند خروجى استوقفنى شاب رحب بى وقدم نفسه لى بأنه طالب بالفرقة الثالثة علمى وأن اسمه نبيل فهمى أخو الطالبة مريم فهمى فى فصل سنة أولى. فقلت له هذا الإسم غير موجود عندى ضمن الطالبات. فقال إنها حضرت فى اليوم الأول ثم منعتها أمى لأنها تخشى عليها من جوالاختلاط بالطلبة، وهى تبكى وعايزة تتعلم وأنا ووالدى وأخوتى جميعا عيازينها تكمل تعليمها. والمشكلة هى أمى، ياريتك تتفضل عندنا تشرب شاى وتقنعها بضرورة التعليم. قلت له المدرسة فيها بنات فى فصل سنة أولى ومجموعة أخرى بالسنة الثالثة محولين من المنصورة وكفر الشيخ وشربين والأمور تسير على خير مايرام ولم نسمع شكوى حتى الآن من البنات او االبنين، وانت تقدر تأخذ أختك معك كل صباح وترجع بها فى آخر اليوم فى آمان.

فقال أمى تصر على موقفها أرجوك أن تدخل معى وتقنعها بذلك. وأشارألى بيتهم فإذا هو مواجه لباب الكنيسة. فلم أجد مفرا من الدخول معه، واستقبلتنا الست والدته بكل حفاوة وقدمت لنا المشروبات. فقالت: إنا بخاف على بنتى لأنها جميلة وعايزة اجوزها، ومدرس الإ نجليزى فى الاعدادية طلب يتزوجها ورفضنا لأنه يريد أن يتزوج ويأخذها لبلده فى الصعيد. ودخلت مريم وسلمت على وقالت أنها تريد أن تذهب للمدرسة مع زميلاتها، فقلت لأمها بسيطة خليها تروح المدرسة لما يأتى العريس المناسب زوجيها ولا تحرميهاش من التعليم. فقالت: ماعنديش مانع بس تاخد بالك منها، فطمنتها على ذلك. وفى اليوم الثانى حضرت مريم إلى المدرسة ، وفى المساء زارنى أديب أخوها ليشكرنى على اهتمامى ويعرفنى أنه يعمل نحالا وتاجر عسل وأنه على معرفة بكثير من المدرسين ثم دعانى لقضاء السهرة معهم فشكرته ووعدته بتلبية الدعوة فى وقت قادم ، وبعد أيام قليلة حضر لزيارتى فى أول المساء فرحبت به وقدمت له كوبا من الشاى وجلست أتحدث معه لكنه لم يكد ينتهى من الشاى حتى وقف وقال اتفضل قوم معايا نخرج نفرجك على بلدنا وسرت معه فى شارع العشرى حتى ميدان التحرير وهناك توقفنا أمام أحد المقاهى ودعانى للجلوس فرفضت لأننى لم أعتد الجلوس على المقاهى وسط المدخنين وقلت له نتمشى أفضل لتعرفنى على شوارع بيلا فانصاع لرأى ولكنه أخذنى فى اتجاه بيتهم وأصرعلى أن أذهب معه وهناك رحبت بنا الست والدته وشكرتنى على اهتمامى ببنتها فقلت لها أنا لم أفعل شيئا .

إن اهتمامى بتعليم البنات مسألة أدافع عنها بقوة من أجل تقدم المجتمع وتحريره من العادات والتقاليد البالية. وقال أديب إن مريم تريد منى أن أشرح لها الجزء اللى فاتها

فى الأسبوع إللى غابت فيه. قلت تورينى هذا الجزء، وقضيت معها حوالى ساعة أراجع الدرس ثم استأذنت فى الخروج فأصر على توصيلى حتى باب سكنى. وتكرر الأمر بعد حوالى أسبوع أو أكثر وتعرفت على والدها وعرفت أنه يعمل نجارا كما عرفت أن له خمسة أخوة بعضهم يشتغل بتربية النحل وانتاج العسل وأحدهم يملك عددا كبيرا من الفدادين يزرعها ويتاجر فى أشياء كثيرة. ومع مرور الوقت تعرفت على باقى رجال العائلة بعد أن دعيت لتدريس مجموعة من أبنائهم يستعدون لامتحان الشهادة الاعدادية، وقد أدى ذلك إلى أن أدخل بيوتهم وأتعرف على الكثير منهم. وهكذا لم ينته العام الأول حتى أصبحت صديقا معروفا للجميع ويتعاملون معى بمودة وكرم فى كل مناسبة ألتقى فيها بأحدهم.، ولم يكن هذا شيئا غريبا على أهل بيلا عموما. فقد تعرفت على عائلات أخرى كثيرة من المسلمين خصوصا من أولياء أمور البنات وكانوا يتلقوننى بالترحاب والمودة وذلك لأننى نشأت فى بلد ريفى يتآلف فيه الناس بعضهم مع بعض ولا يعيشون فى حياة منفصلة مثل أهل المدن. وهذا جعلنى أحب بالجميع وأنظر لهم بتقدير كلما جاء أحدهم لمقابلتى فى المدرسة مما فربنى من الجميع وأشعرنى اننى محل ثقتهم.

وأعترف الآن أن افضل سنواتى حياتى العملية قضيتها فى بيلا وفى ليبيا حيث عشت ست سنوات فى بنغازى لم أشعر فيها بالغربة وكانت صداقتى مع الكثيرين من أهل بنغازى وتعامل أبنائهم معى فى المدرسة يزيدنى حبا وتقديرا لهم وإيمانا بأنهم لو وجدوا النظام السياسى السليم الذى يحقق العدل والمساواة ويضمن الحرية التفكير وحرية الرأى، فسوف يكون لهم مستقبل عظيم فى ظل الموارد المادية والطبيعية الهائلة، حيث الأراضى الشاسعة والأمطار والبترول التى تمكنهم من بناء نهضة زراعية وصناعية. وفى وجودى بين بعض الليبيين فى بنغازى كنت أحس أننى فى بيلا وبين أهلها.

وبالنسبة لأهل مريم فقد أحاطونى بصداقة حقيقية وفى كل مناسبة سعيدة كانوا يدعوننى لمشاركتهم وخصوصا فى مناسبات الأعياد المسيحية التى كنت أقضيها فى سكنى مرغما لأنى حاولت مرة أن أسافر إلى بلدى فوصلت إلى القاهرة لأخذ القطار إلى سمالوط وتصادف ذلك مع أحد الأعياد القومية أو الدينية الأخرى، قلم أجد وسيلة حتى تذاكر القطار نفذت ولا أمل فى الوصول إليها واضطررت أن ألقى بنفسى داخل إحدى عربات القطار المكدسة بالركاب ووجدت نفسى محشورا بين الناس لا أستطيع الحركة أوالإلتفاته. أحسست أننى أختنق فنزلت فى محطة بنى سويف وبعد أن استرحتت بض الوقت على المحطة انتظارا لأى قطارقادم فأخبرنى ناظر المحظة أن اول قطار الى الوجه القبلى سيمر بين الساعة السادسة والسابعة صباحا، ففكرت أن أذهب ألى إحدى لوكاندات المدينة وحملت حقيبتى وسرت فى الشارع الرئيسى ودخلت لوكاندة وأخرى فلم أجد غرفة مستقلة ونظرت إلى النزلاء فلم أسترح لمنظرهم فحملت حقيبتى وكررت راجعا إلى المحطة حيث قضيت بقية ساعات الليل جالسا على كنبة انتظارا للصباح. وكانت هذه من أسوا ليالى حياتى فقررت ألا أعيد التجربة إلا فى أجلزة نصف العام أو

الأجازة الصيفية. وهكذا أصبحت مجبرا على قضاء أجازات الأعياد وحدى بعد أن يتركنى زملائى إدوارد وعاطف حبيب الذين يشاركوننى السكن. كانت رحلاتهم قصيرة إدوارد بعد ساعتين يوصل إلى بنها وعاطف الى القاهرة لقضاء العيد مع أبيه وزوجة أبيه فى شبرا.

أما أنا فكنت أجلس حزينا أحس بالوحدة والغربة بعيدا عن أهلى. وفجأة أجد أديب يدق بابى جاء ليأخذنى للأحتفال معهم بالعيد ويقول أن أباه وأمه منتظرين حضورى لقضاء العيد معهم. وهكذا توطدت علاقتى بهم وبمريم خصوصا وأننى كنت أرى فيها صورة الفتاة الذكية والجميلة والمهذبة، وهى الصفات التى يتمناها أى شاب فى زوجته ثم وجدت منها ميلا نحوى وقبولا من ألأم وألأخوة رغم فارق السن بيننا، وهى عشرسنوات وعدة شهور، فتقدمت لخطبتها بعد حصولها على الثانوية العامة والتحاقها بمعهد المعلمات بكفر الشيخ وبعد أن تخرجت ، وتسلمت عملها بأحدى المدارس القريبة من بيتهم، تم الإكليل بكتيسة بيلا فى 25 يولية سنة 1965 فى نفس اليوم الذى وضع فيه الزعيم عبد الناصر والأمبراطور هيلاسلاسى حجر الأساس للكاتدرائية المرقسية بالعباسية. وكان هذا فألا طيبا وعظيما. وفى ديسمبر1966 رزقنا بأول الأبناء نبيل ففرحنا به فرحاعظيما وأصبح شغلنا الشاغل وبدأنا نعرف أهمية الأطفال فى حياة الأسرة.

وفى سبتمبر 1967 نقلت إلى الجيزة وتسلمت عملى فى مدرسة البدرشين الثانوية لأقضى بضعة شهور مع الناظر محمد أحمد المصرى الشهيرب (أبو لمعة). وقد كانت هذه الشهرة تملأه بالهواجس من الطلبة والمدرسين فكان يخطب فينا ويحذر الجميع من ذكرهذه الصفة ويقول ان اسمه محمد أحمد المصرى. وفى يوم من الأيام أبلغه أحد الجواسيس بأننى أتأخر يوم السبت وأخرج بعد الحصة الثانية يوم الخميس، فشرحت السبب بأننى مجبرلأتى أذهب لزوجتى وابنى فى بيلا بكفر الشيخ ولكننى أقوم فى نفس الوقت بتدريس كل الحصص فى جدولى. وفى إحدى الآجتماعات جاءته ذنبة أخربمن أحد السفهاء فقال اسمع يا نسيم أنا ما ينضحكش على، أنا لفيت الدنيا كلها وجايبها من على الأرض ، فضحكت وقلت بس أنا طالع من تحت الأرض. فانفجر جميع المدرسين فى الضحك، وأحس أننى غلبته فى التنكيت، فأخذ يطالب المدير وكان صديقله بأن يأمرالمفتش الأول الأستاذ نظمى خليل بنقلى ألى بمدرسة الحوادية كعقوبة حتى لاأكون في الجيزة التى أريدها ولا فى البدرشين التى يقف عليها قطار الصباح. وكان الأستذ نظمى خليل يعرف أننى ملتحق بالدراسات العليا بمعهد الفنون المسرحية فنقلنى إلى مدرسة الزرعة الثانوية بشارع الهرم ثلاثة أيام وأذهب يومين الى البدرشين ارضاء لخاطر مديرالتربية والتعليم وحفظا لماء وجه صديقه أبو لمعة الذى أراد أن ينتقم من مدرس لم يستطع ترويضه. ولم يستمرهذا الحال إلا بضعة أسبيع نقلت بعدها ألى المدرسة السعيدية حتى نهاية العام وفى بداية العام التالى نقل أبو لمعة ناظرا إلى السعيدية لكى يبدا الفصل الثانى من كوميديا أبوولمعة المصرى. وهذا له حديث آخر سوف أذكره فى الصفحات التالية.

المهم إننى لم أستسلم وكانت هذه الصراعات وهى متعددة تقوينى لأننى كنت أبدو كمرآة تكشف الزيف والتدليس الذى يمارس فى مدارس التعليم وكنت أسعد برؤية هؤلاء الإنتهازيين ينزعجون من تعليقانى أونظراتى إليهم وتكرر الموقف مع عديدين غير أبو لمعة من نظار وناظارات المدارس الذين عملت معهم. وكانت كل مؤهلاتهم فى الترقى هى التزلف والنفاق والرشوة. وكنت قادرا باستمرارعلى الآبتعاد عن شللهم وتربيطتهم النفعية، حرصا على أخلاقى التى لاتقبل الكذب والنفاق، ولم أسمح لهذه الصراعات أن تعكر صفو حياتى أو تملأنى بالغيظ لأننى كنت أفش غيظى فيهم اولا بأول وأرد الصاع صاعين فى منازعة أى شخص من هذه النوعية وأيا كانت وظيفته ومنصبه حتى وزير التربية والتعليم نفسه كمال حلمى لم يسلم من ذلك، بعد أن فاض بى الكيل وأحسست أن الحلقة تضيق من حولى، ولآ أمل فى الإنصاف أوالعدل في هذه الوزارة. فالكُثيرون يرون الظلم واضح ولا يفعلون شيئا. كلهم خائفون منافقون وكذابون متواطئون.

- **أما حكايتى مع نسيم إبراهيم فقد بدأت حين التقيته صدفة على بوفيه الكلية، أخبرنى أنه من البحيرة من إيتاى البارود فرحبت به وعرفته بنفسى، فقال أنه كان يرغب فى دخول قسم اللغة الإنجليزية لكن كتبوا اسمه فى قسم إجتماع واعترض لكن الأستاذ راضى الموظف بشئون الطلبة رفض أن ينقله إلى قسم اللغة الإنجليزية. وهو حيران ومش عارف يروح لمين. فقلت له بسيطة تيجى معايا تكتب ورقة للدكتور رشاد رشدى رئيس القسم وتنهى مشكلتك. وهذا ما كان ومن ذلك اليوم صرنا أصدقاء وشركاء فى السكن حتى تخرجنا معا فى سنة 1960، وتم تعيننا مدرسين فى وزارة التربية والتعليم**

كانت رغبتى أن أعين فى المنيا وطلب هو التعيين فى البحيرة ، لكن حدث خطأ فعينت أنا فى كفر الشيخ بجوار البحيرة وعين هو فى المنيا يعنى جعلوا البحراوى فى المنيا و المنياوى فى كفر الشيخ فى وجه بحرى رفضوا فى الوزارة تصحيح هذا الخطا وقالوا يمكنكم بعد تسلم أعمالكم تعملوا بدل لكنه بعد أن ذهب إلى المنييا ورأى جمال المدينة رفض أن يبادلنى ومع ذلك استمرت صداقتنا نتقابل فى الإجازات لسنوات طويلة حتى انتقلنا الى الجيزة واصبحنا تلتقى باستمرار خصوصا بعد أن بدأت أجرب حظى فى الترجمة وكتابة المقالات الأدبية وحاول هو أن يسير فى نفس الطريق فنشر عدة مقالات فى مجلة المسرح وترجم كتابا فى النقد ومسرحية وطنية عن كفاح المصريين ضد الهكسوس .

والتحقت انا بالدراسات العليا بمعهد الفنون المسرحية وتقدم هو فى العام التالى ونجح واكملنا دراستنا وحصلنا على الدبلوم ولم نستمر حيث تعاقدنا على العمل فى ليبيا حيث قضيت بها ست سنوات جميلة وقضى هو عشر سنوات ثم جاء ولم يكد

يهنأ بالبشقة الجديدة التي اشتراها على شاطىء النيل بالجيزة حتى أصيب بورم خبيث في المخ أجريت له عملية فى معهد ناصر لكنه توفى فى الثانى من اكتوبر 1994 وكان هذا اليوم من أسود أيام حياتى.

:

ناقد وكاتب مسرحى ومترجم

الإشتغال بالكتابة

بدأ الأمر مبكرا فى كتاب القرية ومدرسة القرية. استهوتنى اللغة العربية بجرسها ونغماتها الجميلة فى الأناشيد المدرسية وقصائد الشعر وآيات القران والمدائح والتراتيل الكنسية بل وفي المواويل الشعبية وأقوال شاعر الربابة، ذلك الفنان الكبير الذى كان يزور قريتنا كل عام ليقضى أسبوعا فتتحول الحياة فيها إلى مهرجان فنى عظيم. كان يحكى لنا حكايات أبى زيد الهلالى والزناتى خليفة وغيرهما. وكنت أتمثل ذلك وأحفظه وأحاول أن ارتله وأغنيه ولاانسى دور هذا الرجل الطيب المفضال الشيخ محمود هارون مدرسى بمدرسة القرية إذ كان يعجب بقدرتى على الحفظ ويفرح بى ويشجعنى على حضور حصص الدين الأسلامى لكى أنافس زملائى من الطلبة المسلمين فى تسميع آيات القران الكريم وشرح معانيها. وكذلك كان الشيخ محمد عبد الظاهرالذى درست على يديه حوالى عامين فى تلك المرحلة بالقرية وكان يولينى عناية كبيرة ويشجعنى فى هذا الاتجاه.

كانت هذه الذخيرة تمثل قوة دفع كبيرة حين عدت للدراسة بعد انقطاع، إذ وجدتنى أتمتع بدرجة من النضوج تفوق زملائى جميعا تجعلنى التهم كل ما يقدم لى من علم وفكر فى اللغات أو المواد الاجتماعية والعلوم. واحتفظت بالمرتبة الأولى على زملائى فى المدرسة حتى الثانوية العامة.

لم تكن حياتى ميسورة ماديا ولم تخلو ابدا من المعاناة، وكأن الأقدار قد تحالفت ضدى ففاجأنى المرض فى بداية المرحلة الثانوية فى شكل مغص كلوى ينتابنى من حين لآخر نتيجة وجود حصوات فى الحوالب، لم يفلح معه العلاج وكنت اعتمد فى تخفيف آلامه على المسكنات. وامتدت وطأة هذا المرض فى مرحلة الدراسة الجامعية مما اضطرني لتسليم نفسى لمبضع الجراح لاجراء ثلاث عمليات بمستشفى الطلبة بجامعة القاهرة، وكانت العملية الرابعة بعد تخرجى بسنتين فى اكتوبر سنة 1962، إذ تخلصت نهائيا من مرض البلهارسيا، ومن تلك الحصوات اللعينة التى كانت تجعل حياتى جحيما. وبعد ثلاثين عاما فى سنة 1992 اكتشفت أثناء أزمة صحية أن كليتى اليمنى مصابة بفشل مزمن، وقد تم استئصالها بعملية جراحية بمستشفى كليفلاند كلنك فى أبريل 2005.

أرهقنى هذا المرض ماديا ومعنويا وبدد معظم طاقتى ورغم أننى تحملت كل آلام المرض والفقر ببسالة وتغلبت على كل عوامل الإحباط وحققت النجاح عاما بعد عام – إلا أن هذا المرض اللعين قد أضاع على فرص التفوق فى الدراسة بالكلية حتى الليسانس.

لكن الأمر لم يخلو من فائدة. فقد اكسبتنى هذه التجارب المريرة عزيمة قوية صلبة وشجاعة على التعبير بالرأى وصدق القول ولازلت احرص على هذه الخصال مهما كلفنى ذلك من عنت واضطهاد. كذلك افادنى المرض علما غزيرا. أن اللغة العربية قد استهوتنى فى فترة مبكرة، وبمرور الأيام ازداد عشقى لها. فكنت حين ينتابنى المغص وادخل إلى فراشى كنت أمسك بكتاب " المختارات " فى الشعر والنثر لأقرأ قصائد الشعر وأحفظها. وكان هذا الكتاب يتكون من ثلاث مجلدات درستها واستوعبت معانيها وحفظت معظم ما فيها من شعر ونثر.

وبعد ذلك بدأت فى تقليد هذه الأشعار شيئا فشيئا فى كتابة قصائد فى المناسبات الاجتماعية والوطنية ثم بدأت اكتب ازجالا ساخرة اتندر بها مع اصدقائى وزملائى فى المدرسة وكذلك كنت اكتب لأصدقائى خطبا وأزجالا يلقونها فى احتفالاتهم العائلية كزواج الأخ أو الأخت.

لم اكد ابدأ دراستى الجامعية عام 1956 حتى وقع العدوان الثلاثى على مصر بسبب تأميم قناة السويس، فتوقفت الدراسة وانشغلت مصر كلها بمقاومة العدوان وتحرير بورسعيد. وتأكد لنا بعد خروج الانجليز والفرنسيين والاسرائيليين أن هولاء الأعداء لن يغفلوا عنا ابدا وسوف يحاولون باستمرار انتهاز الفرص لاحتلال أرضنا وجرنا إلى التبعية. وان معركة التحرر الوطنى معركة طويلة قاسية تستلزم تضحيات هائلة ولن نصل إلى الاستقلال الحقيقى الا بتحقيق تنمية شاملة اقتصادية واجتماعية وسياسية لأنه لا حرية لمواطن فى بلد محتل ولا حرية لوطن الا بتحرير ابنائه جميعا من الفقر والمرض والجهل.

عدنا إلى الدراسة عقب العدوان الثلاثى فى شهرنوفمبر 1956، وبدأ ينفتح أمامى عالم جديد فى أدب الرواية والمسرح والقصة القصيرة والنقد وآخذت أتعرف على ألوان جديدة من الفكر السياسى والأجتماعى، بل وأخذت أتابع باهتمام قضايا النضال الوطنى والقومى وحرب فيتنام ومشاكل التفرقة العنصرية فى أمريكا وأفريقيا.. وأتردد على الندوات الأدبية اسمع وارى وأتعرف على الكتاب والنقاد وعلى دور الأدب والفن والثقافة القومية فى بناء مجتمع أفضل. بل شاركت مشاركة فعالة مع زميلى الراحل نسيم ابراهيم على مدى سنتين فى تنظيم برامج ندوة ناجى التى كانت تعقد أسبوعيا فى بيت ألأستاذ محمد ناجى بميدان الدقى في ذكرى الشاعر الكبير الراحل إبراهيم ناجى صاحب قصيدة الأطلال ويرأسها أستاذى الدكتور شوقى السكرى، وكثيرا ما قمت بدعوة الشعراء لإلقاء أشعارهم ودعوة المؤلفين لمناقشة كتبهم. وكان حضورى هذه الندوة يمثل لى لحظات راحة واسترخاء وهروبا من الام المرض التى كانت تنتابنى فى أغلب الأوقات.

وفى هذه الفترة التى قرأت فيها لشكسبير ومارلو وماثيو ارنولد و ت. س اليوت، تعرفت على الفرق بين الأدب الحقيقى وأدب الدعاية. الأدب الحقيقى يبنى الإنسان ويؤكد حريته ويساهم فى صياغة رؤيته لقيم العدل والخير والجمال. أما أدب الدعاية فهو أدب سطحى غوغائى كل مهمته هو الترويج لأفكار السلطة الحاكمة والطبقات المهيمنة. وهذا النوع لا يشبع تطلعات الإنسان الروحية والعقلية ولا يسهم أبدا فى قضايا التعليم والتربية – وهو سمة من سمات التخلف الثقافى والأجتماعى فى المجتمعات التى يحكمها العسكر او تسيطر عليها الديكتاتورية.

كتبت فى هذه المرحلة بعض القصص القصيرة، وبعض قصائد الشعر. ولم اهتم بالنشر ابدأ إلا بعد التخرج فنشرت فى 23 ديسمبر 1961 أول قصيدة عن تحرير القناة وكانت من الشعر التقليدى الجهير الصوت. وكتبت عن ثورة الجزائر ونددت بصفقة الأسلحة الألمانية لإسرائيل فى قصيدة من الشعر العامى. أذيعت فى احد برامج الإذاعة سنة 1964. وإلى جانب ذلك كتبت الأشعار والأغاني العاطفية التى كنت أقرأها فى الندوات والاجتماعات الخاصة مع اصدقائى. ولكنى لم أعتبر نفسى شاعرا ولم أرضى عن مستوى شعرى حتى وأن رضى عنه آخرون، وأخذت اهتم بالأشكال الأدبية ألاخرى وبخاصة المسرحيات العالمية واتابع الجديد وبدأ الاهتمام بمسرح بريخت فى مصر فأخذت أقرأ إعماله وترجمت عنه كتابا لأستاذ بجامعة كمبريدج هو رونالد جراى وهو دراسة موضوعية جادة لأعمال بريخت ونظرية المسرح الملحمى كتابة وإخراجا،

ولابد أن اعترف ان قصة نضال بريخت من أجل مسرح جديد يتناول قضايا الأنسان المعاصر قد بهرتنى فيها مواجهته للديكتاتورية النازية وسخريته من بيروقراطية الحزب الشيوعى واحتقاره للمجتمع الرأسمالى الأمريكى وتطلعه لعالم أفضل يسود فيه العدل والحرية. سلمت الترجمة لدار النشر 1965 وصدر الكتاب سنة 1972. نقلت لأحدى مدارس الجيزة فى خريف 1967. والتحقت فى 1968 بأول دفعة للدراسات العليا بمعهد الفنون المسرحية بأكاديمية الفنون. وحصلت على الدبلوم سنة

1970 بامتياز مع مرتبة الشرف وكان ترتيبى الثانى بعدد صبرى حافظ وجاء بعدى في الترتيب سمير عبد الباقى. كنا الثلاثة الناجحين من بين أفراد الدفعة وعددهم سبعة.

كانت خطة الدكتور ثروت عكاشة من الدراسات العليا التى أنشأها واختار لها الدكتور مصطفى سويف كعميد للأكاديمية، هو تخريج كوادر مؤهلة جيدا لتكوين هيئة التدريس بمعاهد الأكاديمية. ولكن حدث تغير سياسى 1970 بتولى السادات حكم مصر، وجاء إلى الأكادمية رشاد رشدى ليبدء عهد الشللية كعادته. وأضاع على فرصة التعيين بمعهد الفنون المسرحية إذ رفض مشروعى للماجستيرعن ألفريد فرج وطلب منى أن أكتب عن مسرحياته. لكنى لم أيأس وأخذت انشر مقالاتى بمجلة المسرح والمجلات الثقافية في الدول العربية. وفى نفس الوقت فكرت فى كتابة مسرحية تتناول صراعنا مع الصهيونية فى إطار تاريخى يصلح لمخاطبة الرأى العام العالمى الذى يجب ان يعرف هذا العدوان وأبعاده ضدنا وضد الإنسانية عموما. وهنا اتجه ذهنى إلى موضوع وثيقة التبرئة التى أصدرها الفاتيكان سنة 1966 لتبرئة اليهود من دم المسيح.

(حول تأثير هذه الوثيقة راجع كتاب (الإسلام والعروبة في عالم متغير) للدكتور عبد العزيز كامل.

كان غرض اليهود من هذه التبرئة هو التخلص من النصوص التى تتردد فى كنائس الغرب وتصب أللعنة على اليهود لأنهم قتلة المسيح. وبإزالة هذه النصوص المعادية فأنهم يضمنون تعاطف الأجيال الناشئة معهم حتى تنفتح لهم أبواب المعونات على مصاريعها لتدعيم إسرائيل الكبرى من النيل الى الفرات.

وعارضت الكنيسة المصرية الوثيقة ووقفت الصحافة المصرية فى عهد عبد الناصر ضد هذه التبرئة لأن مقاصدها سياسية واضحة لخدمة إسرائيل, وتأملت الأمر جيدا، وكتبت مسرحية القضية لأضع الجريمة الجديدة جريمة اغتصاب فلسطين أمام طلب التبرئة لأكشف عن هذا التناقض . فكيف تجوز تبرئتهم وهم يرتكبون المجازر كل يوم وكما يقول الراوى: فالجريمة المستمرة هى موضوع القضية والمحاكمة ماانتهتش لكن العدالة جاية.

وقدمتها للمسرح القومى سنة 1973 وتحمس لها المخرج سمير العصفورى وممثلو مسرح الطليعة وطلب من هيئة المسرح الموافقة على انتاجها وكتب تقريرا بتاريخ 10-10-1973 جاء فيه:

"ان هذه المسرحية تقدم فيضا من الكشف المستمر لبذور التآمر اليهودى ضد أنبياء الله، المسيح ومحمد كما تكشف عن جذور الإرهاب الصهيونى ومظاهره فى العدوان على شعوبنا العربية فى فلسطين والجولان وسيناء.

أنها رؤية مسيحية ورؤية وطنية ورؤية قومية فى آن واحد تكشف أن إسرائيل هى المرض وهى السرطان الذى يجب علينا ان نحاربه ونقضى عليه."

وهنا ظهر رشاد رشدى ليعترض طريقى فى المسرح أيضا، واستخدم نفوذه لتمرير مسرحيته "حبيبتى شامينة" واسناد اخراجها لسمير العصفورى بدلا من مسرحيتى. وكانت مسرحية رشاد رشدى تروج لفكر السادات وتشير من خلال الرمز"شامينة " الى ان فلسطين قد اغتصبت عن طريق الصدفة وان أخوة شامينة قد باعوها لأبناء سليمان أى ان العرب باعوا فلسطين. وقد سقطت المسرحية سقوطا ذريعاً وعرضت فى المغرب فهاجمها الجمهور المغربى وضربوا الممثلين بالبيض والطماطم. وكنت نقطة سوداء فى تاريخ المسرح وتاريخ الفنان سمير العصفورى.

ونتيجة لهذا قبرت مسرحيتى الصادقة المخلصة من اجل عمل مدسوس وفكر مغشوش وهكذا اضاع على رشاد رشدى فرصة الوصول الى خشبة المسرح كما اضاع على حقى فى وظيفة مدرس بالأكاديمية من قبل. وان دل هذا على شئ فإنما يدل على قوة الفساد المستشرى فى حياتنا السياسية والاجتماعية والثقافية فى وقت واحد. وفى وجه هذا الفساد كانت معركتى وسوف تظل مهما كلفنى الأمر من تضحيات. وهروبا من هذا الإحباط استقلت من وزارة التربية والتعليم سنة 1978 وتعاقدت للعمل فى ليبيا حيث قضيت ست سنوات فى التدريس بمدرسة بنغازى الثانوية. وفى عام 1984 تركت العمل هناك وعدت للبقاء بجوار أبنائى وأمهم الذين سبقونى الى مصر قبل ذلك بعام لاستكمال تعليمهم حيث حصل نبيل على الثانوية العامة ودخل كلية الهندسة بجامعة القاهرة وحصل ممدوح على الاعدادية بتفوق ودخل مدرسة أحمد لطفى السيد الثانوية بالهرم القريبة من بيتنا.

وفى عام 1985 انتدبت للتدريس بقسم اللغة الانجليزية بجامعة القاهرة حتى عام 2000 حيث أصبت بجلطة وأجريت لى عملية استبدال أربعة شرايين فتوقفت عن العمل بالتدريس وتفرغت كلية للتأليف والترجمة.

لقد نشرت "القضية" عن طريق وزارة الثقافة فى 1978 أى بعد خمس سنوات فقط!! وقد احتفى بها كثير من النقاد والمثقفين وقدم البرنامج الثانى بإذاعة القاهرة حلقة "مع النقاد" لمناقشة المسرحية تحدث فيها الدكتورمرسى سعد الدين رئيس هيئة الاستعلامات الأسبق والدكتورة نهاد صليحة أستاذة الدراما والناقدة المسرحية المعروفة وذلك فى يناير عام 1987.

قال الدكتور مرسى سعد الدين:

"من الأعمال القليلة التى تعالج موضوعا عالميا أثار الرأي العام فى العالم كله واختلفت حوله الآراء. وكان كامل حسين أول من تناول هذا الموضوع فى قصة "قرية ظالمة" ولكن مسرحية "القضية" تعمد من خلال هذا الموضوع الى تناول قضية العرب المركزية وصراعنا مع الصهيونية بأسلوب يخاطب العقل والوجدان ويصلح لمخاطبة لرأى العام العالمى. لقد تفادى المؤلف الوقوع فى الدعاية بسبب المعالجة الإنسانية النزيهة. أنها عمل جرئ ومثير وهام وكان يجب أن يجد طريقه إلى المسرح. أن القضايا الفكرية والمصيرية الهامة تحتاج إلى أعمال أدبية من هذا النوع لأنها تحسن مخاطبة الآخرين بعيدا عن أبواق الدعاية والإعلام

أما الدكتورة نهاد صليحة فقد أسهبت فى مناقشة أسلوب الصياغة الفنية واستخدام عنصر الفنتازيا فى مشهد المحاكمة وقالت:

"ان فيها جرعة فكاهية كبيرة وقيافا (رئيس كهنة إسرائيل فى زمن المسيح) يبدو شخصية كوميدية رائعة. انه نمطى ولكنه شخصية متكاملة وإنسان له وجهة نظرنتيجة السماحة الدرامية. والمؤلف ادانه عن طريق الكلام الذى يقوله. انه شخصية محبوبة. انه الشيطان خفيف الدم. المحاكمة فيها خيال وفيها إبداع حقيقى. واللغة الخاصة تساهم فى خلق الفكاهة إلا أن الخلط فى أساليب الصياغة المسرحية هو المشكل بالنسبة لهذه المسرحية.

والواقع ان المسرحية كانت تجربة جديدة فى الشكل والمضمون ولن يتوقف الحديث عنها طالما أن صراعنا مع الصهيونية مستمر. وقد ناقش الدكتور عبد المنعم تليمة أستاذ الأدب الحديث بجامعة القاهرة مسرحية "القضية" فى ندوة الأتيليه فى 2/2/ 1987. ومما قاله الدكتور تليمة:

"ذكرتنى هذه المسرحية بأسئلة غريبة تقال عن أدب نسائى. ويكاد السؤال أن يرد عن أدب قبطى. ممكن طبعا. ممكن أن يبرز من بين ظهرانينا من الأقباط من يعالج باستنارة رفيعة هذه الموروثات من منظور مسيحى فى إطار الوطنية المصرية وقومية العرب.

بنفس التوقع أن يبرز من بيننا مسلمون يعالجون أدق الموروثات الدينية فى هذا الإطار العقلانى المستنير. اذن هو يستدعى صلب المسيح ويدير عليه الأمر فى صلب الفلسطينى الآن فى هذا الزمن الردئ، وهو يقيم موازاة بين هذه الموروثات التى تعايشها الجماهير وتحيا بها وبين قضية القضايا لهذه الجماهير فيصبح الأمر واحدا، فالقضية هى هي. قضية الوثيقة على هذا المحور التاريخى، هذا الحدث الكبير فى تاريخ البشرية. وهذا الصراع الصهيونى.

كان يمكن وهو بالفعل اقام الأمر على هذه الموازة أن يكشف ما يمكن أن يكون إنسانيا فى الأمرين جميعا. فى أمر دور اليهود فى الصلب وفى دور الصهيونية فى تدمير فلسطين واستطاع أن يقرن بين إسرائيل والحضارة الغربية.

واضح أن نسيم قارئ ممتاز لأمثال بريخت وبيتر فايس – والمشكل فى هذا المسرح انه يعتمد موهبة عالية لأنه يعتمد على الحياة اليومية. وأشهد ان نسيما فى كثير جدا من المواضع قد أفلح فى أن يكون مهتديا بهذين الرائدين الكبيرين، واستطاع بالفعل عن طريق الحوادث الكبرى فى التاريخ أن يقيم هذه الموازاة.

- أن يقيم موازاة بين خروج اليهود من مصر وخروج العرب من فلسطين.

- استطاع أن يوازى فى داخل الجماعة التاريخية الواحدة للمجموعة العربية بين الموروثين المسيحى والأسلامى وان يجعل هذين الموروثين يتجسدان فى شخوص حية تجرى فى عروقها الدماء الحارة البشرية. هذه الموازاة بين الخروجين وبين الموروثين موازاة ناجحة جدا هى سر نجاحه وتفوقه لأنه وضع فى ذهنه معتنقا

وواعيا أن ثمة موروثين فى داخل الجماعة القومية الواحدة، وهما الموروث المسيحى والموروث الأسلامى، وأن ثمرة المعاصرة الحقيقية هى تفاعل الموروثين ولكن مسرحيا لا يمكن الإعلان عن ذلك، فلابد من تجسيدهما فى شخوص بعينها وقد تحقق ذلك فعلا فنجد السيدة المسيحية مارى تستنجد بالبطل منصور الخارج من المسجد. هذه الدماء الإنسانية الحارة فى داخل الجماعة هى بالفعل الحداثة والوطن. بمعناه الحديث الذى تذوب فيه وتتمازج وتتفاعل مورثاته القديمة والوسيطة والحديثة وتصبح هديا للجماعة فى تاريخها المعاصر.
وقفت عند هذين المورثين لأرى فيهما ماسكا ينتظم العمل الفنى من أوله ألى أخره وهذا توفيق فنى يحمد له.

كتبت بعد ذلك مسرحية "لقاء على القنال" 1974 وهى مسرحية وطنية ايضا ثم نشرت مسرحية " المجنونة " 1988. وهى كوميدية اجتماعية تعطل انتاجها

وقد كتب الناقد الكبير الراحل جلال العشرى مقالا عن هذه المسرحية فى مجلة (القاهرة) عدد أكتوبر 1988 قال فيه:

" تؤكد هذه المسرحية ان الجنون فى روح. العصر وليس فى طبيعة أبناء العصر.
وقد استطاع المؤلف بحساسيته المسرحية المرهفة أن يطور من صياغته الواقعية، مقدما إضافة جديدة إلى الفن الدرامى، وهى الإضافة التى تبتعد عن التجريبية الساذجة، بقدر ما تبتعد عن الواقعية المباشرة، فالواقعية هنا مشحونة بالمعنى والدلالة، حيث يجدل الواقع والرمز فى نسيج واحد، وحيث تومئ الشخصية المتفردة المرسومة بكل دقة وعناية الى معنى اكبر منها دون أن تتردى للحاظة واحده فى هوة الرمز أو التجريد".

وهنا أنقل رأى المخرج الكبيرالأستاذ حسن عبد السلام في هذه المسرحية الذى كتبه للمسرح القومى حيث قال:
قرأت نص مسرحية المجنونة فسعدت بها لأنها أعادت للمسرح المصرى نوعا مسرحيا افتقدناه وهو مسرح العائلة التى هى نواة المجتمع ولها وبين سطورها الكثير من العبروالعظات والإنذارات والكشف والتعرية والصدق الكامل فى الرسم والنحت والتشكيل والبحث فى الأغوارالإنسانية. المجنونة عمل طيب صياغة فنية راقية
هذا رأى فى العمل الذى أحب أن أخرجه بإذن الله مع شكرى.
المخرج حسن عبد السلام
1997 -6-17

ومع ذلك رفضت الدكتورة هدى وصفى، وكانت تتولى إدارة المسرح القومى، رفضت الموافقة على قيامه باخراجها بحجة إنه مريض وتعبان صحيا.

المجنونة رؤية رجل لعالم المرأة
وتحت هذا العنوان كتبت الآستاذة ناهد نجيب تقول:

كان اختيار الكاتب لموضوعه مسألة فى غاية الأهمية لأنه يتحدى واحدة من المفاهيم الإجتماعية السائدة التى تقوم على أساس أن المرأة غير المتزوجة هى إمرأة معقدة.
لهذا فإنه يصف بالتفصيل المواقف الكثيرة التى ضحت فيها من أجل هذين الأخوين دون أن تفكرفى نفسها، وهما الآن لايهتمون بمشاعرها، لكن الكاتب يبدو فى كثير من الأجزاء وكأنه يقبل هذه الفكرة ويتحداها فى نفس الوقت، ومن ثم فإنه ينهى الصراع فى المسرحية بالزواج. وفى أجزاء أخرى يظهر بصيرة ثافبة وعميقة، عندما يصر على حق المرأة الوحيدة فى ان تخرج ألى المجتمع حينما تريد، كما يصر على حقها فى الحرية واختيار الزوج الذى يناسبها..

زد على ذلك أن الحوار فى المسرحية يتميز بالسلاسة والدهاء، تصويره للشخصيات يتراوح بين التصوير الكريكاتيورى كما فى رسمه لشخصية الخواجة كرياكو كاتونيللو طبيب الأسنان، الذى يحاول الكاتب من خلاله أن ينطق ببعض المفاهيم التى مازالت غريبة على مجتمعنا، وكذلك تصويره لشصيتى أخويها وتصويره لشخصية ناهد فإنه يتصاعد من التصوير من الخارج وتصويرها من الداخل ومحاولة استيطان أعماقها ومشاعرها الداخلية، التى تكشف عن حقيقتها كفتاة أسىء فهمها بقسوة من المجتمع المحيط بها والبذات أخونها.

المسرحية جزء من المسرح الواقعى الذى كان رائده الأول والمدافع عنه الأستاذ نعمان عاشور. رغم إغراقها فى الواقعية فإن هذه المسرحية تعكس افكارا جديدة وكما قلنا إنها تتحدى مسلمات مقبولة اجتماعيا إلا أن الأمر لايزال هو عالم المرأة كما يراه الرجل، وقد يبدو من الغلظة أن نلومه على ذلك.

+ كتبت الآستاذة ناهد نجيب هذا الحديث باللغة الآنجليزية وأذاعته في الرنامج الأوربي بأذاعة القاهرة وقمت أنا بترجمة النص الذى أهدته إلى مشكورة.

.....

المهم أننى لم أتوقف عن العمل فكتبت اربع مسرحيات أخرى أهمها" مأساة طبيب الخليفة " التى نشرت فى صحيفة "مسرحنا " فى بونية 2014ُم ونشرت فى كتاب عن طريق منتدى الشرق الأوسط للحريات 2016،
كتبت تراجيكوميدى من فصل واحد باسم "عيال وفيران" ومسرحية شعرية ساخرة باسم " عندما التقى السندباد بشهرزاد "

أما فى باب االترجمة فقد ترجمت ست مسرحيات من الأدب الأفريقى لشاعر نوبل 1986 والمناضل الأفريقى الجسور وول شوينكا هى " الموت وفارس الملك"، و"الأسد والجوهرة" قدمهما مسرح الهناجر 1997 ،1999 من إخراج الفنان الشجاع والمبدع أحمد عبد الجليل، ونشرت كلها بالمركز القومى للترجمة، ومنها:
" سكان المستنقع" و"حصاد كونجى" و" السلالة القوية " و"عابدات ياخوس " وهذه المسرحية إعداد جديد قام به شوينكا للنص الإغريقى الذى كتبه يوريبيديس. كما ترجمت له أيضا كتاب نقدى بعنوان " الأسطورة والأدب والعالم الأفريقى" إضافة ألى قصة " مذكرات سجين" االتى كتبها عن فترة سجنه التى امتدت من 1965إلى 1967 لأنه كان ضد حرب بيافرا التى أشعلها أصحاب المصالح من أعوان الاستعمار.
أما حسن الختام فكان اربع مسرحيات من روائع المسرح الإنجليزى هي:
1-"تتمسكن حتى تتمكن" لأوليفر جولد سميث،
المركز القومى للترجمة 2010
2-"مدرسة الفضائح" لريتشارد شريدان،
المركز القومى للترجمة 2011
3-"هذه حال الدنيا "لوليم كونجريف،
المركز القومى للترجمة 2012
4- ثم "رابطة الدم" لأتول فيوجارد وهو كاتب انجليزى من أصول إفريقية 2015.

وهذه االأمور التي عرضتها هنا إنما تدل على اننى بدأت ككاتب طليعى أطمح إلى الابتكار والتجديد واقف على ارض ثايته، هى أرضية الواقع اجتماعيا وفكريا وثقافيا. وبنفس المستوى سرت فى طريق النقد يتأكد ذلك من كتبى مثال:

1- ابن سيناء القرن العشرين 1988.
2- أمل دنقل - أمير شعراء الرفض 1988.
3- لويس عوض ومعاركه الأدبية 1994.
4- صدام الأصالة: محمود شاكر ولويس عوض 1988.
5- لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة لابن مماتى. تحقيق وتقديم -هيئة الكتاب 2000
6- حنين بن اسحق وعصر الترجمة العربية-المجلس الآعلى للثقافة 2006-
7- بطرس بطرس غالى وحلم المدينة الفاضلة- دار الشروق 2010
8- شخصيات لها تاريخ- الهيئة العامة للكتاب 2015
9-دراسات في النقد والمسرح- هيئة الكتاب 20199-
10- -ألفريد فرج سندباد المسرح المصرى 2024

بالأضافة إلى ترجمتى للكثير من الكتب الهامة نذكر منها:

1- بريخت تأليف رونالد جراى، طبعة مصغرة، هيئة الكتاب 1972
2- ترجمة عشرين مدخلا فى الموسوعة العربية العالمية- مؤسسة نشر الموسوعة بالمملكة العربية السعودية 1996
3- الحب عند الفرنسيين تأليف: نينا إبتون -مجلة الهلال عددى يونية ويولية 1977
4- الأسد والجوهرة تأليف: وول شوينكا-المسرح العالمى بالكويت،1997
5- القديس مرقس وتأسيس كنيسة الإسكندرية هيئة الكتاب 1999
6- حصاد كونجى، وسكان المستنقع، مسرحيتان لشوينكا 2000
7- فرانز كافكا تأليف: روناد جراى المشروع القومى للترجمة 2000
8- محاكمة سقراط. تأليف: آى إف ستون.....2001
9- العصر الذهبى للإسكندرية- تأليف: جون مارلو 2002
10-ثلاث مسرحيات لشوينكا (الموت وفارس الملك، عابدات باخوس، والسلالة القوية) المشروع القومى للترجمة 2004
11-كيف نقرأ ولماذا- هارولد بلوم – المركز القومى للترجمة 2010

12-مذكرات سجين لوول شوينكا – المركز القومى للترجمة 2013
13-بريخت رجل المسرح- رونالد جراى- المركز القومى للترجمة 2014
14-الآسطورة والآدب والعالم الآفريقى لوول شوينكا –
المركز القومى للترجمة 2016

فإذا أردنا التعرف على قيمة كتبى فإنى أترك الحديث عنها لكبارالمفكرين والنقاد بدأ بكتاب:

"ابن سيناء القرن العشرين"

يقول المفكر الكبير الراحل الدكتور حسين فوزى فى تقديمه للكتاب:

"هذا الكتاب يكشف لى عن سر من أسرار البلاغة في معتى الإستشعار بعبقرية شخص ما من أول أمره، أوبعد قليل من لقائه وقيام صداقة بينه وبين كاتب هذه السطور، كتاب الأستاذ نسيم مجلى تحليل بليغ نيرلعبقرية محمد كامل حسين، يتناول أهم مؤلفاته بالفحص والشرح والإبانة عما فيها من فكرعميق، مصبوغ فى أسلوب هو الجزالة بعينها، فلا هو استعراض لغوى، ولا تألق نحوى، وإنما ذلكم البناء الشامخ يقوم على منطق علمى"

هذا تقييم مفكرعلامة كان يزن امور العلم والفكر والأدب بميزان دقيق مثل موازين الذهب وأنا أستغنى بهذا عما قاله آخرون حتى لا أطيل –

أما كتاب " أمير شعراء الرفض-أمل دنقل" فسوف يأتي الحديث عنه غى الجزء الأخيربعنوان " النقد والمصادرة"

ثم نأتى ألى أهم هذه الدراسات وهو كتاب:

" لويس عوض ومعاركه الأدبية"

لقد اختلفت الآراء وتناقضت حول لويس عوض وأفكاره وانتماءاته وكان لابد أن يتصدى لهذا الأمر باحث جاد يضع كتابات هذا المفكر والناقد الكبير موضع الفحص والدراسة النقدية الموضوعية فى ضوء الآراء المختلفة حوله ليكشف ضمن رؤية شاملة موقف هذا المفكر بين تيارات الفكر العربى المعاصر.

وقد أخذت منى هذه المهمة أكثر من خمس سنوات حتى أنجزت هذا الكتاب فيما يقرب من ستمائة صفحة من القطع الكبير ونشرته هيئة الكتاب بمصر سنة 1995. وقدمه الناقد الكبير الأستاذ الدكتور شكرى عياد بكلمة نشرت على غلافه الأخير جاء فيها:

"ان الكتاب قد " استوفى عرض المشكلات الأدبية واللغوية التى تعرض لها لويس عوض والاعتراضات التى سيقت ضده، وذلك بأسلوب موضوعى متزن.
وأعتقد أن نشر هذا الكتاب يفيد فى إنصاف مفكر كبير نعتز بإسهامه، وتبرئته من تهمة التعصب الطائفى التى رماه بها بعض الكتاب، وان كانت أحكامه التاريخية قد تصيب وقد تخطئ، وهذا أمر يتفق لكل كاتب، ولا ينبغى أن يعزى إلى سوء نية.
والأستاذ نسيم مجلى يتحرى الأمانة العلمية ولا يتردد فى قبول النقد الصحيح الذى وجه إلى لويس عوض فى بعض دراساته، وربما وجه نقدا من عنده. فكتابه هذا جهد طيب فى سبيل تصحيح أساليب النقاش بين الباحثين والأدباء ".

هذا رأى الدكتور شكرى عياد، وهو ما هو بين كبار الباحثين والنقاد، أما التقديم الثانى الذى نشر فى صدر الكتاب فقد كتبه المفكر القومى الكبير الدكتور مصطفى الفقى الذى يصفنى كناقد بالأمانة والجدية حيث يقول:
وعبر الصفحات القادمة من هذا الكتاب يكشف المؤلف الأستاذ "نسيم مجلى" وهو مثقف مصرى أمين عن معارك "لويس عوض" والصراعات التى خاض غمارها طوال حياته ثم يختم تقديمه بقوله:
" اننى أدعو القارئ الى جولة ممتدة عبر صفحات هذا الكتاب القيم الذى يقدم ومضات رائعة من حياة مفكر مصرى عظيم بقلم مثقف مصرى جاد. "

وفى ظل المناخ الثقافي العام التى تسيطر عليه أفكار السوق وثقافة الاستهلاك الى جانب تيار التعصب الدينى المعادى للويس عوض ولى أيضا، فأن الكتاب لم ينل ما يستحق من المناقشة الجادة فى صفحات الأدب أو برامج الإذاعة والتلفزيون. ففى حين حظى كتاب " أمل دنقل " بحوالى عشرين مقالا فى مصر والعالم العربى من الخليج ألى المحيط، فان ما كتب عن كتاب " لويس عوض " لا يزيد عن عشر مقالات داخل مصر فقط كتبها رجال لا يهابون فى الحق لومة لائم.

ولنبدأ بعمود واحد نشره الكاتب الصحفى الكبيرالاستاذ محمود عبد المنعم مراد فى مجلة أكتوبر (العدد 962 الأحد 2 ابريل (نيسان) 1995) جاء فيه:

"وكما قلت منذ ثلاثة أسابيع، ومازلت أقوله حتى الأن، إن تناول حياة وآثار لويس عوض لا يخلو من مخاطرة ومغامرة. لأن الطريق شائك وملغوم. ولكننى لم أبال بالشوك وقلت ما أعتقد أنه حق، وما يغضب كثيرا من الناس. وبعض القراء كان سعيدا بما قلت. وكان من بين هؤلاء الأستاذ نسيم مجلى الذى وضع كتابا ضخما فى قرابة ستمائة صفحة عنوانه "لويس عوض، ومعاركه الأدبية" وأنا أعلم أن كثيرين سيقولون عن دفاع نسيم مجلى عن لويس عوض، أنهما ينتميان إلى دين واحد. غير أن هذا الخاطر لم يزعجنى ولم يمنعنى عن التنويه هنا بهذا الموضوع الشامل. من طبعى ألا أقيم وزنا للحرج الذى يصيب الكثيرين عندما يكتبون عن شخص يستدعى فى خواطرهم دينه وتوجهه السياسى، فالعبرة عندى بالموضوع والحقيقة العلمية التى اقتنع بها، ومن ثم طالعت الكتاب، أو أجزاء كثيرة منه واعجبنى ما فيه من موضوعية وصدق، ورجاحة عقل وإحاطة بالآثار الأدبية المهمة التى تركها لويس عوض للأجيال. وقد أعجبنى كذلك ما كتبه زميلى وصديقى محمد شكرى عياد الناقد الموضوعى المؤهل للنقد،

لأبد أن أشير بعد ذلك إلى مقال الدكتور عاطف العراقى أستاذ الفلسفة الإسلامية والمفكر الشجاع الذى شارك فى مناقشة الكتاب فى نادى خرجى اللغة الإنجليزية مع الدكتور مرسى سعد الدين والدكتورماهر شفيق والدكتور وجدى زيد. ومقال الدكتورعاطف نشر بمجلة عالم الكتاب عدد يوليو/أغسطس/سبتمبر 1996 " وسأكتفى بسطور قليلة فى تقديره لمنهج الدراسة إذ يقول:

"وقد أجاد الأستاذ نسيم مجلى كل الإجادة فى تحليل المؤثرات الثقافية والفكرية والاجتماعية التى أدت دورا هاما فى بلورة رأى أو أكثر من أراء مفكرنا الشامخ لويس عوض. ولم يكن مكتفيا بمجرد العرض بل كان يلجأ باستمرار ألى التحليل والمقارنة والموازنة بين العديد من تلك المؤثرات، وكيف أدت دورا يختلف شدة وضعفا، اذا قارنا بين مؤثر ومؤثر أخر من تللك المؤثرات، وهذا يعد غاية فى الموضوعية والدقة ويكشف عن الثقافة الموسوعية الشاملة عند نسيم مجلى"

ثم يقول فى موضع آخر من مقاله:

" ويحلل الاستاذ نسيم مجلى، تحليلا غاية فى الدقة والأمانة العلمية والأكاديمية ما أثير من معارك وقضايا حول هذه الموضوعات. لقد أحاط نسيم مجلى بهذه الآراء والقضايا إحاطة دقيقة، واقول للقراء الأعزاء إن ما كتبه نسيم مجلى حول هذه الآراء والقضايا يكشف عن ثقافة واسعة ودقيقة، ولا غنى عنها لكل المهتمين بهذه القضايا التاريخية والنقدية"

ثم يختم مقاله بهذه الجملة:

"واذا كان لويس عوض قد دخل تاريخ فكرنا العربى المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها، فقد دخل أيضا كتاب نسيم مجلى عن لويس عوض من أوسع الأبواب

فى تاريخ المؤلفات العميقة والأكاديمية والجادة فى مكتبتنا العربية، وما اقلها وما أندرها"

- **وعن هذا الكتاب أيضا تحدث الدكتور صلاح فضل فى برنامج "مع النقاد" حيث أفاض فى تحليل جوانب كثيرة من هذا الكتاب نكتفى منها ببعض الفقرات القصيرة مثل:**

"انه كتاب حقيقة هام فى تاريخ الفكر والأدب والثقافة فى مصر، لا لأن مؤلفه قد بذل جهدا كبيرا فى البحث والتحرى والمتابعة لمجموعات من الصحف المهملة عبر نصف قرن كامل بل لأنه لم يقتصر على المادة المباشرة للمعارك بل امتد اهتمامه الى الروافد الجانبية التى تضئ الإشكالات وحاول أن يجمع بين التحليلات التاريخية والفكرية بنفس طويل ومعرفة موصولة. ومع انه كان مفعما بالإعجاب بلويس عوض ومتبنيا الدفاع عن مقولاته باعتباره نموذجا للمفكر الأديب إلا انه فى مواقف كثيرة يحاول أن يزن الأمور بمنظوره هو ويأخذ المسافة المتباعدة الضرورية بينه وبين لويس عوض"

ثم يقول صلاح فضل:

مسألة العام والخاص فى الكتاب نجد انه يدور حول شئ محدد. هو لويس عوض ومعاركه الأدبية، وهى معارك فكرية ثقافية شاملة. ما يتجلى فى الكتاب انه لا يحكى قصة الصراعات والمعارك وإنما يحكى التحولات والنضج فى داخل التيار الواحد، فى موقف لويس عوض مثلا. تحول صلته بالعقاد، ثم علاقته بطه حسين وتحول طه حسين نفسه. صفحات بالغة الأهمية فى هذا الكتاب.

كذلك وصف مشهد التعددية الفكرية فى الخارطة الثقافية ودفاع لويس عوض المستميت عن هذه التعددية، والجدل الخصب المثير بين أطرافها. أرى ان الكتاب لا يقتصر ولا يمكن أن تكون قيمته تاريخية لآن الماضى هو سبيل الكشف عن الحاضر. تأمل التاريخ وهو وسيلة معرفة المكونات التى تفعل فينا الآن. وهذا ما تفضل بالإشارة إليه الدكتور مراد وهبة. مثلا دعتنى كلمات الدكتور لويس عوض عن طه حسين الى المرور بلحظة خاطفة من الإدراك العميق للتحولات فى شخصية المفكر فى مصر.

النظرة الشمولية الكلية التى تفضل الدكتور مراد وهبة بإبدائها عن الخط الاساسى فى فكر لويس عوض هى التى تحدد طبيعة المعارك وموقفه فلسفيا وفكريا. وهو امتداد ناضج مكتمل الأدوات ومتسلح بعناصر معرفية ومنهجيه ومتشرب للمناخ وقدرته على التأثير فى تلك المدرسة العلمانية التى لا تتنامى فى فكرنا الآن بالضرورة اللأزمة لمقاومة التيارات المعادية لها.

وسوف أختم هذا الجزء من الكلام عن كتاب "لويس عوض ومعاركه الأدبية" بكلمة الدكتور أنور لوقا أستاذ الأدب المقارن والترجمة بجامعة ليون بفرنسا والدكتور لوقا مشهور جدا فى ميدان الدراسات العربية والإسلامية على مستوى العالم كله. وقد أرسل لى هذا الراى فى خطاب خاص فى 12/ 11 / 1996 بعد قراءته للكتاب، حيث يقول مخاطبا شخصى:

" كانت مفاجأة عظيمة أن أعود من رحلة الى تونس فأجد فى انتظارى كتابك الكبير"لويس عوض ومعاركه الأدبية". وإذا بقراءة صفحاتك تجرفنى وتستغرقنى، وتوقظ شعورى بتقصيرى فى الكتابة إليك وأنت فى صميم المعمعة.
إنك حققت بهذا الكتاب عملا شاملا، مرجعيا يتجاوز فردية لويس عوض لأن ما خاضه من معارك "ادبية" يتجاوز شخصه ويفتح على الملأ مشكلات الفكر المصرى بمختلف دلالاته – مقوماته ومقاوماته- فى الوثب نحو المعاصرة. انه تاريخ لأطوار انتقال وإنضاج جوهرية برزت فيه تيارات مختلف العقليات واشتباكاتها. لا غنى للباحث فى تاريخنا العقلى عن الرجوع الى فصولك، وهى فصول متنبهة، لا تتجنب مواضع الحرج والإحراج، بل تدقق فى التعريف بها وفى تحليلها مع الاستشهاد بنصوص بما يظهر فى أعماق الخلاف نقاط الالتقاء.

هذه الروح الايجابية الصادقة هى ما نفتقده. إن كتابك درس فى الشجاعة الأدبية والصبر، والبحث الرصين، والحوار النزيه، والإقبال على خدمة الآخر. انه تطبيق واقعى للمثل الأعلى الوارد فى الموعظة على الجبل:
" من سخرك لتمشى معه ميلا، رافقه فى المشى ميلين " وقارئ كتابك لا ينهل منه ثقافة جامعه فحسب، ووعيا مرهفا فحسب، بل يتلقى هذا الدرس الجليل فى التعامل بالصراحة والمودة مع النفس ومع الغير، وهكذا يتحول القارئ عبر صفحاتك السلسة المشوقة الراقية إلى إنسان متحضر.
انى أرجو لكتابك هذا أوسع الانتشار فى العالم العربى، لأنه خير تلبية لحاجات مجتمع متأزم تنكر لقيمه الأصيلة، وفى الخارج لأنه يؤدى رسالة إنسانية منعشه. وأشكرك بوجه خاص على إهدائك الرقيق على كل ما شرفتنى به من ثناء وتقدير بالغت فى اضفائهما على محاولتى المحدودة، بينما أغنيتنى بفصولك المستوعيه عن قراءة كتب كثيرة ومقالات كثيرة: وفى حديثه عن بعض فصول الكتاب قال الدكتور أنور لوقا:
راعنى مقال "محاكمة فقه اللغة العربية" بوضوحه ودقته التوثيقية وموضوعية العرض وشجاعتك للتصدى لهذه القضية بالحكمة فى هذه الظروف الحالكة. وسيبقى مقالك هذا من المراجع فى تاريخ حرية الفكر. (نشر هذا الفصل من كتابى بمجلة فصول نوفمبر 1992).
وفى رسالة خاصة قال الدكتور لوقا عن فصل آخر فى الكتاب:
استمتعت بمقالك المعنون "رموز الشعر الحديث" لما فيه من إرهاف الإصغاء الى المهموس فى مقاصد الشعراء، والمستخفى من النوايا فى إجراءات الهيئات الرسمية، واستيعاب أعمال الأدباء والنقاد، ومتابعة الخيوط التى تمتد خلالها لترسم أطوار تحرك جديد، مع الاستشهاد التوثيقى بالنصوص وبالآراء، والمقابلة بين التواريخ. كل ذلك فى سلاسة ورصانة تتوسم الخير وتتعقبه الى أن تجلو فى تعمقه درسا تزجيه هدية للخصم إيجابية بدلا من مهاتراته. وهذه كتابة – فى مقام المعارضة- صادرة عن التعاطف والمحبة. وهى اللغة التى يفتقدها المجتمع المصرى المذعور حاليا، إذا تركت له ضجة الهياج والانفجارات ورعدة الخوف مجالا للاستمتاع.

"وأما محمود شاكر فأنك تعالجه من زوايا حكيمة (ولم أقرأ لهذا الرجل سوى ما استشهدت به فى مقالك "رموز الشعر الحديث" والحق انك تمثل الضمير اليقظ فى وقوفك بالمرصاد، والتعاطف الودود فى إقبالك على الحوار. أدعو لك من صميم القلب بمزيد من القوة الراسخة وتمام التوفيق."

وبصدور كتاب "صدام الأصالة والمعاصرة –محمود شاكر ولويس عوض" فى سلسلة كتاب (الاهالى) يونيه 1988 يكتمل هذا المشروع النقدى الذى بدأ بكتاب "لويس عوض ومعاركه الأدبية 1994". ولم يكن همى محصورا فى شخص لويس عوض أو فكره فقط بل إهتمامى الأساسى كان هو تيارات الثقافة المصرية على مدى نصف قرن أو يزيد، وإختيارى الأساسى للويس عوض كمحور لهذه المعارك لأنه كان يقف على خطوط التماس والاحتكاك بينها جميعا على أرضية الوطنية المصرية والحرية والديمقراطية فلم يعط نفسه لليسار الماركسى وانما انتقده نقدا مريرا ولم يعط نفسه للقوميين والبعثتين بل وناصبهم العداء وكشف عن طموحاتهم التوسعية ووقف من الأخوان المسلمين ودعوتهم موقف الخصومة الشديدة. وهذه هى القوى الثلاث التى لا زالت تعمل على تشويه فكره واثارة العداء له حتى الآن.

إزاء هذا كان موقفى هو كشف هذه التيارات من خلال مناقشة وتحليل هذه المعارك دون خوف أو رهبة. والحمد لله اننى نجحت فى ذلك بما لا يقوى عليه كثيرون. وقد نبهت فى ص 21 من كتاب "لويس عوض ومعاركه الأدبية" إلى هذا الاتجاه فقلت:

"ولا شك أن هذا التضارب فى الآراء يعطى هذه الدراسة مشروعيتها وأهميتها فى آن واحد. فليس لهذه الدراسة من غاية إلا تصحيح زاوية الرؤية بالنسبة لكتابات الدكتور لويس عوض ومواقفه، وكذلك بالنسبة لمواقف خصومه وناقديه "وهذا ما فعلته بمنتهى الدقة والجدية والشمولية.

وحرصا على هذا الجانب الشمولى، خصصت ثلاثة فصول للحديث عن العلامة محمود شاكر – حياته وفكره. ومحاولة للدخول مع هذا المفكر فى حوار بعنوان "من القطعية الى الحوار" وقد نشرت هذه الأبحاث ضمن كتاب "صدام الأصالة والمعاصرة" وكانت هذه الأبحاث معدة لتنشر بعنوان "شاكر ومفهومه للأصالة الثقافية" ألا إن هيئة التحرير رأت إضافة فصل لتذكير القارئ بموضوعات المعركة التى قادها شاكر ضد لويس عوض سنة 1965، وحتى يأخذ الكتاب حجما معقولا أضفت لها فصلا بعنوان "وقفة بين كتابين" واخترت للكتاب عنوانا شاملا ولافتا وهو صدام الأصالة والمعاصرة – محمود شاكر ولويس عوض"

ولن أطيل فى الحديث عن هذا الكتاب بل سأكتفى بنقل هذه الفقرة القصيرة من المقدمة ص 12 حيث قلت:

"وأنا هنا أتحدث عن شاكر للتعريف به وبفكره كما فعلت مع لويس عوض لأن اهتمامى الأول ليس منصبا على هذين القطبين فقط، وإنما اهتمامى الأساسى هو التعريف بأصول المشاكل فى الصراع الجاد بين دعاة الأصالة ودعاة المعاصرة،

وأجراء الحوار بين التيارين دون خوف أو رهبة، وبعيدا عن عقدة النقص وعقدة الاستعلاء، وهو حوار يقوم على الاعتراف بحق الأخر فى الاختلاف، وذلك لتحقيق الوحدة من خلال التنوع وليس عن طريق قهر تيار لحساب تيار أخر واستبعاده. فالتنوع هو الذى يمد ثقافتنا بالحيوية والمغايرة والإبداع، وهو حق طبيعى من حقوق الأنسان، فضلا عن كونه مصدر لتحرير العقل من أثقال التقاليد التى تشده الى الوراء وتلقى به فى كهوف الانغلاق المظلمة، ودفعا لمنهج الحوار وترسيخه فى حياتنا المعاصرة، أقدمت على هذه المحاولة "

أما الدكتور عبد العزيز الدسوقى فقد نشر مقالا طويلا بجريدة وطنى (16مارس 2003) بعنوان " لويس عوض بين نسيم مجلى وبينى" استهله بالقول:

سعدت بهذا الكتاب وقرأته مرتين على الرغم من صفحاته التي تقترب من الستمائة صفحة وعلى الرغم من أننى كنت من أكثر المهاجمين للدكتور لويس عوض شراسة وعنفا أشار هو إلى ذلك في بعض كتبه ونقلها في هذا الكتاب نسيم مجلى. وكان يشير إلينا (أي إلى عبده بدوى وعبد العزيز الدسوقى بكتاب مجلتى" الرسالة " و" الثقافة " ولا يذكرنا بالإسم احتقارا منه لشأننا.

ثم يقول الدسوقى: إننى أخطأت في مقال واحد كان عنوانه "التيار المشبوه الذى يقوده لويس عوض" ونشر في مجلة " العلوم" البيروتية، ولعل هذا ما أثار الدكتور لويس ولكننى لم أكن أقصد أى تيار صهيونى فقد كان المقال نقدا لقصيدته الرديئة.أما مقالاتى الأخيرة فقد كانت نقدا موضوعيا لشطحات لويس عوض وأخطائه،
ومع ذلك -وقبل كل ذلك-فإننى سعيد بهذا الكتاب الكبير وأعتبره موسوعة علمية في الدفاع عن لويس عوض، وبيان إنجازاته العلمية والفكرية، وهو على الرغم من تعاطفه الشديد مع الدكتور لويس عوض كان موضوعيا في أحكامه ومناقشاته ويقبل بعض الأخطاء الفكرية والعلمية التي وقع فيها لويس عوض، وهو يذكرنى بكتاب سعيد العريان عن " مصطفى صادق الرافعى" ووجه الشبه هو هذا الإخلاص والحب الذى بذله المؤلفان في تجلية صورة هذين الرائدين.

ثم يضيف الدكتور عبد العزيز قائلا: والكتاب رحلة شاقة ومضنية بذل فيها الأستاذ نسيم مجلى مجهودا كبيرا يفوق الوصف وتناول كثيرا من القضايا والمواقف المعقدة الشائكة بأسلوب علمى وتناول أدبى يثير المتعة والجذل، وأنا أتفق مع ماقاله الدكتور شكرى عياد في وصفه للاستاذ نسيم مجلى انه " يتحرى الأمانة العلمية ولا يتردد في قبول النقد الصحيح الذى وجه إلى لويس عوض في بعض دراساته وربما وجه نقدا من عنده "ولو كان هذا الكتاب رسالة دكتورا لمنحته الجامعة الدكتوراه بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى.

ولكن هل نتفق مع التناول الذى ناقش به المؤلف كل القضايا فى هذا الكتاب؟ ولكن قبل أن أتناول القضايا التي نختلف فيها مع المؤلف نقف عند القضايا التي جلاها المؤلف وبذل في سبيل تحريرها وتجميعها جهدا وعطاء كبيرين وما أكثر هذه القضايا المهمة التي نجح " نسيم مجلى" في دراستها وإبرازصورتها نقية رائعة وكانت قد غابت في أضابيرالكتب والمجلات ولم يعد أحد يعرف عنها شيئا مثل قضية الصراع بين "الإلتزام والإلزام" و"الأدب في سبيل الحياة" و"الحوار بين العلم والدين " وهذه القضايا اشترك فيها محمد مندور ولويس عوض وعبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم ولطفى الخولى وأنيس منصور ومحمد عبد المنعم مراد وقد أحسست بمتعة بالغة وأنا أقرأ من جديد هذه القضايا التي كنت من مشاهديها عندما بدأت وتطورت ، فقد أعادها لنا نسيم مجلى بكل عبقها الفكرى والروحى.

ونختم هذه الفقرات بما قاله الدكتور عبد العزيز الدسوقى:

وفى راى أن قيمة هذا الكتاب الكبير تكمن يما بذله المؤلف من جهود شاقة مضنية وقراءات واسعة في الفكر والفن والأدب والإجتماع والسياسة، ومعرفة بالتراث العالمى والتراث العربى، لأنه لم يقتصر على التعريف بالدكتور لويس عوض ودراسة مؤلفاته وهى متنوعة المجالات ولكنه أخذ عل عاتقه الدفاع عن مواقفه المختلفة ومناقشة الذين هاجموا الدكتور لويس عوض والدخول معهم في جدل علمى متزن يدل على مقدرته وعمقه ومحصوله الكبير من الثقافة الأدبية، وبذلك تمكن من جلاء صورة عصر بأكمله بما فيه من تيارات واتجاهات وقضايا قد نختلف مع فيها ولكنه يبدى وجهة نظر معقولة تقبل المناقشة واختلاف وجهات النظر. وهذا يحتاج إلى قدرات فائقة وإلمام واسع باتجاهات الأدب والحياة وهذا لم يفعله أحد كتب عن "لويس عوض" غير نسيم مجلى.

وبعد أن يشير الدكتور عبد العزيزالدسوقى إلى مناقشتى للصراع بين "إلتزام والإلزام"في الأدب ودفاعى عن رفض لويس عوض تسخير الأدب لأغراض سياسية أواجتماعية واعتباره الأدب دولة مستقلة ذات سيادة ختم كلامه قائلا:
وهذه صفحات رائعة في كتاب نسيم مجلى تجعلنى أوجه نداء لشباب الجيل الجديد أن يطالعوا هذا الكتاب ليروا كيف يدافع الأحرار من الكتاب والمثقفين عن حرية الرأي والديموقراطية وكيف تصدوا لهؤلاء الذين كانوا يريدون أن يربطوا حياتنا الثقافية باتجاهات واردة تدعو إلى ديكتاتورية البروليتاريا.

وتحت عنوان "كلمات فى الحياة والفن" كتب الناقد والكاتب الصحفى الكبيرالأستاذ محمد بركات فى مجلة "كلام الناس" يقول:

أول ما يطالعك في هذا الكتاب (لويس عوض ومعاركه الأدبية) الهام هو لوحة الرسام جورج البهجورى الذى يرسم كما يأكل وكما يشرب ويقدم لنا فنا عالميا متقدما

يسبق مدارسنا التشكيلية بخمسين عاما على الأقل. ولهذايتهمه البعض بأنه يرسم "شخابيط" أو "عفاريت"، مع أنه يقدم روح ا"لشخصية " في الخطوط السريعة التي، يضربها بفرشاته وكما لا يستطيع ذلك إلآقلة من أمثاله على مستوى العالم كله.
(كان غلاف الكتابذ يحمل لوحة رسمها جورج البهجورى للويس عوض)

فإذا تركت هذا الغلاف، ودلفت إلى الكتاب فسوف تجد باحثا جادا مدققا يملك أسلوبا من أصفى أساليب الأدب العربى، وضوحا وسلاسة، وجمالا، بحيث لا يمكن للقارىء الجاد أن يتوقف عن القراءة برغم صعوبة الموضوع وجديته.

وهو أسلوب ينم عن شخصية صاحبه، بكل مافى نسيم مجلى من رقى وتحضر وسلام داخلى جميل، فإذا انصرفت عن سحر الأسلوب، فسوف تجد منهجا علميا أكاديميا رصينا في البحث والاستقصاء، وهو أسلوب يستعصى على أساتذة الجامعة الكبار ممن نفتقدهم هذه الأيام بعد رحيل الجيل العظيم الذى كان من أعلامه محمد مندور ولويس عوض نفسه.
كذلك يقول محمد بركات:
وأنا أعرف الأستاذ نسيم مجلى وأقرأ له منذ أربعين سنة، وقد عرفته في دراساته النقدية عن "المسرح وقضايا الحرية" و"ابن سينا القرن العشرين" وقضايا الإبداع والنقد" ثم فتنت بكتابه الجميل " أمل دنقل أمير شعراء الرفض" وقد كان لتسيم مجلى فضل تعريفنا بالأدب الأفريقي في أجمل نماذجه التي قدمها لنا خلال مسرح وول شوينكا حين قدم لنا"الموت وفارس الملك"و"الأسد والجوهرة" وغيرها من الأعمال التي استحق عليها هذا الأفريقي جائزة نوبل.
ثم يضيف بركات قائلا:

والواقع أننى واحد من كثيرين من أبناء جيلى ممن فتنوا بمحمد مندور، بقدر ما خاصموا لويس عوض، لقد أحببنا مندور لأنه درس لنا، وكان بمنهجه وشخصيته نسيجا لوحده، وبنفس القدر لم نستطع أن نحب لويس عوض، لأننا كنا نحب عبد الناصر، ولم يكن يحبه، وكنا نؤمن بالفكرة العربية وكان هو فرعونيا. وكنا وما زلنا مسلمين بديننا وكان هو لادينيا، وكان التراث العربى هو ثقافتنا الأصيلة بينما كانت الثقافة اليونانية والرومانية هي المنهل الذى يستقى منه لويس عوض كل ثقافته. وكنا نعتقد أنه يترفع علينا جميعا بدليل أنه لم يكنب دراسة واحدة من بين أكثر من خمسين كتابا له عن نجيب محفوظ وهو أمير الرواية العربية بغير منازع.

والواقع أن كتاب نسيم مجلى قد بدد هذه الأوهام كلها، لأنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة في الحياة الأدبية والنقدية الحافلة للويس عوض إلا وكتب عنها في هذا السفر العظيم الذى قدمه لنا. وبهذا تجاوز الكتاب حدود الإلمام بالمشروع الفكرى للويس عوض وأصبح تاريخا وتوثيقا وتحقيقا لمسيرة الأدب العربى الحديث فى نصف

قرن، حيث نجد أقساما أربعة في الكتاب يبدأ الأول منها بالإجابة عن سؤال صغير وهو: معارك لويس عوض الأدبية ... لماذا؟

وهنا يقدم لنا الباحث محاولة جادة للفهم داخل المشروع النقدى للويس عوض. وأما القسم الثانى فيناقش ثورة الأدب الجديد ابتداء من المقولة التي راجت في الستينات وحملت شعار الأدب في سبيل الحياة وانتهاء بالمكارثية في ألأدب. وأما القسم الثالث فهوأهم الأقسام، لأنه يناقش معارك لويس عوض الشهيرة ابتداء من معركته حول الأصالة والمعاصرة مع محمود شاكر وانتهاء بمعاركه حول الدعوة إلى العامية. وفى القسم الرابع والأخير يناقش مجلى آخر وأهم معارك لويس عوض حول أقنعة الناصرية، والصراع بين القومية المصرية والقومية العربية، ثم كتابه الخطير المصادر منذ عشرين سنة وهو كتاب " فقه اللغة العربية"

ان كتاب "لويس عوض ومعاركه الآدبية" لنسيم مجلى هو أحد أهم الكتب التي صدرت في السنوات الآخيرة. اما الوقفة النقدية مع هذا الكتاب فلها وقت أخر.

"حنين بن اسحق وعصر الترجمة العربية"

وهذا ثانى مقال ينشره الكاتب الصحفى الكبير عمرو الديب فى الصفحة الثقافية التي يشرف عليها بجريدة الأخبار بتاريخ 6 مايو2024، بعنوان"حنين إلى سيد المترجمين " وكان المقال الأول في نفس الصفحة بتاريخ 28 فبراير 2019، بعنوان "إعادة الأعتبار الى سيد االمترجمين"

يقول الأستاذ عمرو الديب:

حنين جارف إلى أجوائه الشيقة دفعنى إلى البحث عنه وسط أكوام الكُتب المتراصة التى تغطى أرجاء هذه الغرفة الضيقة التى تمثل مكتبة إضافية بعد أن ازدحمت مكتبة منزلى تمامًا، وأيضًا مكتبتى فى بيت النشأة والصبوة حيث عجزتا تمامًا عن استيعاب المزيد، لم يستغرق الأمر طويلًا، فلححسن الطالع عثرت عليه بعد دقائق، انتزعته من بين عشرات العناوين التى تجاوره، وحاولت استعادة تلك اللحظات الممتعة حين حلقت فى عالمه لأول مرة بعد أن أهدانى مؤلفه نسخة منه،

عاودت قراءته، والسفر مجددًا عبر صفحاته بعد نحو خمس سنوات من القراءة الأولى، وأخذنى الكتاب الصادر فى سلسلة دراسات الترجمة عن المركز القومى للترجمة إلى أجواء الازدهار، حيث كَرَّسه مؤلفه الأديب والناقد والباحث الجاد «نسيم مجلى» لإعادة الاعتبار إلى سيد التراجمة فى الحضارة العربية الإسلامية على الإطلاق، وهو العَلَّامة المسيحى «حنين بن إسحق».. نجم بيت الحكمة الشهير فى بغداد بلا منازع،

وقد حاول الكتاب تعريف الأجيال به، وإلقاء الضوء على جوانب ووقائع مجهولة فى حياته، وطبيعة عصره الذى يمثل ذروة تلك الحضارة العربية التى

ارتفعت صروحها كمنارات للحب، والتسامح، والتعايش الراقى، ورحابة الأفق، على الرغم من غيوم الخوارج من تجار الدين، ودخان الغلاة، والمتطرفين الذين حاولوا دائما طمس معالم تلك الحضارة، والتشويش على ملامحها الحقيقية تزييفًا للرسالة التى تعالت على ضفافها تلك الحضارة، وقد أهدت إلى الإنسانية فى عصورها الذهبية قيم التمدن، وقفزات العلم، ومبادئ الأخلاق، ومثل التسامح، وقبول الآخر،

والأسماء المذهلة التى تسطع فى أفقها كفيلة وحدها بتأكيد تفوقها، وتفردها وطبيعتها التى تجنح إلى حوار الحضارات، وليس صراع أو صدام الحضارات البغيض الذى رَوَّج له أعداء الإنسانية، وما «البيرونى».. رائد علم «الأثنوغرافيا»، و«الخوارزمى».. ملهم مخترعى الحاسوب، ومصممى برامجه، ومؤسس علم الجبر، وما «ابن رشد»، العظيم و«الفارابى» الفذ سوى نقطة فى محيط هائل من الرواد الأفذاذ الذين قدمتهم حضارة التسامح إلى العالم جنبًا إلى جنب مع «حنين بن إسحق» العبقرى الذى نقل -بدقة وأمانة- عيون الحضارات الأخرى إلى الحضارة العربية الإسلامية فى الطب، والحكمة، والصيدلة، وهذا الكتاب الذى قرأته مجددًا لم يجعلنى أجل عبقريته، وأعجب بعطائه فقط، وإنما دفعنى إلى أن أحبه، وأحترمه لأخلاقه الرفيعة، وقيمه النبيلة التى أبت عليه أن يركب سمًا قاتلًا لاغتيال إنسان غدرًا مُعرضًا نفسه للخطر، ورافضًا لثروة يسيل لها اللعاب مكافأةً على الغدر.

وهذه كلمة كتبتها لأختم بها كتاب "بطرس بطرس غالى وحلم المدينة الفاضلة' اسجلها هنا لعلها تلقى بعض الضوء على رؤيتى لمهمة الكاتب:

خاتمة المطاف

هذه خاتمة المطاف فى مغامرة شاقة ومثيرة، وهى مغامرة بل مخاطرة فمالى أنا والكتابة عن السياسة والسياسيين. إن محور الكتاب رجل من رجال الدبلوماسية المرموقين على مستوى العالم ومن علماء القانون الدولى المشهود لهم، والأصعب أنه يعمل فى ميادين لم أدخل إليها ولم أعش فى أجوائها أبدا. فكيف يمكننى أن أخوض هذه التجربة لأكتب عن شخصية فذة متعددة الجوانب مثل الدكتور بطرس بطرس غالى؟ خصوصا وأننى لم أعرف الدكتور غالى قبل البدء فى الكتابة عنه، ولم أقترب منه حين كان وزيرا أو أثناء توليه منصب الأمين العام للأمم المتحدة، ولم أشهد شيئا مما كنت أقرأ عنه فى صداماته مع قوى الهيمنة الدولية أو مع البيروقراطية، أو وهو يتلقى الاتهامات والتهديدات من العرب والفلسطينيين.

لم أشهد أنا شيئا من هذا كله ولم أقترب منه، فكيف يمكننى أن ألم بأطراف هذا الموضوع لأكتب عنه بالجدية والصدق التى اعتدت عليهما فى كتاباتى؟ هذا مافكرت فيه فى البداية. لكننى أعتقد أن هذا ليس شرطا ضروريا. وربما يكون ذلك ميزة تضمن

للكاتب مساحة من الحياد والموضوعية. خصوصا فى ظروف توافرت فيها المعلومات بغزارة إضافة الى وجود شهود كثيرين من ذ وى المصداقية فى هذا المجال. وقد شجعنى هذا على المضى فى طريقى حتى وصلت به الى نهاية المطاف وأرجو أن أكون قد وفقت.

وأنا واثق أن بعض المثقفين سوف يسألوننى الآن ولماذا بطرس غالى بالذات؟ كما سألونى لماذا لويس عوض؟ والجواب ببساطة شديدة هوأننى وجدت لدى ميلا الى الكتابة فى أدب التراجم وهو فرع من الأدب يجمع بين النقد والتوثيق للشخصيات والأحداث فى إطار سردى أقرب الى الأسلوب القصصى، ويتميز عن الرواية والقصة بأنه يقيم بنائه على شخصيات وأحداث حقيقية من الواقع وليست من الخيال.

وقد قطعت فى هذا الطريق شوطا طويلا، وبدأت بكتابة سلسلة من التراجم كان أولها كتاب " ابن سينا القرن العشرين" وهو ترجمة لحياة جراح العظام والمفكر الكبير الدكتور محمد كامل حسين صاحب رواية " قرية ظالمة " ثم كتاب " أمل دنقل – أمير شعراء الرفض " الذى صدرت طبعته الرابعة فى سلسلة كتا ب الجمهورية فى مايو 2008، وكتاب " لويس عوض ومعاركه الأدبية " 1995 ثم كتاب "الأصالة والمعاصرة " 1998، عن الشيخ محمود محمد شاكر. أما أحدثها الآن فهو كتاب " حنين ابن اسحق وعصر الترجمة العربية" الصادر عن المجلس الأعلى للثقافة فى 2006، فهل كان يمكن بعد هذا أن أتردد وأحجم عن الكتابة عن بطرس غالى وهو من أبرز الشخصيات على المستوى الوطنى والدولى؟ لا، لم أحجم بل أقدمت معتمدا على مانشر فى العالم كله من كتب ومقالات ودراسات وهو متوفر بغزارة على شبكة الانترنيت الى جانب التقارير والوثائق الرسمية الصادرة عن الأمم المتحدة واليونيسكو.

وقد أمدنى الدكتور بطرس غالى بالعديد منها. وذلك بالإضافة الى شهادات صادرة عن وزراء ودبلوماسيين ومفكرين أوربيين وأمريكيين وأسيويين تشيد بشخصية الدكتور غالى ومواقفه الصلبة بشأن اصلاح الأمم المتحدة وتحقيق الاستقلال لمنصب الأمين العام. فضلا عن انحيازه لقضية التنمية فى أفريقيا والدول النامية عموما. وقد أغنتنى هذه الكتابات ووفرت لى الكثير من المعرفة والفهم.

وكانت المشكلة بعد ذلك هى أختيار الاطارالذى أكتب فيه بحيث لا يتضخم الكتاب عن الحجم المعقول وكانت مشكلة فعلا أمام كثرة المصادر وتنوعها والتى تحفل بالكثير من التفاصيل المثيرة. وكان لابد لى أمام هذا الاغراء أن أتخيروأكتفى بما يخدم غرضى فى هذا الكتاب، وهو أن أرسم صورة صادقة وأمينة لرجل حظى باحترام قومى ودولى ليس له نظير.

وأنا أرى الآن أن هذا الكتاب سوف يكون تتويجا لهذه السلسلة التى تحمل أسماء باقة من النابهين والعباقرة المشهورين الذين تشرفت بالكتابة عنهم، وتقدمهم للشباب كنماذج تحتذى. كذلك أتمنى أن يمد الله في عمرى وأن يمنحنى القدرة لأكتب عن نساء ورجال آخرين ممن يتحلون بالأصالة والشجاعة ويناضلون ضد الفساد

والتخلف الزاحف على مصر مما يؤجج الفتن والانقسمات ويهدد استقرارها ووحدة شعبها.

إن بلادنا فى حاجة الى عملية تجديد ثقافى وسياسى يركز على ثقافة السلام والتنمية من أجل بناء مجتمع مدنى حقيقى تحكمه المؤسسات الدستورية لا الأفراد. مجتمع يحتل فيه العلماء والمفكرون صدارة المشهد الاعلامى والاجتماعى بعد أن أصبح أبطال الكرة وأبطال المسلسلات والدجالون هم نجوم المجتمع وقدوته.

إن تجديد هذا المجتمع يستلزم عملية إحلال وتبديل لهذه النماذج قبل أن يغرق المجتمع نهائيا فى حالة الجهالة والفوضى ويسلم قياده للمتربصين الذين يريدون أن يحكموه بالحديد والنار ويقضون على حرية الأفراد والجماعات.

والآن هناك سؤال قد يطرحه القارىء: لماذا توقفت بعد مرحلة الأمم المتحدة فى هذا البحث رغم أن مسيرة الدكتور بطرس غالى لم تتوقف؟

وهذا حق والأجابة أن الدكتور بطرس غالى قد بدأ مرحلة جديدة بتوليه منصب الأمين العام لمنظمة الفرانكوفونية وقضى سنوات عديدة حقق فيها أشياء كثيرة تستحق الاهتمام والدراسة، لكن هذه كما قلت مرحلة جديدة يرتبط بها الدور الذى مازال يلعبه الدكتور غالى الأن على المستوى الوطنى والدولى.

فبالاضافة الى رئاسته للمجلس الأعلى لحقوق الأنسان فى مصر. فإنه يتولى رئاسة اللجنة الدولية للديمقرطية والتنمية التابعة لليونيسكو ورئاسة معهد الدراسات السياسية للشرق الأوسط – نادى موناكو، بجانب عضويته فى لجنة القانون الدولى وغيرها، والمشاركة فى المؤتمرات والمنتديات من أجل نشر ثقافة الديموقراطية وحقوق الانسان. فهو لايكف عن الحركة والنشاط والترحال من مكان الى آخر فى كل أنحاء العالم. وصدقت عليه نبوءة الدكتورعبد الحميد بدوى باشا فى تقديمه لكتاب " المنظمات الدولية" الذى ألفه بطرس غالى فى مقتبل حياته. قال الدكتور بدوى بعد تهنئة المؤلف:

" فانى مؤقن بأن عقله وقلمه لن يتركا له فراغا أو راحة من الإستفادة والإفادة."

" فهل عرف هذا الرجل المعطاء فراغا فى حياته المديدة التى تجاوزت الثمانين بعدة سنوات؟ سؤال يستحق أن نفكر فيه.

نسيم مجلى

الهرم 30 أغسطس 2008

وعن جائزة الدولة للتفوق في الأداب

كتب ـ سامح سامي بجريدة الشروق

الجمعة 30 أغسطس 2013م

كان فوز الكاتب والمترجم نسيم مجلي بجائزة الدولة للتفوق في الآداب، غير متوقع، فهو قرر الابتعاد بالجسد عن مصر، إلى بلاد المهجر، فلا يظهرإلا قليلا..

ولعل الوسط الثقافي المصري، من مثقفين وصحفيين، دائم النسيان، قليلا ما يسأل من هو نسيم مجلي؟ وكانت الإجابة لدى من يعرفونه جيدا: هذا كاتب ومترجم ومحقق تراث مبدع! وآخرون كانوا يسألون: أليس هو مؤلف كتاب " أمل دنقل أمير شعراء الرفض"، الصادر عن دار الجمهورية للنشر..

ابتعاد مجلي عن مصر، وإقامته في الولايات المتحدة الأمريكية، جعلته يختفي عن أحاديث الوسط الثقافي، الذي "يفرم" البعيدين، ولا يتذكرهم إلا كبار السن، أو شديدي الاطلاع فقط..

وحسب صديقه المقرب الكاتب والناشط السياسي مجدي خليل، والذي كتب عنه مقالة وافية بمناسبة صدور كتاب مجلي عن" بطرس بطرس غالى ..وحلم المدينة الفاضلة"، الصادر عن دار الشروق: حيث يقرر ان عطاءه الفكري كان، ولا يزال غزيرا متميزا، رغم أعباء العمل والأسرة.."

ويحسب لمجلي، الكاتب الستيني، إصداره لعدة دراسات وكتب تثير الجدل، خاصة دراساته العديدة عن لويس عوض، وإعادة نشر كتابه " مقدمة في فقه اللغة العربية"، هذا الكتاب الذي قوبل بالرفض والمصادرة إلا أن دار سينا للنشر كعادتها سابقا، نشرت الكتاب الذي كان أثار معارك ضد لويس عوض الذي فكك فيه نشأة اللغة العربية.

كما أن لمجلى دور كبير في تحقيق التراث، خاصة كتابه الشهير "لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة لابن مماتي"، وهو من الأدب الساخر. وأذكر أن الكاتب الكبير إبراهيم أصلان، كان مهتما بعرض هذا الكتاب على صفحات جريدة الحياة اللندنية، وقت رئاسته للقسم الأدبي بها. ولا تقل أعماله المسرحية أو المترجمة أهمية عن دراساته النقدية أو تحقيق التراث، ومن مسرحياته: القضية، المجنونة، لقاء على القنال، ومن مترجماته: بريخت، الحب عند الفرنسيين، الأسد والجوهرة، القديس مرقس وتأسيس كنيسة الإسكندرية: حصاد كونجي، سكان المستنقع، وعشرون مدخلا

في الموسوعة العربية العالمية، "فرانز كافكا" لرونالد جراي، "محاكمة سقراط" لـ"آي إف ستون"، و"سالومي" لأوسكار وايلد، و"العصر الذهبى للإسكندرية".

إيلاف

- آخر ساعة أول يومية إليكترونية | صدرت من لندن 21 مايو 2001
- أنسيم مجلى.. حياة حافلة بالعطاء الفكرى والثقافى
- مجدي خليل
- 50
-

+A-A

فى أحدى أمسيات يناير2008 أصطحبنى الأستاذ الكبير نسيم مجلى معه لزيارة منزل الأستاذ الدكتور بطرس بطرس غالى على نيل القاهرة وذلك لمراجعة مسودة كتابه الذى كان يكتبه عنه، وقد قضينا سهرة طويلة نقرأ بعض نصوص الكتاب وملاحظات الدكتور بطرس غالى عليها، كما تطرقنا إلى الكثير من المسائل العامة حول مستقبل الدولة والنظام والكنيسة فى مصر وعلاقة الكنيسة بالدولة، استفدنا فيها كثيرا من خبرات الدكتور بطرس بطرس غالى الثرية، وإن جاز لى تلخيصها ففى كلمات بسيطة: هناك حربا حقيقية بين النظام والآخوان، وحربا أخرى بين المؤسسات الأمنية والكنيسة وهم يعملون بكل الطرق لكى يكون لهم اليد الطولى فى اختيار البابا القادم.

منذ أيام وصلتنى نسخة من الكتاب فى شكله النهائى بعد الطبع بعنوان:

"بطرس بطرس غالى وحلم المدينة الفاضلة "

الصادرعن دارالشروق بالقاهرة عام 2010. وعندما تصفحت الكتاب وهممت بكتابة مراجعة له فى عمودى هذا تذكرت إنه من الأفضل الكتابة أولا عن المؤلف الاستاذ نسيم مجلى، حيث أن الدكتور بطرس غالى كتبت عنه مئات المقالات وعشرات الدراسات والعديد من الكتب، فى حين أن نسيم مجلى مظلوم رغم عطاءه الفكرى الكبير والمتواصل. تقد عمل مدرسا للغة الانجليزية بوزارة التعليم المصرية لمدة

تقترب من العشرين عاما، ثم انتدب للتدريس بقسم اللغة الانجليزية بجامعة القاهرة من عام 1985 حتى عام 2000 ليتفرغ بعد ذلك كلية للبحث والكتابة ورغم هذه الحياة الحافلة بالعمل المضنى في التدريس بل وبعض الدروس الخصوصية لكى يستطيع الانفاق على أسرته، إلا ان عطاءه الفكرى كان، ولا يزال غزيرا متميزا، رغم أعباء العمل والأسر.

الف الأستاذ نسيم مجلى 10 كتب أحدثها كتاب "بطرس غالى وحلم المدينة الفاضلة"، و4 مسرحيات ليس آخرها مسرحية " المسيح يصلب في فلسطين" الصادرة بالإنجليزية في أمريكا عام 2009، وترجم إلى العربية 12 كتابا ومسرحية. ولكن هناك محطات في كتاباته ينبغي الوقوف عندها لتميزها وتفردها وشجاعتها

ولعل أبرز هذه المحطات دوره المشرف فى الدفاع عن تراث المفكر الكبير لويس عوض، ففى كتابه القيم "لويس عوض ومعاركه الأدبية، حوالى 600 صفحة، أرخ نسيم مجلى لمعارك لويس عوض الفكرية، فقد كان لويس عوض مفكرا عملاقا شجاعا ينادى بالقومية المصرية فى عز سطوة القومية العربية أثناء الحقبة الناصرية، ويدعو للعامية المصرية فى ظل هوجة المد العروبى ثم المد الإسلامي وإعتبارهم الفصحى لغة الإسلام، ويعتز بالتراث اليونانى والرومانى والغربى فى وقت نشر فيه كم كبير من الكتب المفبركة التى تعلى الحضارة العربية والإسلامية على ما عداها من حضارات العالم، ويفاخر بالفرعونية فى وقت كان الجميع يتمسح فى العروبة.

وقد فتح هذا التوجه على لويس عوض معارك لا أول لها ولا أخر... ولكن لويس عوض كان كفيلا بها، بل أن لويس عوض جسد فى معاركه الصدام بين الأصالة والمعاصرة، والصراع كذلك بين الهوية المصرية وبين الهويات الوافدة علينا من الصحراء. هذه المعارك الفكرية عرضها برصانة وموضوعية نسيم مجلى فى كتابه عن لويس عوض. ويحمد لنسيم مجلى أيضا دوره الشجاع لإعادة نشر كتاب"فقه اللغة العربية" للدكتور ليس عوض وكتابة مقدمة مطولة للكتاب والذى نشرته دار سيناء ثم دار رؤية للنشر بعد ذلك، وهذا الكتاب هو احد

الدرر الثمينة التى كتبها المفكر الراحل لويس عوض لتشريح اللغة العربية والحضارة العربية، وقد تمت مصادرته عام 1981 بعد تقرير للدكتور رشاد رشدى رفعه للسادات طالبا منه مصادرة الكتاب،

ولم يكتف رشاد رشدى بذلك بل حرض أبن اخته الكاتب الإسلامي احمد بهجت، وكان وقتها رئيسا لمجلة الإذاعة لنشر سلسلة من المقالات التحريضية السفيهة ضد لويس عوض بقلم الدكتور بدراوى زهران أستاذ فقه اللتغة بجامعة أسيوط، والتى جمعها بعد ذلك فى كتاب نشرته رابطة العالم الإسلامى بعنوان "دحض مفتريات ضد إعجاز القرآن ولغته وأباطيل أخرى اختلقها الصليبى المستغرب لويس عوض".

فى الرحلة الفكرية لنسيم مجلي نقف أيضا عند دوره فى ترجمة كتاب "القديس مرقس وتأسيس كنيسة الأسكندرية" لمؤلفه المؤرخ الدكتور سمير فوزى المقيم بسويسرا، ودوره أيضا فى المراجعة اللغوية لموسوعة "من تراث القبط" التى صدرت فى ستة أجزاء ورأس تحريرها الدكتور سمير فوزى.
من الكتب الجميلة التى نشرها الأستاذ نسيم مجلى دراسته الموفقة عن أهم رواية عربية عن محاكمة السيد المسيح وهى رواية "قرية طالمة" للأستاذ الدكتور محمد كامل حسين جراح العظام ضمن كتابه "ابن سينا القرن العشرين."

ويحسب لنسيم مجلى إنه عرف القارئ العربى بروائع الأديب الأفريقى العالمى وول شوينكا الحائز على جائزة نوبل فى الأداب عام 1986 حيث ترجم له حصاد كونجى،الموت وفارس الملك، عابدات باخوس،السلالة القوية، سكان المستنقع، والأسد والجوهرة..
إن هذه المقالة مجرد إطلالة صغيرة على بعض عناوبين دراسات نسيم مجلى نبغى من ورائها تسليط الضوء على شخصية مصرية كافحت فى الحياة واستطاعت أن تنجح فى عملها، وأن تبنى أسرة مصرية ناجحة ومتحابة، فممدوح أبنه يعمل كجراح فى ولاية ساوث كارولينا، وايمن طبيب تخدير فى فلوريدا، ونبيل مهندس معمارى فى نيوجيرسى،وإيرينى مديرة مبيعات فى إحدى الشركات بولاية كونيتكت، ووراء كل هذا النجاح بالطبع زوجة وفية ومتفانية..

. ورغم اعباء العمل الشاق والمضنى فى مهنة التدريس، ورغم مسئوليات الإعتناء بأسرة ناجحة ومتميزة، رغم كل ذلك أستطاع أن ينظم وقته وينتج لنا كل هذا الإنتاج الفكرى الغزير والمتميز والرصين من الكتب والمسرحيات والدراسات النقدية والترجمات علاوة على كم كبير من المقالات الصحفية واللقاءات الثقافية.
لعل هذه المقالة تكون جسرا لتعريف القراء على كاتبنا الكبير وعلى ابداعاته، وتفتح العيون على تكريمه الذى يستحقه... فجيل نسيم مجلى ملأ لنا رفوف المكتبات بكل ما هو غال وثمين.

شكرا نسيم مجلى على كل ما قدمته لعائلتك ولوطنك ولشعبك ولثقافتك... ولإتساقك مع ذاتك، والذى هو سر نجاحك... وتمنياتنا لك بمزيد من ا

والسؤال الآن هو:
هل يؤهلنى كل هذا لاستحقاق هذه الجائزة العظيمة؟ سؤال أترك الإجابة عليه للجان الفحص الموقرة وكلى ثقة فى نزاهة وحكمة القائمين على هذه المؤسسة الثقافية الرائدة. وأقول أن الكاتب الجاد يسعى إلى هذه الجائزة لتحميه من ضغوط القوى والمؤسسات التى تملك حق المنح والمنع كما تحرره من ضغوط الحاجة فيربط ضميره الأدبى بمصير أمته فى المدى القريب والمدى البعيد على السواء.
وشكرا لأصحاب الجائزة على بعد نظرهم واهتمامهم بهذه الأمور والسلام.

كتبت هذه النبذة لأول مرة فى سنة 1987 تقريبا عند تقدمى لاحدى الجوائز الخليجية، وكنت اعرف مقدما أن هذا أمر بعيد المنال، ولكن كانت تحدونى دائما الرغبة فى التجريب أو الاختبار حتى لا أبنى موقفى على سوء الظن خصوصا لأننى لن أخسر شيئا ويكفى أن كتبى سوف تعرض على لجنة من الاساتذة المختصين لتقرأها والتعرف عليها وهذا فى حدد ذاته مكسب كبير، ولست نادما على شىء، فالمستوى الذى حققته كتاباتى من ناحية الموضوعية والجسارة فى الكشف عن المسكوت عنه يضعنى حقا وعملا فى طليعة أبناء جيلى حتى الذين تمتعوا بفرص الدراسة فى أوربا وأمريكا, وكذلك الذين نالوا الحظوة واحتلوا المراكز المرموقة وحصلوا على الجوائز لأن غربال التاريخ على المدى البعيد لايعرف التحيز فى عملية الفرز بين الحقائق والأباطيل وبين المفكرين المخلصين وبين الهتيفا والدجالين وهذ ا هو الأهم .

وكما توقعت صدق ظنى ولم أحصل على هذه الجائزة العربية ولا غيرها حتى من وطنى مصر إلا أخيرا أخيرا عقب ثورة 30 يونية 2013 حدث بعض التغير فحصلت على " جائزة الدولة فى التفوق في الآداب "

أما جائزة الدولة التقديرية رغم أحقيتى في الحصول عليها إلا إنها تحتاج إلى أن ترشحنى إحدى المؤسسات الثقافية مثل أكاديمية الفنون أو جامعة القاهرة على اساس أننى درست وقمت بالتدريس فيهما أكثر من خمسة عشر عاما وكان من المفروض ان يتم ذلك عن طريق اتحاد الكتاب باعتبارى عضو مؤسس فيه بل وكان عشمى أيضا في القائمين على هذا الإتحاد أن يقوموا بترشيحى ورغم معرفتهم بانتاجى وقيمته إلا أن هذا لم يحدث مجاراة لموجة التعصب الدينى الذى أصبح هو المعيارالأول فى جواز القبول أو الحصول على الجوائز الأدبية والعلمية. وقد أدى هذا الى اختلال بقية المعايير وسوف تكون نتائج هذا النهج على المدى البعيد مدمرة لمستقبل هذه الأمة التى لم تتعلم من تجارب الأمم المتحضرة شيئا.

نسيم مجلى

31 أغسطس 2024

خطاب الأستاذة الدكتورة هدى وصفى

الأستاذة الدكتورة هدى وصقى هي أستاذة الأدب الفرنسي بجامعة عين شمس ومديرة مركز الهناجر للفنون المسرحية كان لها الفضل في تشجيعى فقدمت لى مسرحيتين من ترجمتى هما "الموت وفارس الملك" ومسرحية "الأسد والجوهرة" لشاعر المسرح الأفريقي الكبير وول شوينكا والحاصل على جائزة نوبل 1986 على مسرح الهناجر 1997، 1999.

وفى سنة 2005 تقدمت لمنحة مقدمة من إحدى المؤسسات الأمريكية واحتجت ثلاثة خطابات تزكية فدعمتنى بخطاب رائع ارسلته للمؤسسة ثم أرسلت لى نسخة، وعندما قرأت الخطاب فوجئت بانها كتبت تقييما شاملا ودقيقا لمؤلفاتى ولدورى ككاتب فأجادت وأبدعت وماكنت أظن أن هناك أحدا يهتم بى كل هذا الاهتمام حتى يكتب عنى بهذه الدقة الرائعة.

كتبت الدكتورة هدى الخطاب باللغة الإنجليزية وقمت أنا أخيرا بترجمته إلى اللغة العربية وإليكم نص الخطاب:

تقول الدكتورة هدى وصفى:

لقد تعرفت على نسيم مجلى من خلال كتاباته قبل أن اعرفه شخصيا. ففى البداية لفت انتباهى بنشاطه كناقد أدبى ومعلق على الأعمال الجديدة. في ذلك الوقت، اواخرالستينات من القرن الماضى، كان نسيم ينشر مقالاته في مجلتين شهريتين هما" "الكاتب"و "السينما والمسرح"كان

يراجع الكتب الجديدة في المجلة الأولى ويتابع عروض المسرحيات الجديدة فى المجلة الثانية، ثم بدأ نشاطه في مجال الترجمة بكتاب لرونالد جراى عن بريخت، يتناول فيه جراى بالتفصيل حياة بريخت ونظرية المسرح الملحمى، وأظن أن نسيم قد تأثر كثيرا ببريخت في كتابة مسرحيته الأولى المسماه " القضية" ثم توالى انتاجه في الظهورعلى شكل تحليلات نقدية لموضوعات أدبية وفكرية، أظهرت ميله الشديد للإنخراط بقوة في مناقشة الموضوعات الجدلية التى تستقز الأصوليين من رجال الدين عادة.

كانت حجته دائما تستند على معرفته العميقة بالموضوع محل النقاش بالإضافة إلى موضوعيته في التناول وتحليله البارع، ورغم هذه الحقيقة فإن مناقشاته كانت تبدو دائما مستفزة للطرف الأخر. لكنه كان يحظى بالقبول عند المفكرين الليبراليين وعند القراء عير المنحازين.. إن صبره الطويل في البحث عن المعلومات الموثقة في طوايا المخطوطات والمراجع يحوز على إعجاب الباحثين والنقاد وهذه الطريقة تضفى على كتاباته قوة تأثيرها. فكتابه عن أمل دنقل يمثل محاولة مدهشة لدراسة الشعر الحديث. لقد تمت مصادرة الطبعة الأولى من الكتاب لكنه طبع ثلاث مرات بعد ذلك. المساحة الواسعة التي أعطيت لنشرأعماله في مؤسسات الدولة (25 كتابا تقريبا) تدل دلالة واضحة على أنه يحظى بنوع من القبول والإحترام. ومن ثم فإننى أجرؤ على القول بأن نسيم مجلى قد وضع بصمته ككاتب جاد حر.

إن دخوله مؤخرا إلى ملف التاريخ القبطى ومشاكله هو أمر واضح الدلالة. ففي كتابيه "لويس عوض ومعاركه الأدبية "و"صدام الأصالة والمعاصرة" يتناول فيهما التياراات الفكرية المتعارضة مع التأكيد على نقاط الأحتكاك بين تيارات الثقافة الإسلامية والمسيحية، وبهذا مهد طريقه للأندماج بصراحة أكثر فى التاريخ القبطى ليكشف لنا بعض أحداثه المأساوية من خلال كتاباته عن الأبطال والقادة العظام أمثال إبن مماتى وزير صلاح الدين البارز، والجنرال يعقوب قائد الفيلق القبطى في وقت الحملة الفرنسية، على مصر الذى ساعد الفرنسيين في محاربة الأتراك والمماليك من أجل تحقيق الأستقلال الوطنى.

هؤلاء القادة الثلاثة قدموا لوطنهم خدمات جليلة، ورغم ذلك عذبوا واضطهدوا من جانب الحكام المسلمين، لهذا فإن موقف نسيم مجلى من هذه الشخصيات االمرموقة موقف يسنحق التقدير. لأن حقبة التاريخ القبطى، حوالى ستة قرون تم تجاهلها تماما من جانب المؤرخين المسلمين، ومازالت غائبة عن المقررات الدراسية في المدارس والجامعات. وغائبة أيضا عن الذاكرة الجماعية للشعب المصرى، وهذا سبب رئيسى للتوتر والنزاعات الطائفية بين المسلمين والمسيحيين. وفي مثل هذا السياق الثقافي والإجتماعى، فإن كتابات نسيم مجلى تعد محاولة هامة لتصحيح زاوية النظر لتاريخنا كله في مصر، وفى المنطقة العربية. ونحن نعتقد أن هذه المراجعة ضرورية من أجل استقرار المجتمع وامنه.

لحسن الحظ أن هذه الموضوعات الجادة والخطيرة لم تأخذه بعيدا عن ميدانه المفضل وهو الدراما. إذ أنه يؤمن أن التاريخ هو المصدر الرئيسى للصراع الدرامى، وأن هذه الشخصيات الثلاثة ينبغي أن تكون هي المادة الأساسية للمسرحيات والأفلام. ونتيجة لهذا فهو يتقدم بهذه المشروعات الجديدة بغية الحصول على منحة. وأظن أن هذه المنحة سوف تكون خير دعم للبحث العلمى وللفن المسرحى في وقت واحد. إن قراءة مسرحيات نسيم مجلى تمثل متعة خاصة. ففي مسرحيته "المجنونة" يقدم رؤية جديدة لعصرنا تؤكد ان الجنون في روح العصر وليس في ناس العصر. في

نفس الوقت فإنه يعبر عن رؤية ثاقبة وعميقة حين يصر على حق المراة الوحيدة في أن تخرج من بيتها بحرية وقتما تشاء، وأيضا على حقها في اختيار الزوج فنسيم مجلى مدافع شجاع عن الحرية والعدالة والمساواة، وقد كرس مواهبه ووقته كله للدفاع عن هذه المبادئ.

وكتابه الجديد "حنين بن اسحق وعصر الترجمة العربية" الذى لم ينشربعد هو مغامرة كبرى في أرض مجهولة، حيث يضطر الى التنقيب العميق في لفائف المخطوطات والكتب الصفراء بحثا عن الأسرار الخفية لهذا التاريخ وعن وصراعاته الفكرية.

وفيما يختص بمشروعه المقدم لمركز"دوروثى ولويس ب.كولمان للباحثين والكتاب " أرى أن خطته تشتمل على نقطتين:

- **الأولى كتابة مسرحية تصور حياة حنين وكفاحه كعالم من العلماء أصحاب المبادئ الأخلاقية في سياق أوضاع ثقافية واجتماعية حافلة بالتناقضات والصراعات العنيفة.**

- **الثانية كتابة بيوجرافية موثقة وشاملة لحنين بن اسحق باللغة الإنجليزية. أرى أن هذا كله يقع في بؤرة اهتمام نسيم مجلى الأساسية. فهو كاتب متعدد المواهب ومؤهل بدرجة عالية وقادر على التعبير الواضح بالعربية والإنجليزية، وأنا عندى ثقة كبيرة في أمانته وشجاعته وإخلاصه. هذه الخصال تضاف إلى مغامراته في كتابة أعمال الخيال والدراسات النقدية تعطى الدليل القوى على أنه سوف يفى بوعوده وينجز لنا عملا رائعا من الأعمال الأدبية.**

لقد أنجزت وعودى وكتبت كتابا بعنوان" حنين بن اسحق وعصر الترجمة العربية" نشر بالمجلس الأعلى 2006، ومسرحية اسمها " مأساة طبيب الخليفة" من أمتع إن لم تكن أمتع مسرحية كتبت في المسرح المصرى. نشرت بمجلة "مسرحنا" 2014. لكن قيراط حظ ولافدان شطارة. لم أحصل على المنحة ولا أي جائزة سوى جائزة الدولة للتفوق الأدبى 2013. أما جائزة الدولة التقديرية التي أستحقها منذ سنوات لم يرشحنى أحد لها لأن رئيس اتحاد الكتاب طلع سلفى متعصب رغم أننى أحد الأعضاء المؤسسين للاتحاد، وكذلك تجاهلتنى أكاديمية الفنون التي درست ودرست فيها اكثر من خمسة عشر عاما وكذلك جامعة القاهرة التي درست ودرست فيها نفس المدة لان مقاييس الجدارة العلمية والموضوعية غابت عن مجتمعنا وكفايانا بركة الاولياء.

.

خطاب الأستاذ الدكتور فوزى اسطفانوس

في سنة 205كنت في كليفلاند مع إبنى الدكتور أيمن وتقدمت لمنحة بحثية مقدمة من مؤسسة أمريكية واحتجت ثلاثة خطابات تذكية فبادر بكتابة هذه المقالة وأرسلها للمؤسسة ثم أعطانى هذه النسخة الرائعة التي تؤكد أن ثقافة العلماء المتميزين تتعدى حدود التخصصات العلمية ألى مجال الثقافة العامة والأدب بصفة خاصة.

كتب المرحوم فوزى اسطفانوس بصفته رئيسا لمؤسسة القديس مرقس لدراسة التاريخ القبطى يقول:

لقد عرفت الأستاذ نسيم مجلى من خلال كتاباته في جريدة "وطنى" المصرية الأسبوعية التي تصدر في القاهرة، وهى صحيفة مسيحية بالأساس. فتأثرت بدرجة اهتمامه بالتاريخ والثقافة القبطية وخصوصا في المرحلة التي أعقبت احتلال العرب لمصر. فتاريخ القبط في هذه الحقبة قد تم تجاهله تماما من جانب المؤرخين المصريين ولا يتم ذكره في الكتب المدرسية ولا في مناهج الجامعات أيضا. وجاءت كتاباته تنويعا فريدا فهى تنويرية وداعمة بقوة للروح المعنوية للمسيحيين في وطنهم مصر. لقد ترجم عددا من الكتب والمسرحيات الإنجليزية إلى اللغة العربية. ونحن نثق بقوة في قدراته الفنية على كتابة الأعمال الدرامية كذلك فى امتلاكه القدرة على التعبير باللغتين العربية والإنجليزية على السواء.

زد على ذلك، فإنه مؤهل تأهيلا عاليا فقد حصل على ليسانس الأداب من قسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة 1960 وعلى دبلوم الدراسات العليا في النقد والأدب المسرحى من أكاديمية الفنون 1970.

لقد أنشأنا مؤسسة القديس مرقس لنشر التاريخ القبطى منذ ثمانية أعوام ومنذ البداية دعونا الأستاذ مجلى لحضور اجتماعات اللجنة المختصة بوضع الخطة، وحضور جلسات البحث والدراسة، وكانت معرفته ومناقشاته والتعيير عن أرائه بوضوح مفيدة جدا لنا، خصوصا في التخطيط لإصدار عدد قليل من التب بمجرد أن عرفنا بعضنا بغضا بصورة أفضل.

لقد لاحظت انشغاله العميق بالتاريخ القبطى ومشاكله التي بحثها بموضوعية شديدة في سياق نضالنا القومى كمصريين من أجل الحرية والآستقلال. وهو يبدو كرائد شجاع في كشف المستور من أسرار هذا التاريخ والمظالم التي وقعت على الكثيرين من الأبطال الأقباط. وهذا واضح بصفة خاصة في مقالاته وفى كتبه عن الشخصيات المرموقة في هذا التاريخ مثل ابن مماتى الذى كان وزيرا لصلاح الدين القائد المسلم الذى طرد الصليبيين من بلادنا. كان ابن مماتى كاتبا عظيما ورجل دولة بارز ترك لنا عددا كبيرا من الكتب المحطوطة التى تبرهن على قدراتها الفنية وريادته الأدبية. أما الجنرال يعقوب فهو قائد الفيلق القبطى في زمن الحملة الفرنسية الذى حارب المماليك والأتراك ألى جانب الفرنسيين من أجل الإستقلال والحرية لجميع المصريين.

أخيرا فجأنى بمخطوطة كتابه الذى لم ينشر بعنوان "حنين بن اسحق وعصر الترجمة العربية" وهو دراسة لحياة أشهر مترجم وعالم في العصر الذهبى للحضارة العربية، وطلب أن يعرف رأى في هذا الكتاب، شعرت إننا أخيرا عثرنا على كاتب جاد يهتم بالبحث عن الحقائق الحقيقية للتاريخ العلمى، واضعا نصب عينيه مشكلة التبادل الثقافي. ولعل أكثر الأشياء تأثيرا في هذا المحطوط هو كمية المراجع اذى اعتمد عليها في بحثه وقارن بينها والكثير من هذه الراجع يحتاج إلى جهد هائل في البحث والتنقيب وبعض هذه المراجع خاضع لتحكم السلطات المصرية، ويصعب الوصول إليها. وقد أبدى صبرا طويلا في قرائة ليس فقط الكتب المطبوعة بل أيضا فى فحص المخطوطات لكى يدقق في رؤية الإختلافات ويصحح الأخطاء الكثيرة التي وقع فيها الكثيرون من كتاب التراجم الضخصية.

لقد قدم نسيم مجلى حقا مساهمة عظيمة فى إحياء ذكرى هذه الشخصيات المتميزة في تاريخنا وألقى ضوءا قويا على الدور الذى لعبه كل منهم في خدمة الوطن.

لم يكن مجلى طائفيا فى نظرته إلى هؤلاء الرجال لأن الواقع يقول أنهم كانوا وطنيون أمناء ومخلصون فكرسوا حياتهم ومواهبهم لخدمة المصريين جميعا مسلمين ومسيحيين على السواء، وفى النهاية تنكرت لهم السلطة الإسلامية وعاملتهم معاملة

ظالمة بل عذبتهم واضطهد تهم. وللمرة الثانية أقول إن تركيز مجلى على هذه الشخصيات المنسية هو جزء من رؤيته الشاملة للتاريخ العام لوطننا مصر. إنه عمل رائد واستثنائى يمثل تحديا لهؤلاء الذين تجاهلوا تاريخ الأقباط على مدى ستة قرون. مما زاد من انحيازهم فيما سمحوا بنشره. ولكن إصرار نسيم مجلى ومثابرته في معظم الأوقات مكنته من تقديم عمله لجماهير القراء في مصر والعالم العربى.

وهو كناقد صريح وشجاع يبدو أنه قد كرس قدراته وجهوده لكشف أسرار هذا التاريخ الخفية التي لم يذكرها أحد من قبل، فهو يشعر أن له رسالة عظيمة هي تنويرهم وتزويهم بوقائع حقيقية قر الإمكان. وهو يطمح فى تحويل هذه الأعمال الأدبية إلى مسرحيات وأفلام وقد دعانا في مؤسسة القديس مرقس إلى تمويل هذا المشروع إيمانا منه بأن هذه الوسائط الفنية أكثر فاعلية في توصيل هذ ه الرسالة حتى إلى الأميين الذين لايعرفون القراءة أو الكتابة.

وفى رأى أن نسيم مجلى كاتب متعدد القدرات كثيرا ما يبرهن على تفوقه في الأعمال النقدية والإبداعية، وثقتنا كبيرة فيه بحكم معرفتنا به كإنسان على استعداد دائم للتعاون. باختصار هو رجل صاحب كلمة.

وبالنسبة لاقتراحه المقدم "لمركز دوروثى ولويس ب. كولمان للباحثين والكتاب " أرى أنه يسير في نفس الاتجاه الذى تسير فيه أعماله النقدية والإبداعية. والاقتراح يشمل موضوعين:

1. **كتابة بيوجرافيا موثقة وشاملة لحياة حنين بن اسحق باللغة الإنجيزية.**
2. **كتابة مسرحية تصور حياته وجهاده كعالم يؤمن بمبادىء أخلاقية في وسط اجتماعى وسياسى ملىء بالتناهقضات الصارخة. إننى واثق انه سوف يبذل أقصى جهده لإثبات جدارته.**

أشعر شعورا قويا ان إعطأء منحة للأساذ مجلى هي شيء مستحق، إنه مبلغ من المال يخصص لنوعية مغايرة من البحوث الفكرية لجزء هام من تاريخنا الفبطى.

د. فوزى جورج اسطفانوس

رئيس مؤسسة القديس مرقس لنشر التاريخ القبطى

==========

الأستاذ الدكتورعبد المنعم تليمة

خطاب الدكتورعبد المنعم تليمة الناقد الكبيروأستاذ الأدب الحديث بجامعة القاهرة حيث يقول:

الأساتذة الأعزاء
بسعدنى أن اكتب هذه التوصية الخاصة بالإستاذ نسيم مجلى الذى تقدم للحصول على منحة البحث المعلن عنها في مركز الباحثين والكتاب عندكم.
لقد عرفت نسيم مجلى في إحدى الندوات حوالى 1959، وتعارفنا كزملاء في كلية واخدة حيث كنت أدرس في قسم اللغة العربية. منذ ذلك الحين، أخذنا نتقابل من وقت لأخر للمشاركة فى مناقشة الكتب الجديدة وكذلك العروض المسرحية الجديدة، وتبينت من خلال هذا النشاط ميله الشديد إلى تعميق معرفته بالفنون المسرحية عن طريق قرائة النصوص المسرحية وترجمة كتب النقد الأدبى. لقد أهلته جهوده فى هذا المجال ليكون بين القة التي حصلت على منحة التفرغ للدراسة بمعهد الفنون المسرحية وذلك من خلال امتحان مسابقة في أكتوبر 1968 حيث قضى عامين في دراسة مقررات أهلته للحصول على دبلوم الدراسات العليا في النقد والدراسات المسرحية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف.
وهكذا وضع نفسه على طريق الكتابة النقدية والإبداعية وازدادت مساهماته في الندوات والمؤتمرات الأدبية بصورة واضحة، لقد لفت نظرى بقدرته الواضحة على التحليل المنطقى لأى موضوع يكون قيد المناقشة في هذه اللقاءات. كانت ملاحظاته وتعليقاته تتميز بالعمق وبالأصالة. وكانت تجرى في المسار العام للثقافة القومية مع تركيز خاص على قضية الحرية بمعناها الشامل أي الحرية السياسية والاجتماعية. إذن فلا غرابة أن يكون أول كتبه بعنوان "المسرح وقضايا الحرية" وأنا أرى أن مسرحياته تتناول نفس المواضيع ففي مسرحيته " القضية" برهن على نزاهته في مناقشة قضايا خطيرة ذات دلالة سياسية ودينية. كانت المسرحية مغامرة جريئة بالنسبة للتيار الغالب في المسرح المصرى. أما مسرحية "المجنونة" فهى كوميديا إجتماعية، تناقش أوضاع مجتمع يعانى من غياب العدل والمساواة، والحرية الفردية. بينما ينتشر فيه الفساد والرشوة والتسيب وحتى التعصب الدينى.

لقد استطاع المؤلف بحساسيته المسرحية المرهفة، أن يطور من صياغته الواقعية، مقدما إضافة جديدة إلى الفن الدرامى، وهى الإضافة التي تبتعد عن التجريبية الساذجة التي تفتقر إلى النضوج، بقدر ما تبتعد عن الواقعية المباشرة التي عانى منها مسرحنا أكثر من معاناته من التجريبية. فالواقعية مشحونة بالمعنى والدلالة، حيث يجدل الواقع والرمز في نسيج واحد وحيث تومىء الشخصية المتفردة المرسومة بكل دقة وعناية (ناهد) إلى معنى أكبر منها دون أن تتردى للحظة واحدة في هوة الرمز أو التجريد.

وبعيدا عن مغامراته الخيالية فى مجال المسرح، دعونا ننظر في أعماله النقدية. ففي كتابيه "لويس عوض ومعاركه الأدبية" و"صدام الأصالة والمعاصرة " نجده يقدم على مناقشة بعض القضايا الثقافية الكبرى وقد تم ذلك بقدر كبير من الحرية. أن مراجعه الموثقة وتحليلاته المنطقية يضفيان على أرائه درجة كبيرة من المصداقية.

لكنه يميل إلى مناقشة قضايا التاريخ القبطى بصفة خاصة. وهو يبحثه بموضوعية شديدة ضمن رؤية شاملة لنضالنا القومى من أجل الحرية والإستقلال. وهو يبدو لنا كرائد في كشف خبايا التاريخ القبطى وأسراره المؤلمة. وإبرازالمظالم البشعة التي وقعت بحق الكثير من أبطاله المرموقين، وهذا واضح في مقالاته وكتبه عن ابن مماتى وعن الجنرال يعقوب. فالأول كان وزيرا لصلاح الدين، القائد المسلم الذى هزم الصليبيين وطردهم من بلادنا، أما الجنرال يعقوب فكان قائد الفيلق القبطى أيام الحملة الفرنسية الذى تعاون مع الفرنسيين في محاربة المماليك والأتراك من أجل الحصول على استقلالنا القومى. هؤلاء الرجال تنكرت لهم السلطة الإسلامية وأساءت معاملتهم وكانت نهاية كل منهم مأساة محزنة.

وأنا كناقد فحصت أهم أعماله، أحب أن أعلن أن نسيم مجلى كباحث ليس منحازا لطائفته القبطية لكنه يحاول أن يملأ الفجوات الموجودة في هذا التاريخ ويستعرض أمامنا أحداثا هامة وخطيرة تجاهلها المؤرخون الرسميون. والأهم من ذلك كله أن هؤلاء الرجال الذين ذكرهم نسيم كانوا وطنيون أمناء كرسوا مواهبهم وجهودهم من أجل رفعة وطنهم. إننى معجب بصلابته الشخصية ومثابرته على البحث في هذه الأمور الجادة.

وفى هذا الخصوص فإنه يمكننى أن أقرر أن كتابه عن" حنين بن اسحق وعصر الترجمة العربية " الذى لم ينشر بعد هو كتاب هام ومشوق. إنه يحى ذكرى أعظم التراجمة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وهوالطبيب العلامة حنين بن اسحق. أن صورته كطبيب أمين وشجاع هي بلا شك مصدر إلهام عظيم لأنها تجسد فترة عظيمة في تاريخ التبادل الثقافي بين الحضارة العربية والحضارة الأوربية وهذه تمثل دعوة مضادة لدعوة صدام الثقافات. لقد فحص مجلى كثيرا من الملفات والمخطوطات بصبر وأناة من أجل تصحيح الأخطاء الموجودة في الكتابات السابقة، وفى ضوء هذا،

فإننى أجرؤ على القول أن نسيم مجلى سوف يثبت كفاءة عظيمة في إنجاز مشروعيه بدرجة مقتعة.

ـكتابة مسرحية عن حياة حنين.
ـكتابة بيجرافية موثقة عن هذه الشخصية كمقدمة لمسرحيته.

عبد المنعم تليمة
أستاذ الأدب الحديث بجامعة القاهرة.

فى النقـــــد والمصـــــادرة

إقرأ في هذا البحث:

1- تجربتى مع المصادرة.
2- فى البحث عن مصادر أمل دنقل.
3- كيفية النظر إلى عناصر التراث فى القصيدة الحديثة.
4- نقاد ومصارعون.

أعد هذا البحث عام 1996 ليكون مقدمة للطبعة الثالثة لكتاب " أمير شعراء الرفض – أمل دنقل "

لكن صدرت الطبعة الثالثة سنة 2000 عن مكتبة الأسرة بدون هذه المقدمة. ونشرت في الطبعة الرابعة الصادرة في سلسلة كتاب الجمهورية في سنة 2008.

1- تجربتى مع المصادرة:

لا يكفى أن نكتب أدباً جميلاً أو نقداً صادقاً بل لا بد أن نناضل ً من أجل إزالة المعوقات أمام حرية التعبير وتحرير ضمير الكاتب من الخوف ومن وصاية قوى القمع والإرهاب التى تتخفى أحياناً خلف ستار الدين أو مصلحة الوطن لسلب هذه الحرية.

ولعل أخطر أسلحة القمع التى تواجه الكتاب الآن، هى المصادرة. وهذه المصادرة تتم للأسف بأساليب مختلفة خفية او معلنة. وقد عانيت من هذه الأساليب الأمرين. فقد حجبت مسرحية " القضية " 1973 والتى تناولت فيها وثيقة التبرئة التى حصل عليها اليهود من الفاتيكان، ووضعت فيها جريمة اغتصاب فلسطين أمام طلب التبرئة لأكشف هذا التناقض. كيف تجوز تبرئتهم وهم يرتكبون المجازر كل يوم وكما يقول الراوى:
فالجريمة المستمرة هى موضوع القضية
والمحاكمة ما انتهتش لكن العدالة جاية

وبعد أن أستعد المخرج سمير العصفورى لإخراجها تم الضغط عليه حتى يتخلى عنها ليخرج مسرحية رشاد رشدى
" حبيبتى شامينه " التى كانت تروج لفكر السادات وتشير إلى أن العرب قد باعوا فلسطين.

وقد تم ذلك فى هدوء وصمت لم تستنكره سوى جريدة " الأخبار" فى مقال كتبته الناقدة سناء فتح الله ثم أسدل عليها الستار. وقد صدرت المسرحية فى كتاب سنة 1978بعد أربع سنوات، وذلك لأن الدكتور محمود الشنيطى رئيس هيئة الكتاب فى ذلك الوقت اعترض على نشرها ولم يوافق إلابعد تدخل الراحل العظيم الشاعر صلاح عبد الصبوربعد تعيينه وكيل وزارة ومسئول عن النشر بالهيئة. كان صلاح يؤمن بحرية التعبير إيمانا صادقا عبرعن هذا الإيمان فى أشعاره وفى مواقفه، ومنها هذا الموقف معى فقال للشنيطى إن الكاتب يستخدم تراثه وعقيدته للتعبير عن قضية وطنية وإنسانية ولا حرج عليه فى هذا طالما أنه يحمل رؤية انسانية تدعو الى التفاهم والحرية والسلام، وهيئة الكتاب جهة نشر وليست مؤسسة رقابية حتى تحجر على فكر

الكاتب. ومن يعترض على المسرحية بعد نشرها أمامه القضاء ليطلب مصادرتها. وهكذا قدر للمسرحية أن ترى النور.

أما مصادرة كتاب "أمل دنقل: أمير شعراء الرفض" فكانت تجربة مؤلمة لى لكنها لم تخلو من جوانب إيحابية. وهى جديرة بأن تقدم هنا كمثل لكشف الأساليب الملتوية وكوسيلة للتنبيه والتحذير حتى نحمى هذه الحرية.

وكانت الطبعة الأولى قد صدرت عن المركز القومى للآداب، وواكبت صدوره ضجة صحفية شارك فيها عدد من الكتاب والنقاد منهم: الأستاذ رجاء النقاش والأستاذ جمال الغيطانى وآخرون كما شارك فيها صحف عربية كثيرة كالرياض والوطن والاتحاد وغيرهما.

أما السبب المباشر لهذه الضجة فكان يتمثل فى منع الكتاب من التداول لعدة شهور بعد طبعه من أجل تغيير العنوان ولا شك أن هذا الفعل يمثل عدواناً على حرية التعبير وعلى حق الكاتب فى اختيار العنوان الذى يراه معبراً عن فكرته المحورية التى بنى عليها بحثه.

وقد حاول الدكتور عبد العزيز الدسوقى رئيس المركز القومى للآداب – تبرير فعلته فاتهمنى بدس العنوان المرفوض على المشرفين على النشر بمطابع هيئة الكتاب. ولم يكتف بهذا بل هاجم الأستاذ رجاء النقاش لأنه كتب مقالين بمجلة " المصور "عن هذا الكتاب، انتقد فى مقاله الأول موقف الدكتور عبد العزيز ومنعه للكتاب من التداول واعتبره مصادره لحق الكاتب وعدوانا على حرية النشر.

ورغم عبثية التهمة التى وجهها إلى الدكتورعبد العزيز و عدم معقوليتها، إذ كيف يتهم إنسان بالدس على نفسه أو كيف يتهم كاتب بدس عنوان كتابه إلا أن كلمة "الدس " فى حد ذاتها تمثل تهمة مشينة وجارحة، فقررت رفع الأمر إلى القضاء و اتفقت مع احد المحامين الكبار الذى كتب عريضة الدعوى وقام بانذار الدكتور عبد العزيز الدسوقى تمهيداً لإتخاذ باقى الإجراءات. ورغم تشجيع عدد كبير من الكتاب لى للمضى فى هذه القضية حتى يتم الحصول على حكم من المحكمة بإدانة فعل المصادرة، ومثل هذا الحكم سوف يعزز بلا شك موقف المبدعين والمفكرين فى وجه قوى القمع والتسلط التى لا زالت تمارس دورها المعادى للحرية، إلا أننى توقفت فى منتصف الطريق خشية أن يفسر الأمر على أنه محاولة لجلب الشهرة أو طمعاً فى تعويض مالى أو دعاية جديدة للكتاب الذى نفذت طبعته فى أسابيع قليلة.
لكن تراجعى عن إقامة الدعوى وتنازلى عن حقى الشخصى، لا يعنى شطب هذه القضية من دفتر اهتماماتنا الثقافية. فهناك شقها الموضوعى الذى لا أملك حق التنازل عنه لأنه يخص جميع المبدعين والمفكرين عموماً ألا وهو حق الكاتب والفنان فى التعبير بكامل حريته دون رقابة أو مصادرة لعمله أو لأى جزء منه. وهذا المبدأ لن

يتأكد بمجرد الحصول على حكم قضائى وإنما يتأكد فقط عن طريق الوعى والإقتناع، حين نؤمن به جميعاً ونصر علي تطبيقه فى حياتنا بإعتباره حق أول من حقوق الإنسان الكريم وأنه يمثل اللبنة الأولى فى أى بناء ديمقراطى ومن أجل هذا قررت ان أضع نص عريضة الدعوى – كما كتبها المحاميان– أمام جماهير القراء واترك الحكم النهائى لهم.

المحـــــاميـــــان: فايز جريس
حلمى فخرى 13 ش رشدى بالقاهرة
القضية مرفوعة من: نسيم مجلى ابراهيم
ناقد ومؤلف مسرحى ومترجم
ضـــــــــد:

الدكتور عبد العزيز الدسوقى شخصياً ثم بصفته رئيساً للمركز القومى للآداب التابع لوزارة الثقافة ومقره متحف محمود بشارع مراد بجوار مجلس الدولة ومدرسة الأورمان بنات بالجيزة.

المـــــوضـــــوع:
فى صيف 1985 قدم الأول دراسة نقدية بعنوان " أمير شعراء الرفض – أمل دنقل " لنشرها فى سلسلة (كتاب المواهب) التى يصدرها المركز القومى للآداب. وتمت الموافقة على نشر الكتاب من أعضاء لجنة القراءة وهم الأساتذة:
1- أحمد الشيخ
2- صلاح عبد السيد
3- نبيل فرج

وكانوا يشتركون فى الإشراف على هذه السلسلة.
وفى يناير 1988 تم نشر الكتاب بعنوانه الأصلى "امير شعراء الرقض – أمل دنقل" وفجأة قرر الدكتور عبد العزيز الدسوقى رئيس المركز القومى ورئيس التحرير التحفظ على الكتاب ومنع تداوله فى السوق ..... واستمر هذا الحال عدة شهور حتى نشرت جريدة " الأهالى " بتاريخ 25 مايو 1988 (ص 11) صورة غلاف الكتاب المطبوع وتحت عنوان ممنوع من التداول نشرت البيان التالى:
" أصدر الدكتور عبد العزيز الدسوقى مدير المركزالقومى للآداب قراراً بمنع تداول كتاب " أمير شعراء الرفض – أمل دنقل " للكاتب نسيم مجلى حتى يتم تغير عنوان الكتاب.
وكانت الهيئة العامة للكتاب قد انتهت من طبع وإعداد الكتاب لحساب المركز على أن يصدر فى الذكرى الخامسة لرحيل أمل دنقل فى سلسلة "المواهب ".

و فى أوائل يونيو سنة 1988 نشرت الأهالى البيان التالى ص 11:

" حول قرار منع كتاب " أمير شعراء الرفض – أمل دنقل " للكاتب نسيم مجلى جاءنا من الدكتور عبد العزيز الدسوقى رئيس المجلس القومى للآداب هذا التوضيح: يقول الدكتور عبد العزيز أن العلاقة الحميمة بينه وبين الشاعر حتمت عليه إحتضان هذا الكتاب وقد أمر بنشره رغم قرار لجنة القراءة – بالرفضٍ، حيث رأت هذه اللجنة أن فكرة إمارة الشعراء أمر مرفوض.

وأضاف الدكتورعبد العزيز أنه أمر بنشر الكتاب بعد ان اتفق مع المؤلف على بعض التغييرات التى لا تمس جوهر الدراسة – إلا أنه فوجئ بتغيير العنوان الموجود فى الفاتورة المرسلة لهيئة الكتاب فى غفلة من المشرف على الطبع - مما أوقع المركز فى مأزق ورغم ذلك تم التوصل إلى اتفاق مع الهيئة على أن يصدر الكتاب فى شهر يونيو.

ولم يكد ينشر هذا الكلام حتى هب أعضاء لجنة القراءة يحتجون على هذه المغالطة ونشرت الأهالى البيان التالى بتاريخ 22 يونيو 1988 ص 10: - " أمل دنقل ولجنة القراءة "

في خطاب لرئيس التحرير قال الأديب صلاح عبد السيد: دافع الدكتور عبد العزيز الدسوقى فى جريدة الأهالى بتاريـــــخ
1988/6/1 عن قراره بمنع كتاب " أمير شعراء الرفض – أمل دنقل " فقال إن :- العلاقة الحميمة بينه و بين الشاعر حتمت عليه احتضان هذا الكتاب وقد أمر بنشره رغم قرار لجنة القراءة – بالرفض، حيث رأت هذه اللجنة أن فكرة إمارة الشعراء أمر مرفوض .

ولما كنت عضواً بلجنة القراءة التى أجازت هذا الكتاب فإننى أقول أن ذلك امراً غير صحيح فأنا لم أرفض الكتاب.
وبالعكس فإننى قد أشدت به ولم أرفض نشره تحت هذا العنوان: - " أمل دنقل - أمير شعراء الرفض " وأن الذى رفض ذلك هو الدكتور عبد العزيز نفسه. وأتحدى الدكتور أن ينشر تقريرى المحفوظ لديه عن الكتاب وكذلك تقرير زميلى أحمد الشيخ بهذا الرفض إلا إذا كان الدكتور قد استكتب بعض الموظفين لديه تقارير بهذا الخصوص.

ثم نشر " المصور" بتاريخ 8 يوليو 1988 للناقد الكبير الأستاذ رجاء النقاش مقالاً تحت عنوان " عبث أدبى غير مقبول " تناول فيه أفكار الدكتور عبد العزيز فى الأدب ولثقافة ثم ركز على موضوع الكتاب قائلا: فلماذا يصادر الدكتور الدسوقى كتاب " أمير شعراء الرفض – أمل دنقل " بعد طبعه. وكيف يعطى لنفسه فرصة الحجر على آراء الآخرين فى عصر أبرز مزاياه أنه حرر الأقلام والعقول والأفكار من القيود وسمح لكل صاحب رأى بأن يعبر عن رأيه حتى لو كان ما يقوله صاحب الرأى نقداً للنظام أو حتى رئيس الجمهورية. الذى يتقبل برحابة صدر كاملة ما ينشر فى نقده

ونقد الحكومة والنظام ويتمسك بالدفاع عن حرية التعبير للجميع؟ ومضى الأستاذ رجاء فى كلامه قائلا: -
" هل يمثل الدكتور الدسوقى نظاماً آخر غير النظام الذى نعيش فيه؟ " هل هو ملكى أكثر من الملك؟ هل يعارض الدكتور ما جاء فى كتاب نسيم مجلى عن الشاعر أمل دنقل؟ وإذا كان معارضا لما جاء فى الكتاب فلماذا لا يكتب رأيه ويعلنه للناس و هو صاحب قلم يستطيع ان ينشر ما يراه و يؤمن به مثله مثل غيره من أصحاب الأقلام فى هذا البلد وهذا العصر؟

إن الطريقة الوحيدة المقبولة للاعتراض الفكرى، هى التعبيرعنه بالقول والشرح وليس من حق أحد أن يصادر آراء الآخرين، والدولة لا تعطى هذا الحق إلا لوزارة الداخلية فهل المركز القومى للآداب تابع لوزارة الداخلية أو هو تابع لوزارة الثقافة؟

" إن هذا الموقف لا يمكن وصفه إلا بأنه عبث أدبى غير مقبول. ولا نجد ما نقوله للدكتور الدسوقى ولمن يتخذون موقفه إلا كلمة وهى: -
كفاية لقد سأمنا من الضغوط الفكرية المفتعلة وآن لنا أن نتنفس بحرية، وان نشم أنسام التفكير المتحرر من كل القيود

ثم يشير الأستاذ رجاء إلى فيلم " 451 فهرنهيت " الذى عرضه نادى السينما عدة مرات، وبه فرقة إطفاء مهمتها ضبط الكتب. كل الكتب وإحراقها، حتى لا يفكر الناس. وعلق على ما فعله الدكتور عبد العزيز بقوله: -
" لو كان المخرج العظيم تريفو الذى قدم لنا هذا الفيلم يعلم ان عندنا من يصادرون الكتب ويضيقون بالرأى الحر فلعله قد صور جزءا من فيلمه فى بلادنا تخليدا لأعداء الفكر وأعداء الثقافة ".

وهنا يتوقف رجاء النقاش امام كتاب " أمير شعراء الرفض " فيقول: -
لقد حصلت بالحيلة – على نسخة من هذا الكتاب وقرأته ولى عليه ملاحظات وبينى وبين كاتبه خلافات فى بعض آرائه. و لكن الكتاب بكل المعايير كتاب ممتاز يحرك الفكر ويلقى كثيراً من الضوء على فن شاعر كبير هو أمل دنقل ويثبت بالدليل ان هذا الشاعر الموهوب الجاد كان – فى جيله – جيل الستينيات أميرا لشعراء الرفض حقا وصدقا فأشعار أمل دنقل إن لم نقل كلها كانت عن الرفض.

ثم يتحدث الكاتب الكبير رجاء النقاش عن مؤلف الكتاب قائلا: " أما نسيم مجلى مؤلف كتاب " أمير شعراء الرفض" فهو كاتب مثقف فنان لـــه العديد من الكتب والمسرحيات المترجمة والمؤلفة والتى تثبت جميعاً انه بلغ سن الرشد "الفكرى" منذ سنوات بعيدة وأنه بغير حاجة إلى وصاية أحد، وانه يستطيع أن يتحمل مسئولية ما يكتبه ويواجه الناس بآرائه، ولن يتحمل مسئولية هذه الآراء أحد سواه.
ثم ختم مقاله بالنداء الآتى:

" فأرفعوا أيديكم أيها الباطشون بحرية الفكرعن كتاب " أمير شعراء الرفض" فلم يكلفكم أحد بحراسة حرية الرأى فى مصر. ولم يكلفكم أحد بإعطاء تأشيرة دخول أو خروج للأفكار والآراء فى عصر ينادى كل شئ فيه بأن الخلاص من أزمتنا قائم على الحرية والتمسك بالحرية، وتعميق الممارسة الديمقراطية ".

وبدلاً من الإفراج عن الكتاب، أمر الدكتور عبد العزيز بنزع أغلفة جميع نسخ الكتاب وإلغاء الصفحة التالية التى تحمل عنوان " أمير شعراء الرفض " ووضع غلاف جديد بدون عنوان سوى عبارة " امل دنقل " أى أنه ألغى العنوان الذى يعبر عن رأى المؤلف وهوعدوان خطير على حرية التعبير يضر الكاتب ضرراً بالغاً .... إذ هو فى حقيقته يعد خرقاً لأهم مبادئ حقوق الإنسان وهى حق التفكير والتعبير الذى يكفله الدستور والقوانين وكافة التشريعات.

ثم رد الدكتور عبد العزيز الدسوقى على مقال رجاء النقاش .... محاولاً تبرير هذه الجريمة قائلا وذلك (بالمصور فى 15 يوليو 1988).
" ناقشت المؤلف فى كل ذلك فإقتنع بتغير العنوان إلى " أمل دنقل شعره وحياته " وهو عنوان يتفق مع طبيعة ما فى الكتاب.
ومع الأسف فقد حدث أثناء الطبع خطأ عندما دس على المشرفين على الطبع العنوان المرفوض وكان لا بد ان تصحح هيئة الكتاب الوضع منعاً للالتباس فى المحاسبة المالية. وقد تم ذلك.

وهذا الكلام يقلب الحقائق رأساً على عقب ويوجه للمؤلف تهمة الدس وهى تهمة أخلاقية خطيرة كما يتهم المشرفين على الطبع بهيئة الكتاب بالاهمال والغفلة وعدم الأمانة ... وهو كلام يتحمل تبعته القانونية الدكتور الدسوقى فالدكتور عبد العزيز وهو رئيس المجلس القومى للآداب ورئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير سلسلة " كتاب المواهب " التى يصدرها المجلس وقد أصدر المجلس ثلاث كتب في ثلاثة شهور متوالية (اكتوبر / نوفمبر / ديسمبر 1987 والكتب هى:-

1- واحد ضد الجميع – تأليف: أدريس على (عدد 46).
2- اعترافات شاعر الكرنك تأليف: محمد رضوان
3- (عدد 47) مزامير العصر الخلفى تأليف: عبد الستار سليم (عدد 48)

وفى أخر كل كتاب من هذه الكتب نجد قائمة تعلن أن من بين الكتب القادمة: - " أمير شعراء الرفض " تأليف نسيم مجلى، فمن دس على الدكتور عبد العزيز هذا الإعلان المتكرر لمدة ثلاثة شهور وأين كان سيادته طيلة هذه الشهور الطويلة وهو المسئول الأول والمشرف على هذه السلسلة.

إن قيام الدكتور بتمزيق غلاف الكتاب بعد طبعه وتجليده و نزع الصفحة الأولى هو تصرف غير عادى وغير مفهوم.. من جانب الدكتور عبد العزيز ولكنه يمثل عدواناً خطيراً على حرية التفكير والتعبير وسابقة لا مثيل لها فى مصر فضلا عن كونها تبديد للمال العام من قبل رئيس مصلحة حكومية ... و بدون سبب معقول وإنما إشباعاً لرغبته فى الوصايا والتسلط على أفكار الأخرين وهو أمر لا يقبله أى منطق سليم.

لهذا نترك لهيئة المحكمة الموقرة تقييم هذا الفعل المعادى لحرية الرأى. وتقدير ما وقع من ضرر على موكلنا نسيم مجلى مؤلف الكتاب ومن أساء لسمعته حيث اتهمه الدكتور وشهر به على صفحات الصحف مثل الأهالى والمصور وقد بينا بطلان هذا الإتهام لذلك نطلب الحكم بالآتى:

1- إن عنوان الكتاب " أمير شعراء الرفض – أمل دنقل " هو العنوان الحقيقى للكتاب. اختيار العنوان حق مطلق للمؤلف تحميه كافة التشريعات الوطنية والعالمية
وقضاؤنا العادل.
2- الحكم بمبلغ 101 جنيها على سبيل التعويض المؤقت.

عند هذا الحد قررت التوقف حتى لا أترك أى فرصة لإساءة تقدير موقفى. وبالنسبة لإتهامى بالدس فهى تهمة عبثية ومضحكة لا يقبلها عقل ولا بأس من التسامح بشأنها. خصوصا لأننى شعرت أن الدكتور عبد العزيز قد دفع دفعا الى هذا الموقف المتناقض لأنه لم يكن أبدا ضد الكتاب وكان يحتفى بمقالاتى فى مجلة الثقافة التى كان يرأس تحريرها، فما الذى حدث وجعله يبالغ في الهجوم على وعلى الكتاب بهذه الطريقة؟

كذلك تذكرت أننى كنت مع الد كتور عبد العزيز فى مكتبه فى اليوم السابق على مصادرة الكتاب وهنانى على خروجه من المطبعة وأهدانى نسختين ثم كتب تصريحا لى باستلام عشرين نسخة أخرى من هيئة الكتاب كهدايا للمؤلف وكان ذلك حوالى الثانية بعد الظهر، وفى صباح اليوم التالى ذهبت لاستلام هذه النسخ فصدمت بخبرمنع الكتاب من التداول وبناء عليه رفض المسئول تسليمى نسخ الكتاب، وكانت مفاجاة مؤلمة. فهل يمكن أن يكون الدكتور عبد العزيز قد انقلب على نفسه في مدة لاتزيد عن ستة وثلاثين ساعة؟ لابد أن هناك جهة أخرى تدخلت فى الأمر ودفعته الى محاولة التبرء من مسئولية نشر الكتاب. وقد يفصح هو عن هذه القوة الخفية فى يوم من الأيام ومن ثم يكفيه ماتعرض له من نقد وهجوم بسبب هذا الكتاب.
وقد صدق حدسى فقد أعترف لى الدكتورعبد العزيزفيما بعد وكان يسكن الى جوارى في مدينة 6 أكتوبر وقال بالحرف الواحد " لقد اتصل بى مسئول كبير في الأمن في الثالثة صباحا وطلب منى التحفظ على جميع النسخ المطبوعة وعدم السماح بتوزيعها"

ويكفينى أنا الأن توضيح موقفى للقراء. فالأمر لم يعد يتعلق بمسألة كتاب أو بعنوانه، بل يتعلق أساساً بمشكلة حياتنا جميعاً وهى الحرية، حرية التعبير بمعناها الحقيقى الذى لا يخضع لأى مصادرة أو تضيق.، فحق الإختلاف فى الرأى هو الذى يؤكد حرية التعبير.

إن المثقف لا يمكن أن يكون حراً حقيقة إلا إذا عمل على ضمان حرية الآخرين، ممن يخالفونه فى الرأى بالدرجة الأولى. أما أن يطلب الحرية لنفسه فقط لكى يحكم ويتسلط فهوهنا لا يعرف معنى الحرية. ومن أجل هذا، لم يعد المهم هو إدانة شخص بذاته وإنما إدانة الفعل أى فعل المصادرة أو التعدى على حرية الكتاب والمبدعين بشتى الطرق. وذلك حتى يكون كل منا حارساً لحريته وحرية الآخرين. وبهذا فقط يمكننا ان نقيم حياة كريمة للجميع.

على اى حال، فإن صدور الكتاب كان مناسبة هامة أثبتت أن أنصار الحرية أكثر كثيراً وأقوى من أعدائها. وان صحافة مصر تعرف دورها الصحيح فى حماية حرية الكلمة الشريفة الصادقة سواء كانت صحفا موالية كالمصور والأخبار أو صحفا معارضة كالأهالى والوفد وصوت العرب وغيرها.

كذلك كان الأمر بالنسبة لصحف عربية مثل الرياض وغيرها بالسعودية والسياسة والوطن بالكويت وجريدة إتحاد الإمارات ومجلة الكفاح العربى بقبرص وكان موقف هذه الصحف والمجلات يتميز بالتركيز على مادة الكتاب ومنهج البحث فخصصت مساحات كبيرة لعرض وابراز أهم الأراء النقدية الواردة فى هذه الدراسة، لكنها لم تغفل تماماً موضوع الخلاف فكان عنوان جريدة الرياض " الكتاب الذى تسبب عنوانه فى مصادرته ". وكان اجمل التعليقات وأشدها سخرية فى السياسة الكويتية مقال بدون توقيع يقول فيه كاتبه:

" وتأتى هذه الضجة إنطلاقا من أن الكتاب قد تأخر فى صدوره بضعة أشهر لا لشئ في مضمونه ولكن لشئ فى عنوانه. فقد كان عنوانه الأول الذى اختاره المؤلف – وأهل مكة أدرى بشعابها – هو " أمل دنقل - أمير شعراء الرفض " وكان هذا سبب رفض الكتاب من قبل رئيس المركز الدكتور عبد العزيز الدسوقى الذى رأى ان لقب أمير الشعراء ليس لقباً رسمياً لأمل دنقل. إنه لم يصدر مرسوم حكومى مثلا يمنحه اللقب فكيف يأتى فرد مثل نسيم مجلى ويمنحه ما لا يملك؟ "

(السياسة 18 أغسطس 1988)

2- فى البحث عن مصادر أمل دنقل

وبعيداً عن الضجة الصحفية فإن نشر هذا الكتاب قد أثمر ثماراً طيبة وعديدة فى حقل النقد الأدبى إذ أيقظ الإهتمام بشعر أمل دنقل وحياته وطرح أسئلة هامة حول مصادر ثقافته، وعلاقاته الفكرية والفنية بأسلافه وأساتذته الراحلين، والمعاصرين فى تراث الثقافة العربية والإنسانية.

إذ لم يكد ينشر الأستاذ رجاء النقاش مقاله " شاعر من الصعيد وشاعر من اليونان والذى يشير إلى وجود علاقة بين شعر أمل دنقل وشعر الشاعر اليونانى كفافى الذى عاش وكتب أشعاره كلها بمدينة الإسكندرية، حتى جاءته رسالتان تؤكدان على أن تأثر أمل دنقل بشاعر آخر هو الشاعر السورى محمد الماغوط.

فى ذلك الوقت تلقيت رسالة من الشاعر والصديق وصفى صادق ومعها صورة لمقال منشور بمجلة " الآداب" اللبنانية
(نوفمبر 1967) بعنوان "اتهامات امام أمل دنقل" يقول فيه كاتبه الأستاذ محمد على الخفاجى من كربلاء بالعراق:

" إن الشاعر استفاد من تجارب شعراء آخرين ومع تطويره الذكى لهذه الإستفادة إلا أنه لم يستطع التخلص من الشبهة ونفى العلاقة وكان اول ما وجدته فى قصيدته (لا

وقت للبكاء) التى لا تعدو ان تكون فى بعض أبياتها امتصاصا لأبيات من قصيدة (وصفى صادق مينا) المنشورة فى مجلة الآداب العدد 11 لسنة 1967 والتى عنوانها (أمى والجرح الذى يدمى). ثم قدم أمثلة على صحة ملاحظاته.

بعد ذلك إنتقل الأستاذ محمد على خفاجى للمقارنة بين قصيدة " الضيف " لنازك الملائكة وبعض أبيات أمل دنقل دون أن يتمكن من تحديد من الذى أثر ومن الذى تأثر، وذلك لأن هذه القصائد لا يوجد تاريخ محدد لكتابتها لنعرف من منهما سبق الآخر. لكنه يؤكد بشدة على تأثر امل دنقل فى قصيدته (ميته عصرية) بقصيدة (الفرح ليس مهنتى) لمحمد الماغوط رغم عدم وجود تواريخ لهذه القصائد أيضاً.

هكذا انفتحت آفاق البحث فى شعر أمل وفى مصادر ثقافته وفنه بفضل هذه المساهمات وغيرها. وكان هذا الجانب مثار تساؤل وجهه إلى الأستاذ رجاء النقاش فى مقاله " أمل دنقل أمير شعراء الرفض " بالمصور (11 أغسطس 1988) على النحو التالى :

" على ان الكتاب على قيمته وجديته يثير فى الذهن عدداً من النقاط السلبية. فقد كان بحاجة إلى فصلين كبيرين يتحدثان بوضوح ودقة عن حياة الشاعر وثقافته. فالميسور أمامنا – حتى الأن – من حياة الشاعر ضئيل ولا يكفى للكشف عن الحقيقة، أو رسم صورة دقيقة للشاعر. ورغم ان أمل دنقل كان يعيش فى شوارع القاهرة ونواديها الأدبية ومقاهيها المختلفة. وكان بطبيعته المتمردة والفضولية والمقتحمة يعرف عدداً كبيراً جداً من الناس ويعرف أخبارهم وحقائق حياتهم فإنه هو نفسه كان يخفى بذكاء ودهاء شديدين كثيرا من الحقائق حول حياته، ونحن لا نعرف مثلا أى شئ عن الفترة التى قضاها فى السويس .... لماذا سافر إلى هذه المدينة، وماذا كان يفعل بالضبط هناك، وما البيئة التى ارتبط بها فى هذه المدينة؟ .... كذلك فإن فترة إقامته فى الإسكندرية كانت أكثرغموضاً. فقد أقام هناك عدة سنوات، انقطع فى معظمها عن كتابة الشعر ..... فكيف كان يعيش فى الإسكندرية؟ وما البيئات التى كان يختلط بها وماذا كان يعمل وماذا كان يقرأ؟

هذه الأمور كلها أشار إليها الناقد إشارات عابرة ولم يبذل ما كان مفروضاً عليه أن يبذله من الجهد فى سبيل الكشف عما فيها من غموض، ولقد كان كشف الغموض عن حياة امل دنقل وخاصة فى المرحلتين الأولى والوسطى منها، أمراً ضرورياً لفهم هذا الشاعر ورسم صورة واضحة ودقيقة له. وانا فى ظنى ان الكشف عن غموض هذا الجانب فى حياة أمل دنقل ليس بالأمر الميسور أو السهل، لأن الشاعر لم يكن يحب أن يتحدث عن ذلك حتى إلى أقرب الناس بالنسبة له. ومع ذلك فلن تكون لدينا صورة حقيقية لهذا الشاعر الكبير بدون الكشف عن هذه الفترة الغامضة من حياته ".

هذه إحدى السلبيات التى سجلها الأستاذ رجاء النقاش فى نقده. وأنا أتفق معه على أهمية استكمال هذا الجانب، ولكن كيف السبيل؟ وقد أشار هو إلى السبب الأساسى الذى يجعل هذا الأمر صعباً عسير المنال بقوله إن الشاعر أمل دنقل كان يخفى قراءاته وأسرار فنه عن أقرب الناس إليه .... كذلك لم يكتب لنا شيئاً عن حياته أو تعليمه أو ثقافته كما فعل صلاح عبدالصبوروالبياتى والسياب مثلا. كذلك لم ينشر أحد من أصدقائه أو القريبين منه ما يفيد فى كشف غموض هذه المراحل الهامة من حياته، فماذا يفعل الناقد فى هذه الحالة غير ان يعتمد على ما هو متاح وعلى شعر الشاعر وماتيسر من حوارات معه لكى يستضئ بها فى دراسته. لقد كان الشعر هو طريقى إلى أمل دنقل ولم تكن لى به أى علاقة شخصية. فأنا لم ألتق به سوى مرتين فى أوائل السبعينات فى مجلة الكاتب وعند ظهور كتابى سألنى عن ذلك أحد الأدباء المعروفين قائلاً: "ربما لوعرفت امل كما عرفناه لما تحمست للكتابة عنه".

كان طبيعياً جداً فى ظل هذه الظروف أن أعتمد على الشعر بالدرجة الأولى ليكون دليلى إلى الشاعر. فالشعر أولاً وبعد ذلك تأتى اهمية الشاعر وحياته وثقافته. لأن الشاعر يعرف بشعره، فما أكثر الذين يقولون الشعر وتحتفى بهم وسائل الإعلام وليسوا بشعراء. وقد ساعدنى هذا الموقف على أن احافظ على قدر كبير من الحياد والموضوعية فى دراستى له وتقييم دوره.

لقد عمدت إلى دراسة المؤثرات التراثية والثقافية فى شعر أمل دنقل وفى عقلى وذاكرتى إحدى مقولات ت . س . اليوت فى مقاله " التقاليد والموهبة الفردية " التى تقول ان شكسبير خرج من قراءته لبلوتارك بشئ هام جداً وجوهرى لم يكتشفه أحد ممن قرأوا معظم كتب المتحف البريطانى. هذا القول يبين أن الموهبة الفردية لها الدور الحاسم فى عملية الإبداع الشعرى والفنى عموماً. فليس المهم أن يقول كاتب أو شاعر إنه قرأ لهذا أو ذاك بل المهم ان نجد أنه قد استفاد بهذه القراءة، ثم نقرر: هل كان ذلك له أم عليه وهذا ما طبقته على امل دنقل دون إغفال لأى معلومة مفيدة مما وقع تحت يدى و أطلعت عليه، وهذا الكلام يمهد السبيل لتوضيح نقطة أخرى خاصة بدراسة أمل للقرآن وأثر هذه القراءة فى شعره، وهو ما أخذه على الأستاذ رجاء النقاش حين قال:

" أما النقطة الثالثة التى أحب أن اثيرها هنا فهى تركيز الناقد " نسيم مجلى "على تأثير" العهد القديم والإنجيل" على شعر أمل دنقل. ولا شك ان ما وصل إليه الناقد، فى هذا الميدان هو أمر صحيح ومفيد ودقيق، ولكنه مع ذلك – يبدو شديد النقص، فامل دنقل - كما يتضح من شعره – قد أهتم اهتماما واسعاً بقراءة الكتب الدينية عموماً، ولم يقتصر على القراءة الدقيقة للعهد القديم والانجيل، بل قرأ القرآن. وربما تكشف معلومات أخرى فى المستقبل، أنه حفظ القرآن. وقد ترك القرآن أثره الواضح على الأداء الفنى لامل دنقل فى صوره وإيقاعاته وفى القصص الدينية الكثيرة

التى استخدمها فى قصائده المختلفة .... فلماذا تجاهل الناقد الأثر القرآنى على شعر أمل دنقل، واكتفى بالاهتمام الواسع بأثر الانجيل والعهد القديم على الشاعر؟

والأستاذ رجاء النقاش على حق فى طرح هذا السؤال، لأن أمل تأثر فعلاً بالقرآن فى شعره وقد أشرت أنا لهذا التأثير فى عدة أماكن وبالأخص فى الفصل الأخير الخاص بـ " القيم التراثية فى شعره " (ص 260) حين تناولت الجزء الثانى من قصيدة " صلاة ":

تفردت وحدك باليسر إن اليمين لفى الخســـــــر
أما اليسار ففى العسر إلا الذين يماشـــــــــــون
إلا الذين يعيشـــــون يحشون بالصحف المشتراه
العيون فيعشـــــون إلا الذين يـوشـــــــــون
ياقات قمصانهم برباط السكوت

وهذا يؤكد انه لم يكن هناك تجاهل أبداً. ولكن ما حدث فعلاً هو أننى أشرت إلى كل المؤثرات والرموز التراثية فى شعر أمل دنقل ، ولكنى أعترف أن هناك قصصاً ظننتها من التوراة مثل قصة " يوسف محبوب زليخا " فى قصيدة " العشاء الأخير " وحكاية الطوفان فى قصيدة " لقاء خاص مع ابن نوح " وقد وردت فى التوراة فعلاً لكن أمل أضاف إليها جوانب أخرى وردت فى القرآن وهذا ما عرفته من قراءة كتاب الدكتور جابر قميحه " التراث الإنسانى فى شعر أمل دنقل " حيث قدم المؤلف رصداً دقيقاً لمصادره التراثية وتناول فيه طريقة تناوله للتراث ، واحتج على صياغة أمل للعبارات والرموز القرآنية بطريقة بدت للدكتور قميحة مخالفة للمفهوم القرآنى دون مبرر لكنه أثبت فيه تلاحم الأسلوبين الإنجيلى والقرآنى فى بعض القصائد.

وقد انتقد الدكتور سيد البحراوى منهج الدكتور قميحه بقوله: -

" وكان أمينا فى رصده ما جاء فى شعر أمل وحواراته، ولكن مع الأسف لم يستطيع أن يقدم تحليلاً- ولو جزئياً – لمنهج الشاعر فى التعامل مع التراث فيما عدا انتقادات ايدولوجية أثبت فيها رفضه لتمرد أمل على الصيغ التى قدم بها القرآن، الشيطان وابن نوح .... الخ، دون ان يحاول استيعاب ما إذا كان ذلك التمرد ممتداً وعميقاً أم هو مجرد مخالفة ظاهرية، ولماذا فعل الشاعر ذلك فى ضوء بناء القصيدة ... الخ " (البحث عن لؤلؤة المستحيل ص 154).

وهذا الخلاف الواضح بين الناقدين فى التفسير انما يؤكد إشكالية التعامل مع الرموز الدينية فى القصيدة الحديثة. وهذا الاختلاف فى التفسير ليس وقفا علينا كمصرين أو كعرب، بل أنه قائم فى الغرب أيضاً، وهو مرتبط عادة بالموقف الايديولوجى للمتحاورين. فقد أوردت فى الفصل الأخير من كتابى هذا القصيدة التى كتبها أحد الشيوعيين قبل الثورة الروسية سنة 1917 ليسخر فيها من القيصر وحكومته على النحو التالى:

أبانا الذى فى بطرسبورج
اللعنة على اسمك
ليهوى ملكوتك
ولا تتم مشيئتك حتى فى الجحيم
خبزنا كفافنا الذى سرقته منا
أعطنا اليوم وسدد لنا ديونك حتى الآن
ولا تدخلنا فى تجربة لكن نجنا من الشرير
من بوليس بالسيف، وضع حدا لحكومته اللعينة
ولكن لأنك ضعيف ومنسحق فى الروح
وفى القوة والسلطان .... فليسقط إلى الأبد اسمك
آمين.
(كتاب" كارل ماركس " ترجمة: عزت زكى – لم يذكر اسم الناشر ولا تاريخ النشر).

ليس فى القصيدة أى مساس بالمشاعر الدينية طبعاً لأن السخرية واللعنة موجهه بشكل واضح جداً إلى الساكن فى بطرسبورج أى القيصر ثم رئيس حكومته المسمى (بالسيف) الذى كان يطارد الثوار. ورغم هذا الوضوح فإن الكاتب الغربى (ريتشارد رمبراند) مؤلف الكتاب، يقدم هذه القصيدة على أنها صلاة تجديفية ضد الله وهذا يردنا إلى نقطة البداية فى مناقشة هذا الإتجاه الخاص باستلهام عناصر التراث الثقافى والدينى فى الشعر ولماذا يلجأ إليه الشاعر الحديث.

إن القصيدة الحديثة كتبت أساساً للتعبير عن تجربة إنسانية يعيشها الإنسان في هذا العصر وتزداد خصوبة هذه التجربة وقوتها بمدى صدقها فى التعبير عن واقع الإنسان فى وطن معين أو بيئة معينة، وذلك لأنها تجربة خاصة وليست تعبيراً عن كليات اومفهومات فلسفية أو دينية مجردة. وهذا ما يضفى عليها صفة الحداثة، وفى شعر أمل دنقل – هذا الشاعر القومى الثائر تكتسب هذه الطريقة بعداً جديداً فتصبح القصيدة عنده سلاحاً نضالياً لتدمير كل المفاهيم الخاطئة التى تكبل العقل العربى ..... وتعجزه عن استيعاب المفهوم الحقيقى للحرية بمضمونها الاجتماعى والسياسى الذى لا يقبل الفصل أو التجزئة وإلا لأنقلب الحال إلى سيادة طبقة طاغية مستغلة للمكافحين والمنتجين الحقيقيين على كل صعيد.

إن الشاعر حين يستعين بالرموز التراثية أوالدينية لا يقصد فى أغلب الأحيان إلى إحياء قيمة من قيم الماضى أو شرح نص دينى أو موقف دينى أساساً وإنما يقصد إلى إضاءة جانب من تجربة إنسانية عصرية ويصبح من الضرورى النظر لهذا العنصر الدينى فى إطار السياق العام للقصيدة كجزء من كل: هو القصيدة.

فإذا ذكر الشيطان فى قصيدة " كلمات اسبارتاكوس" مثلاً، فإنما ليبرز زاوية واحدة فقط هى تمرد الإنسان المعاصر على السلطة المهيمنة التى تسحقه بطغيانها، وليس أبداً تمجيداً لعصيان الشيطان لله سبحانه وتعالى كما قال أحد الكتاب فى مهاجمته لى فى مجلة " أدب ونقد " [1]. فهذه السلطات حينما تقهر الإنسان وتقتله فهى تؤله نفسها وتدعى ما لا يحق لها من سلطان.

- **3- كيف ننظر لعناصر التراث فى القصيدة الحديثة؟**

نشرت مقالاً فى مجلة "أدب ونقد – يوليو 1985" بمناسبة الذكرى الثانية لوفاة الشاعر أمل دنقل تعرضت فيها لقصيدة "كلمات اسبارتاكوس الأخيرة" و فوجئت فى العدد التالى من المجلة بمقال يهاجمنى فيه كاتبه بإسلوب ملئ بمشاعر التعصب والإستعلاء فرددت عليه رداً مستفيضاً حرصت فيه على الدقة والموضوعية والأدب لأجعل منه مثلاً فى كيفية التحاور بين الدارسين والنقاد، ومحاولة لكيفية النظرة الصحيحة لعناصر التراث فى القصيدة الحديثة. ابتدأته بعتاب رقيق ثم أخذت فى تفنيد ملاحاظاته العديدة واكتفى بذكر مثل واحد منها هنا فقلت

أما عن اعتراضه على تفسيرى لقول أمل دنقل:
المجد للشيطان معبود الرياح
من قال: لا، فى وجه من قالوا: نعم .....(1)

حين يجتزئ الدكتور عبارة " نموذج العصيان القاطع فى وجه جمهرة الخائفين " ثم يقفز إلى أن المقصود بمجمهرة الخائفين هم الملائكة ثم ينبرى للدفاع عن الملائكة وعن طاعتهم لله ودوافعها مع أننى لم أذكر الملائكة من قريب أو بعيد لأن الإهتمام كله مركز على الشيطان كمعادل موضوعى لتمرد بعض الأفراد ضد السلطة المطلقة أو ضد الطغيان وهى قيمة أدبية أو تقليد أدبى استخدمه الشاعر الألمانى جيته فى قصته
"دكتور فوستس" واستعمله الشاعر الإنجليزى مارلو فى مسرحية بنفس الاسم واستخدمه الشاعر الإنجليزى ميلتون فى ملحمته "الفردوس المفقود" الذى قام بترجمتها أخيراً الدكتور محمد عنانى ... ونفس الشئ فعله العقاد فى قصيدة كبرى باسم "الشيطان" يعدها بعض النقاد أفضل قصائده.

فلماذا كل هذا الغمز واللمز والتهديد بإثارة الجدل العقيدى والاتهام – وقول الدكتور مصطفى رجب " إن هذه اللغة من الكاتب من شأنها أن تثيرجدلاً على"المستوى العقيدى لدى المتذوقيين والقراء". فليطمئن الدكتور أن الملحدين لا يعترفون بوجود الشيطان أصلاً كجزء من انكارهم لما وراء الطبيعة أى انكارهم لعالم الغيب. والمؤمنون فقط هم الذين يذكرون الشيطان ويذكرون تمرده أورفضه كرمز للشموخ أو العصيان كما يفعل بعض الشعراء. وبناء على ما تقدم لا يكون فيما كتبته سبباً للإثارة أو الإصطياد أو التشكيك. وإدعاء الإيمان الذى هو "ما وقر فى القلب و صدقه العمل" والمزايدة عليه ثم تصيد هذه الأخطاء ليس من مهنة النقاد أبداً.

أما قولك على مستوى الفهم الأدبى الراقى المستند إلى رؤية واقعية تنظر إلى ما رواء النص الشعرى لتفهم ما يريد الشاعر ان يقول وهذا ما فعلته أنا فى دراستى ولكنك أنكرته على أساس أنه تفلسف – مع إن الفلسفة والتفلسف أمور من طبيعة النقد الأدبى ويكفى دليلاً على ذلك ان أول من وضع أصول النقد الأدبى هو الفيلسوف "أرسطو" بكتابه "فن الشعر " وما زال فلاسفة علم الجمال والأخلاق والإجتماع يساهمون فى قضايا الفكر الأدبى ومناهج النقد. رفضت كل هذا ورفضت "أن تنظر إلى ما وراء النص الشعرى" حتى ترى الوحدة من خلال التنوع أو ترى التوافق فى الرؤية خلف التناقض الظاهرى واكتفيت يا دكتور بطرح الألغاز على أنها ملاحظات وتهربت تماماً من تقديم وجهة نظرواضحة صريحة حتى أننى وكل من قرأ كلامك لا يعرف ماذا ترفض وماذا تقبل فأنت ترفض أن يكون أمل داعية للتمرد وترفض أن يكون داعية للاستكانة والخنوع. وترفض قولى بأن " الشاعر يستخدم النقيضين ساخراً سخرية مريرة بواقع الإنسان فى مجتمعنا، وبالبدائل المطروحة أمامه. وهو يستخدم هذا الأسلوب الغريب لكى يستوقف قارئه و يستفز مشاعره وعقله حتى يفكر فى مأساة حياته". (1)

فبناء القصيدة يقوم على المفارقة المركبة التى سماها الدكتور لويس عوض "بلاغة الاضداد" حيث يقول فى مقاله " شعراء الرفض " (الاهرام 1972/7/7) " وهكذا ينتقل أمل دنقل من النقيض إلى النقيض، فالقائل: المجد للشيطان فى أول المنولوج ينتهى بقوله إن كل دمعة سدى. ولكن ما هكذا ينبغى أن يفهم شعر الشعراء، فهناك نوع من التهكم الخفى الذى يقصد إليه الشاعر سواء فى تمجيده لشموخ أعظم العصاة أو فى تبشيره بضرورة الإنحناء والإنهزامية بغير قيد أو شرط وهذا التهكم الخفى مجسد فى المقابلة يقيمها الشاعر بين الرفض الأعظم و القبول الأعظم، وإلا كانت دعوته فى آن واحد عبادة للشيطان و لعنة على البشر"

" هذه طريقة شعراء الرفض إذن فى التعبير عن إحتجاجهم على الواقع المرفوض. هم يؤلبون الطغاة على الطغيان بتمجيد الطغيان .... وهم يؤلبون العبيد على العبودية بتمجيد العبودية وهذه بلاغة الاضداد"

وقد تناول الرائد الكبير صلاح عبد الصبور فكرة استشراء الطغيان وسيادته فى رائعته "مسافر الليل" حين يتحول عامل التذاكر إلى طاغية يحكم على الراكب بالموت ثم يطلب إلى الراكب أن يكون كبش فداء حتى يهدأ الناس ويستتب الأمن ولنقرأ معاً هذه السطور حتى يستقيم لنا فهم هذه الفكرة:

عامل التاكر: لا داعى للشكر
هل تدرى ما معنى فقد بطاقتك الشخصية
معناها أنك لست بموجود
فالسارق قد قتلك
إذ أفقدك تشخصك المتعين

الراكب: سامح جهلى يا مولاى
ما معنى هذه الكلمة؟

عامل التذاكر: أى أفقدك وجودك
أفهمت
ولهذا حين أقول:
أنت قتلت الله
لا أعنى طبعاً أنك – استغفره – قد ....
لا لكنى أعنى: أنت سرقت بطاقته
وبهذا يتساوى الأمران.

الراكب: لكنى لم أفعل شيئاً من هذا قط

عامل التذاكر: هذا أمر آخر
نتداول فيه فيما بعد
لكن الموضوع .....
إن الله تخلى عن هذا الوادى
لا يعطينا شيئاً قط
لا ينظر فى هذه الناحية كما كان
قلنا: ماذا حدث
قالوا: أحدهم قد قتل الله هنا

ولهذا فهو يخاصمنا
أعنى – طبعاً – أحدهم قد سرق بطاقته
الشخصية

وانتحل وجوده

لا يحتاج هذا الحوار البليغ إلى مزيد من الشرح. فقد أصبح واضحاً الآن أن الطاغية يدعى فى أغلب الأحيان أنه يحكم بتفويض من الله وبهذا ينتحل صفة الربوبية. وضد هذا الطاغية المتأله يكون التمرد سواء كان التمرد ضد قيصر روما مثل اسبارتاكوس أو قيصر روسيا كقصيدة" ابانا الذى فى بطرسبورج" وليس فى هذه القصائد خروج عن جوهر الإيمان الصحيح بالله باعتباره أساس العدل والحرية فى كل مكان وزمان، لكنه خروج عن مفاهيم دينية ومسلمات تحتاج إلى تحليل وغربلة حتى تستقيم مع منطق العقل السليم الذى هو مناط التكليف الأساسى فى الشريعة الإلهية. فالخلاف إذن بين مفاهيم ومواقف أيديولوجية بشرية وليس مع الدين أو الإيمان الصحيح الذى يستقر فى القلب ويصدقه العمل. وفى هذا السياق يمكن أن ننظر لهذه القصائد التى تستلهم النصوص أو الرموز الدينية.

وكما تقول عبلة الرويني

" إن قصيدة (مقابلة خاصة مع ابن نوح) لا تشكل خروجاً فقط عن الموروث الدينى السائد بل تشكل تعديلا وتثويراً لطبيعته حيث يطل ابن نوح فيها متمرداً عصرياً، خارجاً من فكرة العقوق السلفي إلى الثورة".

خرج أمل أيضاً على ثقافة الطبقات السائدة والأطر الشرعية الجامدة حين تكتسب رموزها تجسيداً سلطوياً بل عبثياً باطلا يهبط دائما إلى نتائج خاضعة .....

أبانا الذى فى المباحث
نحن رعاياك .....باق
لك الجبروت .... وباق لنا الملكوت
وباق لمن تحرس الرهبوت
(كتاب " الجنوبى" ص81)

إن الفهم الصحيح لهذا الموضوع يفتح الطريق لدراسة العناصر الدينية فى شعر أمل دنقل دراسة نقدية بعيدة عن تشنج المتعصبين وحساسية السلفيين حتى يتسنى لنا رسم صورة حقيقية لهذا الشاعر العربى الفذ بالتعرف على مكونات ثقافته ومعتقداته الأساسية التى ساهمت كمصادر الإلهام الشعرى – ولا خوف من النتائج فمن الواضح وكما تقول زوجته عبلة الرويني: إنه قلق لا يحمل يقيناً ..... تاريخ معتقداته حافل بالعصيان، لكنه غير ملحد. (ص 6).

والواقع أن السيدة عبلة الرويني تضئ لنا جانباً هاماً من ثقافة أمل وقراءاته المبكرة حين تذكر أنه فى الخامسة عشر من عمره .... اشترى من إحدى مكتبات مدينة قنا كتابين
(الفتوحات المكية) و(ألف ليلة وليلة).

وفى تلك السنوات قرأ العديد من كتب التراث والملاحم و السير الشعبية، ثم أعاد قراءتها بعد ذلك مرات عديدة، يحركه حس تاريخى لإكتشاف الطبقات المتراكمة وراء الحكايات و المعلومات.

ففى قراءته لكتاب ألف ليلة وليلة – كما ذكر يوماً – كان يبحث عن الجزء المصرى فيها والآخر البغدادى والآخر الذى يرجع إلى ممالك تيمور لنك كما وجد رؤية شعبية لها ... إن أغلب أبطال ألف ليلة وليلة تجاراً حيث شهدت هذه الفترة إزدهاراً لطبقة التجار الذين امتلكوا الحياة الاقتصادية بينما امتلك المماليك مقاليد السلطة.

كانت القرءة بالنسبة إليه بحثا واكتشافا. يقرأ عن الإله (هبل) فيبحث عن امتدادته فى الحضارات الأخرى ويعقد مقارنة ودراسة مكتوبة بينه وبين الإله (بيل) عند الكنعانيين، والإله (بعل) عند الآراميين . ثم يقدم دراسة تاريخية عن قبيلة (قريش عبر التاريخ) ويقوم بنشرها ثم يقوم بإعداد دراسة طويلة عن أسباب نزول القرآن من منظور تاريخيى. رفضت الاهرام نشرها.

ظل اهتمامه بالتراث وبأيام العرب والتاريخ الإسلامى يرجع بالاساس إلى محاولته الدائمة للبحث عن هوية – كما أكد دائماً – انطلاقاً من حس عربى وإيمان بأن مصر عربية الروح، عربية الانتماء، وتختم عبلة الرويني هذه الفقرة قائلة:

" ويظل برأى كتاب القرآن الكريم والكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) هم أهم ثلاثة كتب فى ثقافته، تلقى الكثير من الضوء على ابداعه ولغته " (كتاب "الجنوبى" ص 93)

كان أمل دنقل ينظر إلى هذه الكتب فى نطاق التراث العربى، بل يذهب فى رأيه إلى اعتبار التوراة والتراث السامى كله تراثاً عربياً. كذلك يؤكد الدكتور سيد البحراوى على حرص أمل على عروبة التراث وليس اسلاميته.

لكن هذا لا يمنع من فرز عناصر هذا التراث، لتحديد دور هذه المؤثرات فى شعره. وقد إتبع الدكتور سيد البحراوى منهجاً صحيحاً فى الفصل بين العناصر التوراتية والعناصر القرآنية فى دراسته لقصيدة (مقابلة خاصة مع ابن نوح) كما بين دور كل عنصر ودلالته فى تشكيل هذه القصيدة. ومن الضرورى تطبيق هذا المنهج بدقة لفرز الرموز والصور المستلهمة من الكتب الثلاثة، وتحديد نصيب كل كتاب فى هذه العملية بدقة.

لذلك فإننى ما زلت أسعى للحصول على هذه المعلومات من كل المصادر الممكنة، والتى يحتمل أن تفيدنا فى تغطية هذا النقص الخاص بحياة الشاعر أمل دنقل، لذلك استبشرت خيراً حين أخبرنى الأستاذ رجاء النقاش بأنه تلقى خطاباً من الأستاذ أنس دنقل، شقيق الشاعر الأصغر، يقول فيه أن لديه الكثير من المعلومات ومن رسائل أمل وهو مستعد لإطلاعنا عليها.

ونصحنى الأستاذ رجاء بالاتصال به ليرسل لى صورة منها. ورحبت بالفكرة وكتبت له خطابا وانتظرت حوالى تسعة أشهر ثم اتصل بى تليفونيا وعرفنى أنه موجود فى القاهرة و فى المساء التقينا فى الأتيليه. اهديته نسخة من الكتاب، و عرفت أنه لم

يقرأه و إنما رآه مع واحد من الناس. وواضح أنه لم يهتم بما كتب عن أخيه وعن شعره لأنه يعمل محاسباً لا يهتم إلا بالارقام. وهذا ما عرفته من حديثهً معى. إنه يشكو من شح الناشرين، ثم سألنى عما أريد منه. فقلت أن تطلعنى على صور من رسائل أمل التى تفيد عن تعريفنا بحياته فى السويس والإسكندرية وعن أصدقائه من الشعراء أومن غير الشعراء فى هذه المدن وعن قراءاته التى ساهمت فى تكوين شخصيته و أفكاره وساهمت فى تطوير شعره.

و ذكرته بما جاء فى خطابه للأستاذ رجاء النقاش فوعدنى بأن يرسل هذه الأوراق قريباً كذلك قال إنه جمع عددا من الأحاديث و قدمها للأستاذ مصطفى نبيل فى الهلال لكى تنشر فى كتابً لكنه عاد وسحبها حين عرف أن الدار لن تدفع له أكثر من مائتى جنيه مكافأة وهو يفكر فى نشره على حسابه، وقد شجعته على نشر هذا بأى طريقة حتى يتيح لكل الدارسين لشعر امل فرصة الإطلاع عليه، وطمأنته بأن الكتب لا تدر عائداً يذكر لمعظم كتاب الأدب فأنا مثلاً لم اتقاض عن كتاب أمل سوى (94) أربعاً و تسعين جنيهاً وأربعين قرشاً رغم ما بذلته من جهد ووقت لمدة تزيد عن سنتين . المهم أن الأستاذ أنس دنقل لم يطلب منى ثمناً ووعد بأن يرسل لى ما طليت ولكنه لم يبر بوعده حتى الآن بعد مرور سنوات طويلة على هذا اللقاء. وعلينا نتيجة لهذا الموقف أن ننتظر سنوات أخرى حتى يتم نشر هذه الأوراق وإخراجها بأى صورة.

وكان أول من استجاب لدعوتى هو الدكتور وصفى صادق الذى أرسل إلى "موجز لحياة أمل دنقل فى الإسكندرية " قال فيه "
*** فى عام 1960، استلم الشاعر أمل دنقل وظيفته الصغيرة التى تقدم إليها فى جمرك الإسكندرية، تاركا مدينة القاهرة، وأبناء بلدته: الشاعر عبد الرحمن الأبنودى، والقاص المبدع يحيى الطاهرعبدالله، وكان يناهز العشرين عاماً (من مواليد 1940) بالتحديد.**
*** ظل طوال فترة عمله بالإسكندرية يقيم بصفة دائمة فى اللوكاندات المتواضعة، وبالتحديد اللوكاندة العثمانية الكائنة بميدان المنشية – فوق مقهى العثمانية – وأحيانا لوكاندة شارع فرنسا.**
*** كانت الوظيفة بالنسبة له عبودية ضرورية مؤقتة، من أجل رغيف العيش، فقد عاش على الكفاف بعدة جنيهات شهريا، يعانى الحرمان، وشظف العيش والحاجة، كثير التدخين، و احيانا يشرب الخمر.**
*** وكان يسهر كل ليلة فى مقهى النيل الكائن حتى الآن بميدان المنشية، وقد كان المقهى وقتئذ ملتقى الشعراء والأدباء على اختلاف مشاربهم، وكان يصغرهم فى السن وهؤلاء كانوا:**
(د. حسن ظاظا ، والأساتذة:عبد الرحمن الأنصارى، عبد العليم القبانى، محمود العتريس، أحمد السمرة، فوزى الميلادى، و عبد القادر العوا، والسقا الشناوى)، والأخيران قد توفيا منذ فترة.

*** في عام 1962 انضم إلى هذه الكوكبة طالبان بكلية الصيدلة بالإسكندرية هما: وصفى صادق مينا ومصطفى سليم قويدر، و السيد الشرنوبى الطالب بكلية الآداب (والذى توفى عقب تخرجه بسنوات فى ريعان شبابه).**

وكان الشاعر أمل دنقل عضوا فى جماعة نشر الثقافة – فى أيامها الأخيرة - وكان يلقى الشعر مع غيره من شعراء الإسكندرية فى عدة أماكن : مثل نادى موظفى الحكومة وفى كلية الآداب ، وفى دار الجامعة الشعبية التى تحولت إلى الثقافة الجماهرية وكان يتمتع بحضور شخصى ويحوز إعجاب المثقفين وقتئذ .

طوال فترة إقامة الشاعر أمل دنقل فى الإسكندرية لم يكتب سوى بعض القصائد القليلة من الشعر العمودى والشعر الحديث. فمن قصائده العمودية: قصيدة " طفلتها " التى نال عنها جائزة المجلس الأعلى للفنون والآداب، وقصيدة " الأفعى " التى لم تنشر مطلقا في داوينه المتفرقة أوأعماله الكاملةً ومطلعها: امشى ولا امشى قيودى خفية وقصيدة "رسالة من الشمال " وقصيدة " الملهى الصغير ".
أما قصائد الشعر الحديث التى كتبها فهى: قصيدة " حكاية المدينة الفضية " وقصيدة " ماريا " وقصيدة " كريسماس" التى لم تنشر أيضاً فى أعماله وقصيدة "المطر.

كان متأثراً فى قصائده العمودية خاصة قصيدة " الأفعى " بالشاعر" محمود حسن إسماعيل " كما كان تأثره واضحاً – باعترافه – بالشاعر أحمد عبد المعطى حجازى فى مجال الشعر الحديث.
*** ترك مدينة الإسكندرية ورحل إلى مدينة السويس ليعمل فى جمرك السويس، ليعود إلى القاهرة عام 1966.**

وفى ختام رسالته وعد الدكتور وصفى أنه سوف يرسل نص قصيدة "الأفعى" المفقودة والمشار إليها سالفاً ثم أخبرنى فيما بعد أنه لم يعثر عليها فى أوراقه، لكنه أرسل إلى قصيدة " كريسماس " التى ننشرها هنا:

قصيدة: كريسماس

إثنان ... لم يحتفلا بميلاد المسيح:
أنا والمسيح
غرفتنا لم تنطفئ أنوارها عند انتصاف الليل
لأنها لا تعرف الأنوار!
غرفتنا لا تعرف الليل من النهار
عين المسيح فى دجاها قمر حزين

فى الصمت ينزف الدموع
يسوعنا فى حاجة إلى يسوع
يمسح عن جبينه كآبة الأحزان
لأنه فى عيده السجين
مد يديه، لم تصافحا سوى القضبان، والقضبان!

النور ميت بلا شواهد الذكرى، بلا ضريح
أين المسيح؟
أي؟ يا من تجرعون باسمه الأنخاب
يا أيها الذين يرقصون فى ذكرى القتيل
استمتعوا بالرقص والأنغام.. والشراب
فالناس يرقصون دونما أسباب
لكن فى صفوقهم من يقرع الطبول
لحناً بدائياً!

الناس يرقصون فى مدينتى
لأن غيرهم يصفقون!
ومن يصفقون قد لا يعرفون ...
من أجل من يصفقون!
لا تسألوا أين يسوع وابتسامه الوديع
فمن رثاه ميتا .... لم يرثه حيا
يموت فى زنزانة بلا عيون
وضجة الميدان تنتهى إلى آذانه وتضمحل ...
صمتاً خرافياً

انا انتظرت أن يموت الموت، ان يموت
أسكت فى لسانى الحروف حتى يورق السكوت!
هل تتكون الحروف فى فم ما زال يمضغ اللجام؟
أنا تركت طفلتى تجوس قى شارع المدينة
تسألكم أن تبتسموا لها، مجرد إبتسام
لكن ...رد دتم دونها الأبواب

لو كنت ريحاً.. لأختنقتم حين لا تهب!
لو كنت نوحا فوق لجة الطوفان
طردتكم من السفينة!

لو كنت نيرون لطهرت قلوبكم ... على ألسنة اللهب!

لكنى أحبكم
أعرف أنكم تقاتلون من يحبكم
لكننى ... أحمل نعش الحب فوق كاهلى الصغير
أمشى به .... لعل هذا الجسد الهامد يوماً يسير!
باسم الذين يولدون ميتين
ومن يضاحكون وجه الشمس فى الحقول
ومن يقاتلون دون سيف
ومن يضاجعون هذا الخوف،
ينجبون منه كل صيف!
اسألكم أن تفتحوا الأبواب للمسيح
لكى تباركوا زمانكم به، تعمدوا أطفالكم فى دمعه المنهل

أخشى إذا مر الربيع
وانفض رقصكم ... وخيم الصقيع
يكون قد مات المسيح! (أمل دنقل 1963)

اتصلت بعد ذلك مباشرة بالدكتور نصار عبد الله، الشاعر المعروف وأستاذ الفلسفة بكلية آداب سوهاج، وكان الدكتور نصار عبد الله، رفيقاً لأمل مدة من الزمن وقد أكد فى شهادته على أن أمل دنقل كان معجباً جداً بالشاعر العراقى سعدى يوسف فى ديوانه الأول وكذلك بالشاعر السورى محمد الماغوط. كذلك دلنى الدكتور نصارعلى أن لأمل دنقل عدداً من قصائد الهجاء الهامة كتبها فى هجاء عدد من اصدقائه الشعراء واسمعنى بالتليفون عدداً من هذه القصائد، ثم أخبرنى أن امل قد كتب قصيدة هامة يهجو فيها الشاعر الراحل سعد درويش ورد عليه الأستاذ سعد بقصيدة أشد عنفاً منها كقصيدة معارضة وأن هذه القصائد محفوظة فى ملف كان يحتفظ به الأستاذ سعد درويش ونصحنى بالاتصال بالشاعر عبد العليم عيســـى الذى وعدنى بتقديم ما عنده والإتصال بالاستاذ عبده درويش ليسهل لى مهمة الإطلاع على هذه القصائد.

وحين إتصلت بالأستاذ عبده درويش بمنزله بمدينة منوف أعرب عن تقديره لهذا الإهتمام وأكد أنه واجب يفرضه البحث الأدبى وأنه لا يمكنه التقاعس عن أداء هذا الواجب وسوف يأتى إلى القاهرة ويدعونى للقائه فى شقة شقيقه الراحل للإطلاع على هذه الأوراق وكررت الإتصال به لكنه إعتذر فى النهاية. وقد أكد لى الشاعران نصار عبد الله وبدر توفيق تميزقصيدة امل دنقل بالبناء المحكم وبدقة التصوير وشدة السخرية وعلى العكس من قصيدة سعد درويش الحافلة بالألفاظ الفاحشة والبذيئة، فإن قصيدة أمل لا تتضمن إلا على عدة أبيات قليلـــــة خارجة مثل هذا البيت"

كلما قام نقب الأرض بحثا عل (قرشاً) من (جيبه) فر سهوا.
ما بين الأقواس كلمات بديلة وضعتها تفاديا للحرج من الكلمات الأصلية التى تصور وسوسة سعد درويش بصورة جارحة.

ومن الشهادات التى لا يمكن تجاهلها فى سياق البحث عن حياة أمل دنقل وثقافته وعلاقته بالآخرين من الشعراء والنقاد هذه الشهادة التى سجلها الشاعر أحمد عنتر فى ذكرياته، ونشرها فى مجلة " الأقلام " العراقية، حيث يقول أنه تعرف على أمل فى ندوة برابطة الأدب الحديث فى نوفمبر 1969، و خرج وراء أمل دنقل وقدم نفسه له انه شاعر مجند، وفى الحال تذكر أمل انه قرأ لهذا الجندى قصيدة نشرت قبل بضعة أسابيع بجريدة الجمهورية عن صبى استشهد فى القناة وهى قصيدة جيدة. ومن هذه اللحظة بدأت العلاقة بين أمل دنقل وهذا الشاعرالذى يعيش فى جبهة القتال بالسويس أداءا لواجبه الوطنى ثم يأتى فى أجازاته إلى القاهرة ليلقى أشعاره فى المنتديات الأدبية ويتعرف على غيره من الشعراء.

وقد توثقت العلاقة بينهما فيما يبدو ومما يذكره أحمد عنتر أنهما أقاما فى غرفة واحدة على أحد السطوح بحى بولاق الشعبى، وهذا ما يجعلنا نصغى لأحمد عنتر باهتمام وفى الذكريات يقرر أحمد عنتر" ان امل ابتهج حين حدثه عن الأغانى والعقد الفريد وزهر الآداب وبدأنا نتبارى فى استظهار محفوظاتنا من أبى فراس والمتنبى والشريف الرضى واكتشفت عدم رضائه عن شوقى .... وتحدث " أمل " عن اعجابه بأبى نواس فاقررته إياه .... وقادنى إلى حب عمر أبى ريشة وتقاسمنا الإعجاب بشاعرية نزار قبانى والتقينا عند حجازى والفيتورى واختلفنا حول عبد الصبور والسياب "

وعن علاقة أمل دنقل بالنقاد يقول أحمد عنتر: لم يكن أمل – رحمه الله - حريصاً على استمطار بركات النقاد المقدسة خاصة الأكاديميين منهم فرأيه فيهم كان يتوزع بين المشاكسة و المداعبة واطلاق التشنيعات المضحكة لم يستثن من هؤلاء الإ ثلاثة: الدكتور عز الدين اسماعيل لأن منهجه النفسى فى النقد وسعة صدره اتسع لمشاكسات أمل ونزقه فكانت علاقتهما طيبة و الدكتور جابر عصفور الذى توثقت علاقته به فيما اعلم – فى تاريخ متأخر عن فترة الصعلكة الأولى أى بعد عام 1975 ، و الذى شاءت الأقدار ان يعايش فترة حرجة مصيرية من حياسة امل إلى أن لفظ الشاعر أنفاسه بين يديه. والدكتور على عشرى زايد الذى أعجب بأمل وكتب عنه بحب ووعى فى كتابه المهم " استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر" قبل ان يتعرف عليه أمل، عن طريقى بكلية دار العلوم وعلى كثرة ما قيل أو كتب حول " البكاء بين يدى زرقاء اليمامة " كان امل يعتد بمقال الناقد جلال العشرى – ولم يكن اكاديميا – الذى نشره فى مجلة الفكر المعاصر المصرية – العدد 53 – يوليو – 1969 بعنوان " أزمة الشاعر الجديد:
والبكاء بين يدى زرقاء اليمامة ".

وفى حديثه عن احب قصائد هذه المجموعة الشعرية الأولى قال امل: قصيدة بكائية ليلية لأنها عن مازن أبو غزالة وحديث عن أبى موسى الأشعرى لجودتها فنياً – وقصيدة " يوميات كهل صغير السن " بها مقطع يخص صديقنا الشاعر نصار عبدالله و قد قصد الشاعر الصعلوك منزله ذات مساء ....

... اطرق باب صديقى فى منتصف الليل
تثب القطة من داخل صندوق الفضلات
كل الأبواب العلوية والسفلية تفتح إلا ... بابه
وأنا اطرق ..... اطرق
حتى تصبح قبضتى المحمومة خفاشاً
يتعلق فى بندول
يتدفق من قبضتى المجروحة خيط الدم
يترقرق عذبا ... منسابا .... يتساند فى
المنحيات
تغتسل الرئتان المتعبتان من اللون الدافئ
يتلاشى الباب المغلق والأعين والأصوات
وأموت على الدرجات.

ثم يضيف أحمد عنتر على ذلك قوله إنه كان يطيب لأمل دنقل أن يقرأ فى أى ندوة تضمه مع الصديق الشاعر محمد عز الدين المناصرة (الذى كان يدرس بكلية دار العلوم بالقاهرة) قصيدته " البكاء بين يدى زرقاء اليمامة " ليس اعتداداً بها بل إغاظة ونكاية فى الصديق الشاعر المناصرة الذى كان يرى انه صاحب الفضل فى اكتشاف الجانب الميثولوجى لقصة" زرقاء اليمامة " وأورده فى قصيدته التى نشرت فى مجلة الآداب قبل قصيدة أمل ..... وكان المناصرة يعلن ذلك لكل من يقابله فى القاهرة أنذاك.
وعلى ذكر " مجلة الآداب ": كان يحلو له أن يستعيد فى مواجهة شلة من شعراء السبعينيات تتطاول على ما كتب وما أثير عن سطوه على رمز(بردى) فى قصيدة محمد الماغوط (أمير من المطر وحاشية من الغبار) ليجعله (نيلا) فى قصيدته "ميتة عصرية " من ديوان (تعليق على ما حدث) ... كان يذكر ذلك بجرأة ولا يرى حرجاً فى هذا ... فهو فارس فى مواجهة نفسه قبل أن يفضح رياء الآخرين .(الأقلام – عدد 6 حزيران 1987 م – أمل دنقل – أوراق قيد الإصفرار) .

وهذا الكلام الأخير يؤكد أن ما يثار الأن حول تأثر أمل أو سطوه على هؤلاء الشعراء ليس جديدا، ولكن الشاعر أحمد عنتر لم يوضح صراحة إن كان ترديده لهذه الإتهامات نابع من رفضه لها والسخريه منها ام اعتراف بالسطو وإقرار بالتأثر فما تفسيره لهذا كله؟ للأسف الشديد إن صاحب هذه الذكريات قد تركنا عند أهم نقطة، امام إشارات

تحتاج إلى تفسير فى وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى سند أو وثيقة تقودنا إلى شئ من اليقين.

وننتقل الأن إلى شهادة الشاعر بدر توفيق، وهو واحد من جيل أمل ورفيقه وأحد شعراء كتيبة الأهرام – كما كان يسميهم لويس عوض – وقد كتب الشاعر بدر توفيق مقالتين هامتين عن أمل دنقل: الأولى دراسة لمجموعة البكاء بين يدى زرقاء اليمامة نشرها عام 1969 فى مجلة " الآداب " بعنوان " كوميديا القلب المعتم " و الثانية فى عام 1983 بجريدة الرياض بعنوان " أول الراحلين من كتيبة الأهرام ".

وتتسم كتابات بدر توفيق عن دنقل بسمتين واضحتين أولهما: رؤيته النافذة لشعر أمل دنقل واكتشاف أهم سماته الفنية وابعاده الإنسانية والإجتماعية وثانيهما – حبه العميق لأمل
وإعجابه بشعره والاعتزاز بتفوقه ونبوغه.

والواقع أن بدر توفيق قد أثبت بهذا الموقف أنه فارس نبيل ، و أكد ذلك بتقديمه صور المقالات لى و بالبحث معى عن كل مصادر الموضوع بحماس شديد ، واعتبر إهتمامى باستكمال هذا الكتاب عملا مخلصاً جديراً بالتقدير ، وأهدانى المقالين للأستفادة بهما فى هذا الشأن، وطلب منى أن أنشر مقاله " أول الراحلين من كتيبة الأهرام" فى ملاحق هذا الكتاب حتى يتيح الإطلاع عليه لمن يهتم بأمر الشعر الحديث كله و رواده و دور لويس عوض والأهرام فى تقديمه لهذه الكتيبة وإلقاء الأضواء على ابداعات أمل دنقل خصوصاً وأن الشاعر بدر توفيق لا ينوى إعادة نشر هذا المقال قريباً .

ونحن نلاحظ بوضوح أن بدر توفيق فى مقاله "كوميديا القلب المعتم" قد وضع يده على أهم ملامح الشعر عند أمل دنقل، و سجل بذلك سبقاً حقيقياً فى دراسة القصيدة الدنقلية. فهو يكشف عن ولع امل بحكايات الحياة اليومية الكوميدية النادرة و الشائعة لرجل الشارع وهو بذلك يذكرنا بحكايات
Thomas Deckker توماس دكر صفحات " الطاعون " من " العالم المدهش " بحكاية الزوج الذى طلب إلى زوجته بعد إصابتها بالطاعون أن تعترف له حتى تلاقى ربها بلا ذنوب ... وتعترف الزوجة وهى على فراش الموت بعلاقتها الحنسية بأزواج جاراتها ... ولكن بعد الاعتراف تشفى من مرضها و يستطيع القارئ تصور ما يمكن ان يحدث لها .

أمل يشدنا إلى مثل هذه المطبات الواقعية النادرة والشائعة التى تكشف أنواع الضعف الإنسانى بكثافة وحصافة أكثر من لغة شعره وكل ما فيها من إيحاء وتركيز.

حبيبتى فى لحظة الظلام، لحظة التوهج العذبة
تصبح بين ساعدى جثة رطبة

ينكسر الشوق داخلى وتخفت الرغبة
اموء فوق خدها
اضرع فوق نهدها
أود لو انفذ فى مسام جلدها
لكن يظل بيننا الزجاج والغياب والغربة
وذات ليلة تكسرت ما بيننا حواجز الرهبة
فاحتضنتنى
لكنها وهى تنادينى سمعتها تناجينى ....
سمعتها تنادينى ....
باسم حبيبها الذى حطم اللعبة

ومن هذا الإهتمام بنوادر الحياة الواقعية تتكشف رؤية أمل الكوميدية لحياة الإنسان ولا يكتف بدر بهذا بل يقتفى جذور هذه الرؤية التراجيكوميدية فى طفولة امل و صباه و يكشف عن وقائع لم اقرأها عند أحد من قبل. ويقول ربما لا تكون حياة الفنان الخاصة شيئاً يمثل قيمة خاصة يتلون بها فنه ولكننا فى معظم الحالات نجدها كذلك ولكن تبقى دائما الإثارة لكل من الناقد والدارس والقارئ.

وهكذا نحن أيضا فى التقائنا بالشاعر "محمد أمل فهيم محارب دنقل" الذى يبلغ طوله 184 سم ووزنه 60 كجم والذى ولد فى 1940/6/23 فى قرية " قفط" التى تبعد 20 كم عن محافظة قنا. نراه يرحل إلى القاهرة سنة 1941 مع أبيه مدرس اللغة العربية ليبدأ تعليمه فى كتاب الشيخ عبده بحدائق القبة مؤديا التحية لمدرسة الفصل عند دخولها للمرة الأولى برفع قدمه اليسرى إلى رأسه بدلا من يده اليمنى ثم يعود عام 1947 إلى قنا فيعلمه أبوه بنفسه مناهج الروضة والقراءة الرشيدة ... وتستمر حياة التلميذ الصغير فى صحبة والده المدرس مليئة بالاضطراب و" العصلجة " ومع مرور الأيام وتعددها تتعدد عقوبات التلميذ الصغير وتتبادله أرجل السرير الحديدية مشدود الوثاق ومضروبا وباكيا .... والشئ الغريب الغامض المثير يكبر ويمتد آسرا عقله الذى ينبض بين جنبيه ... ويصبح المزلاج الداخلى لباب الحمام صديقه الوحيد الذى يدفع عنه شرور الهجوم الأبوى الغاشم على حريته فى " الصياعة " و فى الوقوف على رصيف محطة قنا عام 1948 منتظرا مرور قطار " مولانا المعظم الملك فاروق " مضحيا بعلقة عظيمة من أجل مشاهدة الملك المعظم. ويقرأ أمل دنقل فى كتاب أن من حفظ ألف بيت من الشعر صار شاعرا ومن هنا انكب امل على حفظ ألف بيت حتى يكون شاعرا.

ثم يضيف بدر توفيق إلى هذا قوله:
كان الشعر فى حياة امل دائما هو الإصرار والنية المبيتة.

وبدأت رؤيته الكوميدية لحياة الإنسان وموته واضحة فى الإقتراب من جسد أبيه المسجى على فراش الموت فيفتح عينيه المغلقتين بالموت ثم يقفلهما و يخرج من غرفة الميت بلا دموع تسح على الخدين ليقول للواقفين خارج الباب "لقد مات أبى" كان هذا فى عام 1950.

وفى عام 1957 يحصل على شهادة الثانوية العامة ثم ينتقل إلى القاهرة ليلتحق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب ويقضى بها سنتين فاشلتين ويبدأ حياته العملية الفاشلة أيضاً كموظف بمصلحة الجمارك ثم يترك العمل متجولاً نهاره وليله فى شوارع القاهرة وليس سوى الشعر فى رأسه وفى جيوبه وفى حقيبة ملابسه الصغيرة.

مبالغات النقاد

وعن هذا يقول بدر توفيق: إن أمل دنقل ليس أحسن شاعر فى جيله كما يدعى بعض النقاد والذى يقول هذا فهو جاهل جدا بالشعر ولم يستطع حتى بينه وبين نفسه أن يجيب على هذا السؤال البسيط جدا والصعب جدا: ما هو الشعر؟ ومن هو الفنان الذى يطلق عليه صفة الشاعر؟

أمل دنقل فقط وبالتحديد هو أفضل شاعر مصرى استطاع أن ينجح بدون غموض ولا مبالغة فى كتابة القصيدة الكوميدية حتى الآن ويمكن فى المستقبل أن يعقد على جبينه لواء الشعر الكوميدى الجديد فى هذا العصر إذا استطاع أن يحقق عملاً كاملا فى كوميديا الطبائع البشرية.

ومن النقاط الهامة التى تطرق إليها بدر توفيق فى هذا المقال مقارنة أمل دنقل بكبار الشعراء مثل جون دون وبكتاب الرواية الساخرة مثل فيلدنج ثم يقف بنا امام شاعرين مصريين من جيل امل هما كمال عمار وأحمد فؤاد نجم .

فأمل هو الوجه الفصيح المقابل لوجه نجم العامى، ولكن تميز امل يكمن فى قدرته على النفاذ بالفصحى فيما يسهل على العامية أن تعبر عنه ... اما تماثلهما ففى ذلك التناول الكوميدى للقضايا الاجتماعية والوطنية وفى لا نهائية التجول اليومى والاصرار اللاشعورى فى أن يكون الشعر مادة للحياة الآمرالذى يجعلهما لا يصلحان لأى شئ آخر.

هذه شهادات وملاحظات هامة ولكنها بحاجة إلى تأكيد وإضافة وهذا يضع على كاهل كل اصدقاء أمل وأقاربه مسئولية كبيرة، تملى على كل من لديه قصائد أو معلومات صحيحة عن حياة أمل وقراءاته أن ينشرها أو يقدمها لنا للاطلاع عليها. إن دراسة حياة امل دنقل ومصادر ثقافته وفنه الشعرى، مشروع ممتد امام الباحيثين فى الحاضر والمستقبل.

الصدفة وتصاريف الأقدار

وكانت الصدفة الحسنة هى التى وضعتنى فى مقدمة الذين اضطلعوا بهذا المشروع وأولوه جل اهتمامهم، وكانت الطبعة الأولى من هذا الكتاب قد صدرت فى يناير 1988 وبعد أربع سنوات من كتابتها أصبحت هى الشهادة الحقيقية على هذا الاهتمام الجاد ولم يكن هذا الاهتمام أمراً طارئا بالنسبة لى، بل امتداداً طبيعيا لاهتمامى بدراسة الشعر عموما والشعر الحديث بوجه خاص

وكان الاهتمام فى بدايته يتركز على الشعر المسرحى كجزء من تخصصى فى دراسة المسرح وقد ظهرت هذه الدراسات فى كتابى "المسرح وقضايا الحرية" الصادر فى 1984 من هيئة الكتاب وشملت مسرحية الشرقاوى:" النسر الأحمر" ومسرحية" حكاية من وادى الملح" للشاعر محمد مهران السيد وبحث طويل عن " مصر فى مسرح صلاح عبد الصبور".

وفى كتابى " قضايا الإبداع والنقد" 1986، يجد القارئ بحثاً عن " البياتى بين صلاح عبد الصبور ونزار قبانى" بالإضافة إلى بحث عن" نقد المسرح الشعرى فى المجلات الأدبية " ودراسة لدوانين لشاعرعربى هو عذاب الركابى بعنوان " شاعر يبكى الغربة والنفى" بالإضافة إلى كتاباتى عن إليوت وترجماتى لبريخت ثم" وول شوينكا " النيجرى الحاصل على جائزة نوبل عام 1986 حيث ترجمت له ست مسرحيات " الموت وفارس الملك " و"الأسد والجوهرة" و"حصاد كونجى" و"عذارى باخوس" و"سكان المستنقع" وكذلك مسرحية "السلالة القوية" وكلها مسرحيات شعرية تعد من روائع المسرح المعاصر.

كذلك فإننى دخلت عالم الكتابة من خلال الشعر. وشاءت الصدفة أن تكون أول قصيدة أنشرها هى قصيدة عمودية كتبتها بعد زيارتى لبورسعيد بعد العدوان الثلاثى ونشرتها "جريدة وطنى " 24 ديسمبر 1961 ويسعدنى أن أضعها امام القارئ هنا باعتبارها محاولة مبتكرة للتعبير بالشعر. وفى سنة2014 نشرت مجموعة بعنوان "أشعار وأغانى مصرية" في دار الحضارة للنشر بالدقى.

وهناك أشعار آخرى حديثة وعامية واغان كتبتها على فترات وقد أذيعت بعض أشعارى الوطنية فى أواخر الستينيات قبل نكسة يونيو 1967 ولكنى لم أهتم بنشر باقى هذه القصائد وحتى الأغانى لم اهتم بعرضها على المسئولين فى الإذاعة و التلفزيون لصعوبة السير فى دهاليز هذه الغابة. وقد نشرت هذه المجموعة أخيرا باسم "أشعار وأغانى مصرية"في دار الحضارة للنشر بالدقى.

على كل حال فإن القارئ بإمكانه أن يرجع لمسرحياتى المنشورة مثل " القضية " 1979 و" المجنونة " 1988 و" لقاء على القنال" وسوف يجد روح الشعر تتخلل نسيج العمل كله ثم تتبلور وتنفجر فى لحظات لتغطى مشاهد بأكملها، هذا هو سر ارتباطى بالشعر وبالشعراء ومع ذلك فإننى لم أزعم انى شاعر لأن لصورة الشاعر فى عقلى نماذج رفيعة مثل "ميلتون " و"شكسبير" واليوت " و" بريخت " و"المتنبى " و" أبى العلاء " و" شوقى " و" صلاح عبد الصبور" و" أمل دنقل" وباقى العباقرة المجددين فى كل بقعة من بقاع الأرض، وهيهات ان أبلغ هذه القمم الشاهقة. ورحم الله امرءً عرف قدر نفسه، فاكتفيت بالنقد والبحث الأدبى وكتابة المسرحيات واعتقد إنى مؤهل لهذه الأمور بصورة أفضل.

من وحى القناة:

قناة بلادى قد طغى الشوق والجوى
فجئت قناتى كى أزور الموانيا
واشتم نفحا من نسيمك عاطرا
وريح انتصار قد اعـاد قناتيا
فتراب أرضك يستثير محبتـى
وصفاء مائك يستطير جنانيـا
قد مات جدى فى ترابك حافـرا
ورنت إلى الأحفاد تشكو البواديا
فهل كان يمكن ان نعيش بلا قنا
ويقال بريطانيا الحليفة حاميـا
ويقال أخت النيل قد سلبت سدى
وغدا عرين الأسد يخشى الضواريا
لا بل أبينا واستشطنا ثـورة
وخلعنـا ثوبـا كـان رثـا باليـا
فطردنا غازية البحار وإلفهـا
واسقطنـا ايدن فى ميـاهك خابيا
وهزمنا باريس الخليعة كلهـا
واغرقنـا بينـو فى البرلس زاريا
وضربنا كلب الصيد أخذا بغدره
وردننا موشى وابن جوريون صاديا
حطمنا انفاهم وفزنا بكبرهم

وكشفنـا عـارهم صراحـا وعاريا

وقلنا سلامة للبرية والورى
سلامـا سلامـا مثل مـــائك صافيـــا
فبنيـــا سداً للرخاء وعزة
واقمنـــا صرحـــا للعروبة عاليـــا
لك الله يا مصر العزيزة فى المحن
ورعـــى جمـــالا للسفينـــة هاديـــا
رجل البطولة والعدالة والهدى
رجـــل السلام إلـــى الأخوة داعيـــا
أقسمت بأسمك، بأصالة منبتى
لأعيش لاسمـــك أو امـــوت فدائيـــا
الا فاعذرونى إن بالقلب نشوة
فـالخلد والأحباب كانـوا مزاريـــــا

لقد ذكرت هذه القصيدة لأوضح مسألة غاية فـى البسـاطة وهـى أن مـوقفى صـادر عـن إنتماء حقيقى للشعر والشعراء، وأن كتابى يمثل تحية وتقدير لمدرسـة الشـعر الحـديث ولشعراءها ممثلا فى امل دنقل . ولذلك تجنبت المقارنات والموازنات التى قد تشير إلى تمييز شعر أمل عن غيره واتجهت مباشرة إلى ابـراز جوانـب التفـوق والتميـز حتـى لا أغضب أحدا منهم. وكان هذا سببا لبعض الانتقادات، مثل ما قاله الدكتور صـلاح فضـل بالذات فى ندوة الأتيليه" بعد قرائة الكتاب لا نكاد نضع ايـدينا علـى الـربط بـين طريقـة امل دنقل الشعرية وطرق السابقين عليه، لنعرف الإضافة الحقيقية التى أضافها " هذه مبالغة من الدكتور صلاح فضل لكنها تحتوى على جزء من ا
لحقيقة يتمثل فى المقارنـة الحادة بين أمل وبين أبناء جيله بل والسابقيين عليه أولا.

4

نقاد ومصارعون

وفى ندوة الأتيلية (11/12/ 1989) التي عقدت لمناقشة الكتاب، وأدارها الدكتور سيد البحراوى، كان أول المتحدثين الناقد والمفكر الكبير الأستاذ محمود امين العالم .
وقرأ الأستاذ محمود العالم بحثا مكتوبا لـم يقصـره علـى منـاقشـة كتـابى بـل تنـاول فيـه أيضا مقال الدكتور صلاح فضل " توليـد الدلالـة فـى شـعر أمـل دنقـل" الـذى نشـر فـى فصـول فـى أكتـوبر 1980 وكـذلك " البحـث عـن لؤلـؤة المسـتحيل " للـدكتور سـيد البحراوى " ثم قارن بينهم جميعا وقد نشر هذا البحث فى مجلـة " الشـعر" فـى يوليـو 1990 بعنوان: " أمل دنقل وثلاث إتجاهات نقدية " .

وكان رأيه أن كتابى قد اهتم بـابراز البعد الـذاتى للشـاعر والبعد المعنـوى المضـمونى للشـعر فـى سـياق البعد الموضـوعى والسياسـى والاجتمـاعى والبعد التراثـى للرمـوز الشعرية وان المنـهج النقدى للكتاب هو منـهج التفسير والتقييم المباشـر القـائمين علـى القـراءة الخارجيـة للـنص، ومقابلتـه بشـكل مباشـر بواقـع أحـداث ووقـائع نفسـية أو سياسـية أو اجتماعيـة دون تحليـل أو معالجـة للقيمـة الجماليـة للـنص. ولـهـذا فمـنـهج الكتاب يكاد يكون امتداداً لمنهجنا فـى الخمسـينيات وخاصـة فـى أغلـب تطبيقاتـه لا فـى دعاويه النظرية.

ورداً على هذا أقول إنه بالنسبة للمنهج التفسيرى فهو منـهج نقدى سائد فى كل أنحاء العالم لا يكاد يفلت منه ناقد حتى أشد المتشدقين بالبنيوية، وهذا ما أثبته محمود العالم نفسه فى حديثه عن صلاح فضل وسيد البحراوى" والحق إن الأستاذ نسيم إذا كان ينتقد الدكتور صلاح فضل على اقتصاره على الجانب الشكلى. فانه هو كذلك يكاد يقتصر أو يغلب الجانب المعنوى السياسى والاجتماعى فى تحليله وتفسيره لشعر أمل دنقل".
وفضلاً عن ذلك فإن هذا ما تتطلبه طبيعة دراستى والتـى كـان عنوانـهـا الأصـلـى " أمـل دنقل ـ أمير شعراء الرفض " والتى قصدت بهـا تقـديم رؤيـة أو قـراءة خاصـة لشـاعر رافض من خلال شعره. وهو شاعر متميز بحساسيته الشديدة إزاء قضايا وطنه وناسه الاجتماعية والسياسية، وكان ارتباطـه الشـديد بهـذه القضـايا سـراً مـن أسـرار إلهامـه وتفجر موهبته، حتى كاد شعره كله وأفضل قصائده أن تكون وقفاً على هذه الأمور. فلم يعرف أن أمل دنقل قد كتب قصائد متميزة فـى الحـب أو الهجـر أو فـى أغـراض أخـرى كالمديح أو المناسبات.

كذلك ارتبطت حياته بشعره ومواقفه ارتباطـا وثيقـاً بصـورة لا تكـاد تتكـرر عنـد شـاعر آخر. وهذا ما أوضحته فى أول فصـول الكتـاب حـين قلـت: " أن تطـوره الشـعرى سـار بإزاء حركة الواقع فـى نطـاق قـانون الفعل ورد الفعل أو التحـدى والاسـتجابة و لـهـذا تحدد عنده موقف الرفض والقبول ومن ثم كان الرفض عند شاعرنا يمثل موقفاً أخلاقياً توصل إليه من خلال معاناته لتجربة الحياة والفن فـى واقـع محـروم مـن أجـواء العـدل والحرية ". وإزاء هذا لم يكن هناك مفر من الاعتماد على المنـهج التفسيرى.
وكان يمكن للأستاذ العالم أن يكون منصفاً أكثر لو حذف من عبارته كلمة "المباشر" لأن فيها الحد الذى يفصل بين نقدى في هذا الكتاب ونقده هو وجماعة التفسير المباشر فى الخمسينات. ولعله أن تكون صدفة غريبة أن يأتى هذا الكلام فى وقت اثبت فيه اعتراضى الشديد على منهجه هذا وذلك فى كتابى "لويس عوض ومعاركه الأدبية" (عند مناقشتى لرأى طه حسين والعقاد حول الأدب الجديد ووصف طه حسين لكلام محمود العالم وعبد العظيم أنيس بأنه طلاسم وألغاز تارة وتارة أخرى بأنه كلام سريانى أو يونانى لا يقرأ ص 124)

فتفسيرى يعتمد على تحليل بناء القصيدة ككائن عضوى مستقل بذاته، حتى يمكن التعرف على الصورة الكلية أو الانطباع العام الذى منه يمكن استخلاص الدلالة ـ وهذا ما صنعته بدرجة تكفى القارئ العادى الذى يتوجه إليه الكتاب. ومن أجل هذا ابتعدت عن الاستغراق فى الشكليات والتفصيلات البنيوية التى تهم المتخصصين، والتى تفسد على القارئ أو المثقف متعته فى تذوق العمل الأدبى، وقد كان أمامى مقال الدكتور صلاح فضل الذى عرضت له فى كتابى ونقدته بالقول:
" هذه نماذج للطريقة البنيوية فى النقد كما طبقها الدكتور صلاح فضل فى دراسته لشعر أمل دنقل وهى طريقة مفيدة بغير شك تساعد على فهم بنية القصيدة والعناصرالفاعلة فى تكوينها. فهى دراسة لغوية أسلوبية تحصر نفسها فى دراسة الشكل الفنى فقط ولا تكفى وحدها فى كشف علاقة نص أدبى بنص آخر أو ارتباط هذا النص بظاهرة ثقافية أو اجتماية أو تاريخية".
ذلك إن مهمة النقد كما تعلمتها عند إليوت ومدرسته، هى تصحيح الذوق وتوضيح الأعمال الأدبية. وبتعبير آخر ترقية الذوق والفهم وزيادة الاستمتاع. فهى مهمة تنويرية قبل كل (شئ. اما اظهار البراعة فى الثرثرة بذكر شفرات ولغريتمات كلامية، فهو أمر لا يستهوينى ولم أعد به حتى لا يطالبنى به أحد. وقد ضاق صدر الدكتور صلاح فضل ضيقاً شديداً بهذا النقد الموضوعى، واستشاط غضباً فى الندوة خصوصاً عندما أشار الأستاذ محمود العالم إلى هذه الفقرة ...
واخرجه هذا الغضب عن الموضوعية فى التناول حتى قال:

"كان على المؤلف أن يتساءل: ما الذى لا أجده فى شعر أمل دنقل، وهو ما لم يفعله وقد اكتفى بالإجابة على سؤال: ماذا وجدت فى شعر أمل دنقل؟ وهكذا حمله الغلو فقال كلاما كثيراً لا يمت للنقد الموضوعى بأى صلة وكان يقوله بغضب وانفعال شديدين، أصاب الحاضرين بالدهشة والوجوم وكان المكان ممتلئاً بنخبة كبيرة من الأساتذة والنقاد والكتاب فلم ينطق أحدهم باستفسار أو تعليق بعد أن تكهرب الجو هكذا دون مبرر معقول. وكانت هذه ربما المرة الأولى التى تواجه فيها ندوة ساخنة فى الاتيليه بمثل هذا الصمت. لم أكن مسئولاً أبداً عنه لأننى قابلت هجوم الدكتور صلاح فضل بابتسامة، ولم أرد عليه، فلأول مرة يحاسب كاتب على ما لم يقله، فالكاتب يحاسب دائماً على ما كتب أو قال . لم ينشر الدكتور صلاح فضل كلامه ولا أعتقد انه يمكن أن ينشره كما قاله أبدا فى أثناء ثورته العنيفة.

إن النقد بل حتى القسوة فى النقد هى أحياناً حق من حقوق الناقد، وقد كان الأستاذ محمود العالم قاسياً لكنه لم يصل إلى هذا الحد. أما موقف الدكتور صلاح فهو المثير للتساؤل، فنقدى للبنيوية لا يصلح سبباً لذلك لأن الدكتور صلاح فضل لم يكن مسئولا عن قصور البنيوية ولا هو من دعاتها الأصليين وإنما هو أستاذ وناقد كبير مجتهد ساهم فى التعريف بهذه المدرسة الأوربية فى ترجماته ونقده. وقد اثنيت على تمكنه وتطبيقه لها ولا أعتقد أن تساؤلى عن توقفه عن مناقشة ديوان" العهد الأتى" بغير مبرر يمكن أن يدفع بناقد كبير مثله إلى هذه الثورة الغاضبة. فقد كنت أطالبه بما وعد

به فى بداية حديثه عن المجموعة الشعرية وهذا ما قلته ص 265 ورغم تناوله لعديد من قصائد أمل دنقل إلا أنه توقف أمام ديوان " العهد الآتى" بغير مبرر ولم يتناول إلا قصيدة " صلاة " وهى أول وأقصر قصائد المجموعة، واكتفى بقوله " و بالرغم من أن مجموعة " العهد الآتى" ذات قوة آسرة تغرى باستمرار التناول النقدى، فإننا مضطرون لأن نخلع أنفسنا من منطقة جاذبيتها لنعود كما وعدنا إلى شرح فكرة التزاوج والتمثيل لها " وكان تعليقى كما ورد فى الكتاب هو:

" وهذا عذر لا يكفى طبعاً لتبرير عدوله عن تناول أى قصيدة من قصائد المجموعة، لأنه لم يناقش القضية التى طرحها حين قال " فالشاعر يطمح إلى أن يكتب لنا انجيل العصر الحديث الذى يقف بين العهدين القديم والجديد، بل ينزع إلى الحلول بديلاً عنهما ".

ولم يقل الدكتور صلاح فضل: هل نجح الشاعر أمل دنقل فى تحقيق هذه الغاية أم أخفق؟ رغم أنه طالبنا من البداية بمناقشة هذا الأمر دون حرج قائلاً: " ولا ينبغى أن نتحرج من تحليل هذه الظاهرة فكل مظاهر الخلق الإنسانى تبدو وكأنها قبس من النبوة وفيض عنها، فلماذا عاد وتحرج من الماقش؟"

وهكذا كانت مناقشتى فى لب الموضوع. لم أقل كلمة خارجة أو كلمة جارحة بل كنت أطالبه بما وعد وأهيب به أن يكمل ما بدأه لأنى أثق فى قدرته على هذا، لكنه أخذ الأمر على محمل آخر. فلم يكد الأستاذ محمود العالم يعيد الإشارة إلى أقوالى حتى أخذ الدكتور صلاح فضل يدافع عن مقاله بشدة وعنف. وكان مما قاله انه كتب ذلك المقال فى ظروف سياسية صعبة لم تكن ترحب بالنقد عموماً . ولم يكن الحديث عن أمل دنقل وشعره يجد قبولاً من الأجهزة الاعلامية والثقافية فى الدولة، فمال الدكتور صلاح فضل إلى التخفى خلف منهج البنيوية حتى لا يقول صراحة ما ينبغى أن يقال ... ومع ذلك لم تنشر الأهرام مقاله، حسب اعترافه هو فى الندوة. ولا بأس أن يكتب الدكتور صلاح فضل أو غيره من النقاد ما يريد وبالطريقة التى يراها
ويختارها بشرط واحد هو أن يحترم حق الآخرين الذين قالوا ما لم يرغب هو فى قوله.

و حين أتذكر هذه الندوة أجد أن المشهد كان غاضباً بشكل غير عادى. كان الصراع واضحاً بين الناقدين الكبيرين، وأشهد أن محمود العالم كان قاسياً فى نقده لمقال الدكتور صلاح فضل،
وفي نقده لكتابى، وكان منحازا جدا لكتاب صديقه سيد البحراوى الذى لم يتناول سوى قصيدة واحدة هى "مقابلة خاصة مع ابن نوح " وقد حاول الدكتور صلاح فضل أن يرد بالعنف أيضاً فكان كلاهما كمصارعين يريد كل منهما أن يصرع الآخر.

وتحول الجزء الأكبر من هذا العنف نحوى. كان الوضع بالنسبة لى أشبه بمعركة بين اثنين من النقاد الكبار المحترفين وبين أحد الهواة الذى اقتحم الملعب فجأة بكتاب

صغير فأثار زوبعة وفجر حاجز الصمت فانطلقت الألسنة وجاءت بعض ردود الفعل أشبه بطلقات المدفعية الثقيلة لإرهاب هذا الدخيل وتحذيره.

لكننى تقبلت الأمر بابتسامة هادئة، ومال معظم الحضور إلى جانبى، فالتفوا حولى وغمرونى بمشاعر التقدير والتشجيع، أذكر منهم الكاتب الفلسطينى الدكتور فيصل دراج الذى شد على يدى وقال: "رغم كل هذا فأنا أحييك على هذا الكتاب " أما الدكتور أنور لوقا فنصحنى بألا أغضب لأن هذا دليل على تأثير كتابى ... وقال: " كتابك نفذت طبعته وأصبح جزءاً من ثقافة الشعب. أما هذه الكتابات الأخرى فسوف تظل محصورة بين قلة من المتخصصين".

وفى جانب كبار النقاد المنصفين يقف الدكتور عبد المنعم تليمة الذى أوجز رأيه فى نقاط محدودة و*ذلك فى برنامج مع النقاد بالإذاعة (1989/9/18) فقال:

أعجبنى فى هذا الكتاب جملة من الأمور:

*** استقامة المنهج، وهذا المنهج يصدر بالفعل عن وعى صحيح بعلاقة الشاعر بالواقع، واقع متدرج ينتظم البنية الاجتماعية**
والثقافية والسياسية ومرتبط بجذوره فى التراث والأساطير.

*** نبه نسيم إلى أن الرفض عند أمل دنقل يصدر عن أساس أخلاقى ملتزم وليس الرفض الفوضوى أو الخروج على الجماعة بل رفضه كان مؤسساً على مصلحة الجماعة**
ومستقبلها.

*** كيفية التعامل مع القصيد الشعرى. بشرنا نسيم وأنجز وعده، بأنه سيكشف من خلال التوافق أو التضاد أو التكرار عن رؤية الشاعر.**

***فى قصائد أمل دنقل استطاع أن يبين الأداء الشعبى فى العدودة والندب الصعيدى.**

*** أن يحدد أن قصيد أمل مبنى أساساً على المفارقة.**

*** أن يصوب بعض الأحكام الدارجة وأن يبين أن العنف والرفض ليس صادراً فحسب عن فلاسفة العنف كنيتشه وإنما عن بعض الكتب المقدسة كالعهد القديم.**

بالإضافة إلى الأستاذ رجاء النقاش الذى قال فى مقاله الثانى بالمصور بتاريخ (12 أغسطس 1988)"

لا أعرف فى المكتبة العربية كتاباً آخر عن أمل دنقل له من القيمة والوضوح والدقة ما يتوافر فى دراسة نسيم مجلى. وفى البرنامج الثانى قال الأستاذ رجاء" إنه عموماً أهم كتاب صدر فى الفترة الأخيرة، وأهم كتاب نقدى وهو كتاب ساخن إن صح التعبير" لقد نشرت آراء أخرى عديدة فى الصحف العربية الأخرى
وسمعت آراء عشرات من أساتذة النقد فى الجامعات ومن الشعراء البارزين كلها تشيد بمنهج الدراسة ومستواها، فإن دل هذا على شئ فإنه يدل على أن المستوى الذى حققته كتاباتى يحوز قبول وتقدير جمهور كبير من النقاد، ويؤكد على صحة منهجى وسلامة موقفى واتجاهى مبدعاً وناقداً.

وكان حكم القراء حاسماً إذ نفذت طبعة الكتاب الأولى فى أسبوعين واعيدطبعه فى هيئة الكتاب بالعنوان الأصلى سنة 1994 "أمير شعراء الرفض" ثم جاءت الطبعة الثالثة فى مكتبة الأسرة سنة 2000 ونفذت فى ساعات وهأنذا استعد لتقديم الطبعة الرابعة بهذه المناقشة الساخنة والثرية فى آن واحد. هذه الطبعة التي نشرتها دار التحرير في سلسلة كتاب الجمهورية سنة2008.

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــ

<u>هوامش:</u>

1-راجع " تعقيب على ملف أمل دنقل" مجلة "أدب ونقد"اكتوبر1985
2 " الجنوبى " – تأليف عبلة الروينى – مكتبة مدبولى – القاهرة 1985.
3" التراث الإنسانى فى شعر أمل دنقل " د. جابر قميحة – دار هجر للطباعة والنشر 1987.
4- " البحث عن لؤلؤة المستحيل " – د. سيد البحراوى – دار الفكر الجديد – لبنان 1988.

نسيم مجلى

الهرم، 29 نوفمبر1984

لص

لص

لص

لص

لص

لص

لص

لص